بصائر من القرآن
تأليف
أ.د. رقية طه العلواني
الطبعة الثانية
الجزء الأول
سورة الفاتحة • سورة البقرة
ARK
BOOKS

تأليف

أ.د. رُقَيَّة طه العلواني

الطبعة الثانية

الجزء الأول

سورة الفاتحة • سورة البقرة

الأستاذة الدكتورة رقية العلواني

أستاذة الدراسات الإسلامية في كلية الآداب بجامعة البحرين. قامت بنشر العديد من المؤلفات في مجالات علمية مختلفة من أبرزها تدبّر القرآن الكريم ودراسات المرأة والأسرة وتعليم القيم الحضارية، باللغتين العربية والإنجليزية، وتُرجمت الكثير من كتاباتها إلى الفرنسية والتركية وغيرهما. فازت بالعديد من الجوائز العالمية والإقليمية منها جائزة الأمير نايف العالمية في السنّة النبّوية في دورتها الأولى عام ٢٠٠٥م، وكُرمت من العديد من الجهات الأكاديمية والتربوية. لها ما يزيد على الستين مؤلفًا ما بين كتب منشورة وبحوث علمية في مجلات ومؤتمرات محكّمة.

Ruqaia.com
drruqaia@yahoo.com

المحتويات

بين يدي بصائر من القرآن

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خيرِ المرسلينَ، وعلى آلهِ وصحبِهِ أجمعينَ، وبعدُ:

بدأتْ رحلتي في تعليمِ ونشرِ تَدَبُّرِ القرآنِ الكريمِ بعدَ تقديمي لرسالةِ الدُّكتوراه في الجامعةِ الإسلاميَّةِ العالميَّةِ بماليزيا في بدايةِ الألفية الثالثة. وكنت حينها قد انتهيت للتّو من كتابة وتقديم رسالتي للدكتوراه الموسومةِ بـ: «أثر العُرف في فَهْمِ النُّصوصِ – قضايا المرأةِ أُنْمُوذَجًا» التي تَرَكَتْ أثرًا عميقًا في مسيرتي الفكريَّةِ. فَقَدِ اطَّلَعْتُ من خلال الإعداد والبحث في موضوعاتها على كثيرٍ مِنَ التَّأْوِيلاتِ لنصوصِ القرآنِ الكريمِ المتعلقةِ بقضايا المرأةِ تَعَلُّقًا خاصًّا.

وقد تبينَ لي حينها البَون الشَّاسِعُ بينَ العديدِ من تلك التأويلات وبينَ النُّصوصِ العظيمةِ البَيِّنَةِ في معانيها ومقاصِدِها، وبدأتُ أتأمَّلُ تأمُّلاً عميقًا في أسبابِ ذلكَ وفي العواملِ التي تَقِفُ خَلْفَهُ.

وبدا لي واضحًا أن تراجع التدبُّرِ في كتابِ اللهِ عزّ وجّل، مِنْ أبرزِ تلكَ العواملِ التي تُضْعِفُ صلةَ الإنسانِ بالقرآنِ وتقودُهُ إلى التَّمَسُّكِ برأيٍ مخالفٍ لظاهرِ النُّصوصِ أو بِتَأْوِيلٍ أبعدَ ما يكونُ عنها.

من هنا زادت رغبتي في تقديم مساهمة متواضعة في تنمية الوعي ونشره بأهمية تدبّر القرآن الكريم وتعليم قواعده وأثره في تصحيح سلوكيات الإنسان والقيام بدوره المناط به على هذه الأرض من خلال إعمارها وإصلاحها بالعمل الصالح البنّاء.

وَقَدَّرَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى أَنْ يَحْدُثَ ذلكَ قُبَيْلَ قُدومي إلى مملكةِ البحرينِ (رعاها اللهُ) الَّتِي بدأتُ فيها بإلقاءِ سلسلةٍ مِنَ الدَّوْراتِ والمحاضراتِ في مُخْتَلِفِ دُورِ تعليمِ القرآنِ الكريمِ وتحفيظِهِ في تدبّر القرآن الكريم وسُوره.

وهنا بدأتُ أَعْظَمَ رِحْلَةٍ خُضْتُهَا (وَلَمْ أَزَلْ أَخُوضُ غِمَارَهَا) مَعَ تَدَبُّرِ كتابِ اللهِ العزيزِ، وَتَكَشَّفَتْ لي حاجةُ الإنسانِ الماسَّةُ إلى ربطِ ما يتلوهُ مِنْ آياتٍ في الكتابِ مَعَ ما يراهُ مِنْ آياتٍ في الكونِ والواقعِ والأَنْفُسِ.

وأصل هذا الجزء (الذي أقدّمه بين أيدي الباحثين والقراء) وما سيأتي بعده بإذن الله من أجزاء، تفريغ للمحاضرات والدروس الأسبوعية التي كنت أُلقيها كل يوم ثلاثاء بعد صلاة العصر منذ عام ٢٠١٠م في مسجد الشيخة حصة بمنطقة جري الشيخ. أما ما سبق ذلك من محاضرات ودروس، فإن غالبها لم تُسجل وما سُجل منها فُقد ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ورغم عزمي على الانشغال في هذه الفترة بتسجيل ما تبقى لي من حلقات تدبّر سُور القرآن حتى الانتهاء منها كاملة بإذن الله تعالى، إلا أني راجعت نفسي في ذلك وخشيت حلول الأجل قبل انتهاء العمل.

الأمر الذي دفعني إلى الكتابة مع الاستمرار في التسجيل أولاً بأول، وكلي أمل ورجاء أن يوفّقني المَولى عزّ وجّل لإتمام ذلك كله على الوجّه الذي يرضيه ويقبله إنّه سميع مجيب.

أما جزء المقدمة فقد رأيت إرجاء طباعته ونشره لحين الانتهاء من تدبّر القرآن كاملاً ليتضمن المنهج والقواعد والأصول التي سرتُ عليها وما يمكن أن يطرأ عليها من تعديلات وإضافات، لا يخلو منها أي عمل وجهد بشري.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان لكل أولئك الذين ساهموا في التسجيل والتفريغ والتحميل على المواقع

الإلكترونية ونشر ذلك كله في مختلف وسائل التواصل الاجتماعي، إضافة إلى ترجمة العديد من الحلقات المسجلة إلى لغات مختلفة. والله اسأل لي ولهم التوفيق والسداد والقبول وهو الهادي إلى سواء السبيل

أ.د. رقية طه العلواني

٢٠٢٠/١/٦م

مملكة البحرين

تدبّر سورة الفاتحة

سورة الفاتحة هي أعظم سورة في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، اختارها سبحانه ليجعلها فاتحة كتابه الذي يخاطب به عباده على اختلاف ثقافاتهم وأزمنتهم وبيئاتهم، وليفتتح بها رسالته إلى خلقه.

فالفاتحة خطاب الافتتاح للخلق الذين شاء سبحانه أن يجعلهم خلفاء في الأرض، يقيمون رسالة القرآن ويحققون مقاصدها، ولعظم هذه السورة الجليلة ومعانيها العظيمة ومقاصدها البليغة، فقد تعددت الأسماء التي أطلقت عليها[1]، فماذا في «أم الكتاب» من معانٍ ومقاصد

١. سورة الفاتحة من السور ذات الأسماء والألقاب الكثيرة جرت على ألسنة القراء والعلماء من عهد السلف،. انظر: تفسير القرطبي - ط٢ دار الكتب المصرية (١/١١١)، تفسير ابن كثير - ط١ دار الكتب العلمية (١/١٨)، البرهان في علوم القرآن - ط١ دار إحياء الكتب العربية (١/ ٢٦٩-٢٧٠)، ابن عاشور، االتحرير والتنوير - الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ هـ ، (١/ ١٣١).

جعلها تختص بكل هذه الفضائل؟ وماذا فيها لتكون رُقية وشفاءً للنفس البشرية من جميع أمراضها الحسية والمعنوية؟ ماذا في «أم الكتاب» من مقاصد ومعان جعلها تُتلى وجوبًا في كل ركعة من ركعات الصلاة؟ وماذا في أم الكتاب من غايات وأسرار جعلها تختص دون سائر سور القرآن بلفظ الصلاة؟ وما الذي في «أم الكتاب» ليجعلها تحوز كل هذه المنزلة العظيمة في كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - وفي الصلاة التي هي عنوان الصلة بين العبد وربّه؟.

لعلّ النظر في أسماء السورة وما ورد من أحاديث صحيحة في فضلها ومنزلتها، يقف بنا عند عدد من تلك المقاصد العظيمة والغايات السامقة التي تحققها تلاوة هذه السورة.

أسماء السورة وعلاقتها بمقاصدها

هذه السورة الكريمة حازت على العديد من الألقاب والأسماء، وهذا دليل على مكانتها وأهمية تدبّرها وتلاوتها وجمعها لمقاصد القرآن العظيم كله، من توحيد الله سبحانه إلى دور الإنسان في القيام بمهمة الخلافة، وأهمية تزكيته لنفسه التي بين جنبيه.

ومن أشهر الأسماء التي عرفت بها سورة الفاتحة: «أم الكتاب»، «السبع المثاني»، و«الفاتحة» وهذا الاسم الأخير هو أشهرها. ومن أسمائها سورة

الصلاة، والحمد، والشكر، والشافية، والأساس، حتى أنهاها السيوطي إلى خمسة وعشرين اسمًا في كتابه الإتقان[2]، وفاتحة الكتاب وردت في الحديث: (لا صَلاة لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ).[3]

والأصل اللغوي لمادة (فتح) يدل على خلاف الإغلاق، يقال: فتحت الباب وغيره فتحًا وبابٌ فَتْحٌ: مفتوح في عامة الأحوال، ثم يُحمل على هذا المعنى المادي سائر المعاني المعنوية، فيقال: فتح الله عليه في العلم، وفتح الله عليه باب الرزق...

ولفظ (الفتح) ورد في القرآن الكريم في ثمانية وثلاثين موضعًا (٣٨). وفي القرآن الكريم سورة جاءت باسم الفتح، والمتتبع لسياقات اللفظة في القرآن الكريم يجد أنه جاء على معنيين رئيسين: الفتح المادي، وهو الأصل في معنى الفتح لغة، والفتح المعنوي، وأكثر ما جاء هذا اللفظ بحسب هذا المعنى المعنوي.

و«الفاتحة» كما جاء عن ابن عاشور: مشتقة من الفتح، وهو إزالة حاجز عن مكانٍ مقصودٌ وُلُوجُه، فصيغتها تقتضي أن موصوفها شيء يزيل حاجزًا،

٢. - جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص ١٦٧. انظر: تفسير ابن كثير - ط١ دار الكتب العلمية (١٨/١).
- تفسير القرطبي، مرجع سابق، (١١٢/١)، تفسير ابن كثير، مرجع سابق، (١٩/١)، التحرير والتنوير، مرجع سابق، (١٣٥/١).

٣. - رواه البخاري (الأذان/٧١٤). وضع قوس

وليس مستعملاً في حقيقته بل مستعملاً في معنى أول الشيء؛ تشبيها للأول بالفاتح؛ لأن الفاتح للباب هو أول من يدخل. ومعنى فتحها الكتاب أنها جُعلت أول القرآن لمن يريد أن يقرأ القرآن من أوله، مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن.[4]

وعند التدبّر في هذا الاسم يتضح كذلك أن الفاتحة جاءت بمفتاح العلاقة بين العبد وخالقه سبحانه وتعالى، المتمثل في علاقة التوحيد والعبودية؛ فلا تُفتح علاقة الإنسان بربه إلا من خلال تصحيح التوحيد بأنواعه الثلاثة المعروفة - توحيد الرّبوبية، توحيد الألوهية، توحيد الأسماء والصفات، التي اجتمعت في سورة الفاتحة، وهذا معنى دقيق يؤكد أن من أعظم مقاصد السورة هو التوحيد وتحقيقه في واقع حياة القارئ لها، وهذا معنى مضاف إلى الفتح.

وفي حديث النبي ﷺ جاء عن ابن عباس أنه قال: بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبيِّ ﷺ، سمع نقيضًا[5] من فوقِه فرفع رأسَه فقال: «هذا بابٌ من السماءِ فُتِحَ اليومَ لم يفتح قط إلا اليومَ فنزل منهُ ملكٌ فقال: هذا مَلكٌ

٤. - ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج١، ص ١٣١، ١٣٥. وانظر كذلك: ابن رجب الحنبلي، تفسير سورة الفاتحة، دار المحدث للنشر والتوزيع، ١٤٢٧هـ ، ج١، ص ٢٢. على الرابط الإلكتروني:
http://shamela.ws/browse.php/book-29574#page-17

٥. النقيض: هو صوت كصوت الباب إذا فتح. انظر: شرح النووي على مسلم - ط٢ دار إحياء التراث العربي - بيروت (٦/٩١).

نزل إلى الأرضِ لم ينزل قط إلا اليومَ فسلّم وقال: أبشِرْ بنورينِ أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌّ قبلك؛ فاتحةُ الكتابِ وخواتيمُ سورةِ البقرةِ لن تقرأَ بحرفٍ منهما إلا أُعطيتَه».[6]

ولعلّ بعض السلف فهم هذا المعنى الدقيق ومنهم ابن تيمية رحمه الله، حيث عُرف عنه أنه لا يكلّمه أحد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر، ولا يزال في الذكر يُسمع نفسه، وربما يسمع ذكره من إلى جانبه، مع كونه في خلال ذلك يكثر من تقليب بصره نحو السماء، هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس ويزول وقت النهي عن الصلاة.

وقد روى البزّار عنه ذلك فقال: (كنت مدة إقامتي بدمشق ملازمه جُل النهار وكثيرا من الليل، وكان يدنيني منه حتى يُجلسني إلى جانبه، وكنت أسمع ما يتلو وما يذكر حينئذ، فرأيته يقرأ الفاتحة ويكررها، **ويقطع ذلك الوقت كله –أعني من الفجر إلى ارتفاع الشمس– في تكرير تلاوتها).**[7]

ولا أرى أن القصد من التكرار لذاته قدر ما ينصرف إلى استجلاب التدبّر في معانيها واستحضار مقاصدها العظيمة، التي بها تقوى علاقة العبد بخالقه العظيم سبحانه وتعالى.

---

٦. أخرجه مسلم (٨٠٦).

٧. – أبو حفص البزار، الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق» صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٦م، ص ٣٨-٣٩

ومن الأسماء التي ثبتت صحتها وعرفت بها سورة الفاتحة؛ السبع المثاني. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] أي فاتحة الكتاب.

والمثاني تطلق باعتبار معنيين: باعتبار ما ثُنِّي لفظُه وكرِّرَ. والثاني: باعتبار ما ثُنِّيَتْ أنواعُه وأقسامُه، فالتثنية يُرَادُ بها مطلقُ العدد مِنْ غير تخصيصٍ بعدد الاثنين.[8]

ومن أسماء هذه السورة العظيمة كذلك؛ الصلاة. فقد ورد في الخبر الصحيح عن الله عَزَّ وَجَلَّ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله: أَثْنَى علي عبدي، وإذا قال ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال الله: مَجَّدَنى عبدي. وإذا قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال ﴿اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ قال: هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل».

وفي ذلك تأكيد دور الفاتحة في القيام بالصلاة وتحصيل خشوعها. فالأصل في الصلاة وروحها؛ الخشوع. وتلاوة الفاتحة فيها مرة بعد مرة في كل ركعة، يُشعر المرء بهيبة موقفه بين يديّ خالقه في الصلاة والتفطن

٨. – ابن رجب، مرجع سابق، ص ٢٧ وما بعدها.

إلى عظمة مناجاته والتفكر في سائر حركات الصلاة لتحقيق ذلك والوصول إليه.

والناس -كما هو معلوم- يتفاوتون في مدراكهم وأساليبهم في التعبير والبيان، إلا أن من رحمة الله سبحانه أن أنزل هذه السورة وفرض تلاوتها في الصلاة ليتساوى الناس في هيئة مناجاته سبحانه على اختلافهم، فالكل يقرؤونها ويناجون بها خالقهم سبحانه، ويبقى التفاوت في النّية والإخلاص وغيرها من مراتب العبودية، وهذا حاصل لا من قبيل تلاوة السورة ذاتها فحسب، بل من قبيل تدبّر القارئ فيها، واستحضار معانيها، وما يفتح الله سبحانه وتعالى من الفضل على العبد في إقباله على خالقه وتفريغ ذهنه من الاشتغال بغيرها.

فجميع المصلين يقرأون سورة الفاتحة، ولكن التفاوت في تدبّرها وأثرها في تحصيل الخشوع في الصلاة الذي هو المقصد الأساسي منها، عظيم، **فالعلاقة بين تلاوة وتدبّر سورة الفاتحة، وحصول الخشوع في الصلاة واضح فريد في معانيه. من هنا كانت الصلاة تُفتتح بها.**

الأجواء التي نزلت فيها سورة الفاتحة وعلاقتها بمقاصدها

إن الوقوف على الأجواء التاريخية والظروف التي نزلت فيها السورة، يفتح أمام المتدبّر آفاقًا واسعة، تمكنّه من الربط بين ما شهده

جيل التنزيل الأول من وقائع وأحداث إبان تنّزل السورة، وما يشهده المتدبّر في واقعه ليتعلّم من خلالها كيفية معالجة الأحداث وتصحيح الواقع.

وسُورَةُ الْفَاتِحَة مكية كما أكد أكثر أهل العلم، ونزلت بعد سورة المدثر، فهي خامس سورة في النزول.

نزلت في الفترة الحرجة للدعوة وقبل الهجرة الأولى إلى الحبشة. وكانت مواقف المشركين تتفاوت من الدعوة الإسلامية؛ فمنهم من اتخذ المداهنة والمخادعة، ومنهم من اتخذ العنف والشدة، إلا أنهم تلازموا في مواقف الصد والتكذيب وتضامنوا في قيادة حملتها.[9]

وبقي أثر الدعوة محدود النطاق في العدد والقوة مقابل ما واجهه المسلمون من مشاق وصعوبات، ورغم كل الصعاب التي تواجهها الدعوة تبدأ السورة العظيمة بالحمد، وتعلّم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ممارسة الحمد المطلق في كل حال، وأن الحمد من تمام العبودة لله سبحانه؛ فالسورة نزلت والمسلمون في شدة وضيق ومشقة، والبدء بالحمد يجعله حالة إيمانية متواصلة لا ترتبط بالظروف التي يمرّ بها الإنسان، ولكنها نابعة من داخل ذاته وشعوره.

---

٩. – بتصرف شديد عن: محمد عزة دروزة، سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم صور مقتبسة من القرآن الكريم، عناية: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٠هـ، ج١، ص ١٥٢ وما بعدها.

من هنا ومنذ تلك الفترة المبكرة في عمر الدعوة، تعلّم المسلمون أن يحمدوا الله سبحانه على مختلف الأوضاع التي يمرّون بها والشدائد التي يقاسونها. **فعلاقة العبد بخالقه ينبغي أن تُبنى على الحمد المطلق، لا تخضع لتقلبات الحياة والظروف، بل هي مترابطة بشعور الإنسان بالامتنان للخالق سبحانه لتبث في نفسه الأمل والتفاؤل.**

ولا يعني الحمد ألا يهتم المرء بتحسين أوضاعه أو محاولة تغييرها نحو الأفضل، ولكنه يعني أن يبقى قلبه راضيًا بما قسم الله تعالى له، فالحمد يلازم القلب فلا يخرج معه ضجر ولا سخط ولا تأفف من الظروف والأحوال والصعاب.

ولو نظرنا في الواقع اليوم لوجدنا أن الكثير من الناس اعتاد على الشكوى لخلق الله من كل شيء، حتى بات لا يستشعر نِّعم الله عليه من كثرة شكواه وترديد العبارات السلبية على مسامعه ومسامع غيره. هذا المسلك لا يقود الإنسان إلى الشعور بأي درجة من درجات الرضا، الأمر الذي يمكن أن يودي به إلى المداومة على عيادات الأطباء النفسيين باحثًا عن حلّ.

والشعور بالحمد لا يعني أن الإنسان لا تواجهه صعوبات أو متاعب، ولكنها تعني أنه من الحامدين الراضين بما كتب الله وقسم. كما أن الحمد لا يعني الكسل والخضوع والاستسلام لواقع مرير، فالمؤمن يعمل بجوارحه بكل ما في وسعه والقلب حامد شاكر لأنعم الله عليه.

وقد يكون هذا الحمد من أسباب الشفاء في سورة الفاتحة وإن كان القرآن كله شفاء. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ) [يونس:٥٧]. فالرضا والحالة النفسية الهادئة التي يثمرها الحمد في النفوس، كفيلة بمواجهة الإنسان لأشد الأمراض ضراوة.[10]

وقد جاء الحديث عن الرقية بسورة الفاتحة، عن أَبِي سَعِيد الخدرى رضي الله عنه قال: (بَعَثنَا رَسُولُ الله في سَرِيَّةٍ، فَنَزَلنَا بِقَوْمٍ فَسَأَلنَاهُمْ القِرَى فلم يَقْرُونَا، فَلُدِغَ سَيِّدُهُم فَأَتَوْنَا، فقالُوا: هَلْ فِيكُم مَنْ يَرْقِي مِنَ العَقْرَبِ؟ قُلْتُ: نَعَم أَنَا، وَلَكِنْ لاَ أَرْقِيهِ حتى تُعْطُونَا غَنَمًا، قالُوا: فَإِنَّا نُعْطِيكُمْ ثَلاَثِينَ شَاةً، فَقَبِلْنَا، فَقَرَأْتُ عَلَيهِ الْحَمْدَ لله سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَبَرأَ وقَبَضْنَا الغَنَم، قَالَ: فَعَرَضَ في أَنْفُسِنَا مِنْهَا شَيْءٌ، فَقُلْنَا لاَ تَعْجَلُوا حتى تَأْتُوا رَسُولَ الله، قالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَيْهِ، ذَكَرْتُ لَهُ الذي صَنَعْتُ، قالَ وَمَا عَلِمْتَ أَنَّهَا رُقَيْةٌ؟ اقْبِضُوا الغَنَمَ وَاضْرِبُوا لي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ).[11]

من هنا قال ابن القيم: (فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه لم يقاومه الداء أبداً،

١٠. - انظر حول ذلك على سبيل المثال: عبدالرحمن الطريري، الضغط النفسي، الرياض، شركة الصفحات الذهبية ١٩٩٤م. كيت كينان، السيطرة على الضغوطات النفسية، بيروت، الدار العربية للعلوم ١٩٩٩م

١١. - رواه البخاري، فضائل القرآن، حديث رقم ٤٧٢١.

وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها؟!! فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان، إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه، والحمية منه لمن رزقه الله فهما في كتابه).[12]

وقد تعددت أقوال وتفسيرات الكثيرين من الباحثين المعاصرين في الحديث عن الشفاء بالقرآن، وخاصة سورة الفاتحة. إلا أن تتبع كلمة شفاء وسياقاتها في القرآن الكريم، تكشف عن الكثير مما يمكن أن يقع فيه التباس أو يذهب فيه الباحث مذاهب بعيدة أقرب إلى الشطحات منها إلى الصواب.

فالآية الأولى التي جاء فيها ذكر الشفاء في سورة يونس: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) [يونس:٥٧]. وفي سورة النحل: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل:٦٨-٦٩]. وفي سورة الإسراء: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا) [الإسراء:٨٢]. وفي سورة فصلت: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى

١٢. - ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج٤، ص ٣٥٢.

وَشِفَاء وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ). [فصلت:٤٤].

وسورة الفاتحة وهي أعظم سورة في كتاب الله لها من ذلك النصيب الوفير. ففي حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:» أَلَا أُعَلِّمُكَ سُورَةً مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُهَا؟ «قُلْتُ: بَلَى قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا تَخْرُجَ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ حَتَّى تَعْلَمَهَا» فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَقُمْتُ مَعَهُ، فَجَعَلَ يُحَدِّثُنِي وَيَدِي فِي يَدِهِ فَجَعَلْتُ أَتَبَاطَأُ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَخْرُجَ قَبْلَ أَنْ يُخْبِرَنِي بِهَا، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنَ الْبَابِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ السُّورَةُ الَّتِي وَعَدْتَنِي، فَقَالَ: «كَيْفَ تَقْرَأُ إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ؟» فَقَرَأْتُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، فَقَالَ: «هِيَ، هِيَ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي الَّتِي قَالَ اللَّهُ عزّ وجّل: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) الَّذِي أُعْطِيتُ.[13]

فقد يكون الشفاء للمؤمن من قبيل الحمد والطمأنينة التي تبنيها السورة العظيمة في النفس خاصة وأنها تتلى في كل ركعة. وهي السورة الوحيدة في كتاب الله التي جاء الأمر بتلاوتها في كل ركعة من ركعات الصلاة، فريضة كانت أم نافلة. الأمر الذي يؤكد أن هذه السورة بمنزلة عهد بين العبد وربه سبحانه، عهد يتجدد ويقوى في كل ركعة، عهد يذكّر الإنسان

١٣. – أبو عبدالله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، كتاب فضائل القرآن، دا رالمعرفة، بيروت، ١٩٩٨م، ج٢، رقم ٢٠٩٢.

بمقام عبوديته لخالقه سبحانه. من هنا لا ينبغي أن يغفل القارئ للسورة عن مقاصدها العظيمة.

وهذا العهد يقوى بمراقبة العبد لخالقه سبحانه، المؤسس على حمد الإنسان لخالقه العظيم، الذي يدفع به إلى التوجّه إليه وحده طلبًا للعون والهداية وسائر مطالب الدنيا والآخرة.[14]

والمتدبّر في هذه السورة العظيمة وما جاء في فضائلها وأسمائها يتبين له أن مقصودها؛ ذلك العهد الذي يشكّل فاتحة العلاقة بين العبد وربه عزّ وجّل. والصلة بين اسم السور في كتاب الله ومقاصدها جليل؛ فهذه السورة العظيمة من أشهر أسمائها الفاتحة، فكان مقصودها الأعظم مفتتح العلاقة بين العبد وربه سبحانه، من هنا جاء موضعها في كتاب الله الكريم في أوله، وموضعها في الصلاة في أولها. فالعلاقة بين العبد وخالقه سبحانه تُفتتح بالحمد وجميل الثناء عليه سبحانه، ومن ثمّ مراقبته في كل مقام، وهذا مما يُستشف مما قاله البقاعي من كلام وجيه في شأن الكشف عن مقصود السورة.

١٤. - أشار البقاعي إلى أن مقصود سورة الفاتحة العظيم هو المراقبة وكل شيء لا يفتتح بها لا اعتداد به. برهان الدين البقاعي، مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ، مكتبة المعارف،، الرياض، ١٩٨٧م، ج١. على الرابط: http://shamela.ws/browse.php/book-1404#page-61

تدبّر السورة التفصيلي

قبل أن يبدأ القارئ بتلاوة هذه السورة العظيمة، وقبل الشروع في الإقبال على القرآن العظيم ككل، عليه أن يُقبل على نيّته فيراقبها ويصححها؛ فلابد من تعلّم النية قبل العمل، والإقبال على القرآن العظيم من أعظم الأعمال؛ ولذا جاء عن العديد من السلف اهتمامهم بتصحيح النية خاصة مع الأعمال الجليلة. جاء عن سفيان الثوري: «مَا عَالَجْتُ شَيْئًا قَطُّ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي، مَرَّةً عَلَيَّ، وَمَرَّةً لِي».[15]

والنية تكون في القلب بداعية صادقة لا يمازجها رياء ولا فتور ويتلافى بها المسلم كل تفريط، فيحمله على كل سبب ينال به الوصول إلى كتاب الله، ويقطع كل سبب يحول بينه وبين الإفادة من هذا الكتاب العظيم، وما فاته من الفرص السابقة تداركها بحسب الإمكان؛ فيصلح قلبه بالنية ويعمره بالإخلاص، فلا يأتي إلى كتاب الله ليماري به أحدًا أو يعضّد به رأيًا رآه أو فكرًا جال في خاطره، بل يأتي للقرآن طالبًا الهداية منه، تاركًا وراء ظهره دواعي المدح والثناء من الخلق، معرضًا عن كل ما يحول بينه وبين ابتغاء رضا الله عزّ وجّل.

١٥. – أبو نعيم أحمد بن مهران الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،
http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?flag=1&-bk_no= 131&ID=1434

يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك: «لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي».[16] من هنا كان البدء بالاستعاذة قبل تلاوة القرآن الكريم من أعظم الخطوات. فالقرآن العظيم يستقبله القارئ بقلبه أولا، والقلب والعقل كالمرآة بقدر صفائها ونقاوتها وتخليصها من الشوائب، بقدر ما تنطبع فيها صور الحقائق كما هي عليه.

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ). سورة الأعراف، الآية ٢٠١. فالاستعاذة استعانة وتوجّه إلى الله سبحانه ليخلّص القلب من كل شائبة تحول بينه وبين القرآن العظيم، وهي عملية متداخلة؛ فالقارئ يقبل على القرآن ليطهره ويطهر قلبه في آن معًا، ولا مستعان له إلا بالله العلي العظيم، فالشيطان يعرض للإنسان أثناء إقباله على القرآن ويصرفه بالاشتغال بكل شيء إلا القرآن، فإذا استمر القارئ في تلاوته، أقبل الشيطان على إشغال القلب والعقل عن النظر في مقاصد الآيات وتدبّرها. وقد يجعله يسوّف في ذلك ويحبب إليه الكسل وفعل أي عمل آخر إلا القرآن، ولا سبيل للخلاص من ذلك بدون الاستعاذة بحول الله وقوته، التي هي شعار الإخلاص وملاذه. قال تعالى: (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ

١٦. - ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، مرجع سابق، ج١، ص ١٤٤.

لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)؛ من هنا يعتصم المؤمن بالله سبحانه موقنًا أن الشيطان لا سلطان له على أصحاب الإخلاص والتوحيد، وأنَّ من اعتصم بالله عزَّ وجل، وأخلص له، وتوكَّل عليه، لا يقدر على إغوائه وإضلاله شيطان، وإنما يكون له السلطان على من تولاَّه وأشرك مع الله، فهؤلاء رعيته، فهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم .

من هنا جاءت الكلمة الأولى في السورة مفتتحة بقوله تعالى: «بسم الله»، وسواء كانت البسملة آية من سورة الفاتحة أم هي آية مستقلة، أم ليست بآية، وإنما فاصلة قرآنية لازمة بين سور القرآن الكريم كله[17]،

١٧. – اختلف أهل العلم في البسملة؛ هل هي آية من الفاتحة أم هي آية مستقلة أم ليست بآية وإنما جاءت للفصل بين السور؟ فذهب الحنفية والمالكية والحنابلة في الصحيح من مذهب وعليه جمهور الأصحاب أنها ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها – وأجمعوا أنها بعض آية من سورة النمل – لكن يستحب قراءتها عند الحنفية والحنابلة في الصلاة قبل الفاتحة مع الإسرار بها، أما المالكية فقالوا في المشهور من مذهبهم: لا يقرؤها سرا ولا جهرا في الصلاة. ولا بأس بها في النافلة. وذهب الشافعية إلى أنها آية من الفاتحة – قولاً واحدًا –، ويجهر بها في الصلاة، وهي كذلك آية في أول كل سورة – سوى براءة – في ظاهر المذهب. وانظر: المبسوط – ط دار المعرفة بيروت – سنة النشر: ١٤١٤هـ (١٥/١)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع – ط٢ دار الكتب العلمية (٢٠٣/١)، عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة – ط١ دار الغرب الإسلامي (٩٩/١)، الذخيرة – ط١ دار الغرب الإسلامي (١٧٦/٢–١٧٧)، البيان في مذهب الإمام الشافعي – ط١ دار المنهاج – جدة (١٨٢/٢)، روضة الطالبين وعمدة المفتين – ط٣ المكتب الإسلامي (٢٤٢/١)، الكافي في فقه الإمام أحمد – ط١ دار الكتب العلمية (٢٤٥/١)، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف – ط٢ دار إحياء التراث العربي (٤٨/٢). والذي تميل إليه

فالنتيجة واحدة؛ وهي أن الإنسان لا يفتتح شيئًا ولا كتابًا ولا عملاً ولا قولاً إلا بهذه الكلمة: «بسم الله الرحمن الرحيم». والله ربطها باسم ذاته (جّل جلاله) ولم يصرفها إلى اسم صفة من صفاته، أو اسم فعل من أفعاله عزّ وجّل.

وإذا رُبط ذلك بقوله تعالى في سورة العلق: (اقرأ باسم ربك الذي خلق)، أدرك القارئ أن كل عمل يدخل إليه المرء لابد وأن يكون باسم الله، وهنا لا تقف المسألة عند ترجيح قول على غيره بقدر ما تقف عند المقصد من البسملة وضرورتها في الإقبال على الأعمال، وتأثيرها في تذكير المؤمن بعطاء الله سبحانه وتعالى ومنّته عليه.[18]

والبسملة تذكّر العبد بعلاقته بالله وعبوديته له سبحانه؛ لله - عزّ وجّل -، وأنّ كل ما هو فيه من نعمة وقوة وقدرة إنما هو من الله، فلا حول ولا قوة له إلا به.

البسملة تذكرّه بأنّ لا شيء يتحرك في هذا الكون من دون اسم الله - عزّ وجّل -، لذلك هي إقرار من الإنسان بأن الله هو الذي يحرّك، هو الذي

النفس هو الرأي الأخير أنها آية من الفاتحة وتقرأ في كل ركعة سواء جهر بها أم لم يجهر.

١٨. - للشعراوي رحمه الله كلام جميل في هذا المعنى، انظر: محمد متولي الشعراوي، خواطر الشعراوي، ج١، على الرابط:

http://www.greattafsirs.com/Tafsir_Library.aspx?SoraNo=1&Ayah-No=1&MadhabNo =7&TafsirNo=76

يفعل، هو الذي يسبب هذه الأسباب، هو الذي خولّه أن يستعمل هذه الأسباب.

فسورة الفاتحة ومن أول كلمة فيها - «بسم الله» - تربّي الإنسان على اليقين بالله وعظيم قدرته، وفي المقابل تذكرّه بحاجته وفاقته إلى خالقه، فلا شيء في الكون يعمل إلا باسمه. كما أنها تذكرّه بألا يسير في التعامل مع الأشياء ومزاولة الأعمال إلا وفق منهج الرّب الذي خلق.

فسورة الفاتحة تدور حول ثلاثة مقاصد إيمانية عملية تشكّل علاقة الإنسان بخالقه؛ الحمد، العبودية والاستعانة بالله سبحانه عليها، لتحقق له الهداية التي لا تأتي إلا مع الإلحاح بالدعاء بها إلى جانب ما ذكر.

الحمد + العبودية والاستعانة ← الهداية إلى الصراط المستقيم

ومن هنا تتبين بعض جوانب الحكمة من تلاوة تلك السورة العظيمة في كل ركعة، بحيث لا تصح الصلاة ولا تتم إلا بها.

وجاء اسم الله في البسملة قبل اسمي «الرحمن الرحيم». فلفظ الجلالة «الله» - سبحانه وتعالى - جمع كل صفات الكمال والجمال والجلال لله سبحانه وتعالى، تلك الصفات التي تجعل الإنسان موقنًا بعجزه وعبوديته وحاجته وفاقته لله الواحد الأحد، ذي الغنى المطلق، والقدرة الشاملة، والعلم المحيط، إلى غير ذلك من صفات الكمال والجلال والجمال.

ثم يأتي بعد ذلك في البسملة اسما «الرحمن الرحيم»، ويأتي الاسمان معًا بعد ذلك في الفاتحة، ليتبين للإنسان أن علاقته بخالقه علاقة تقوم على الرحمة؛ فالعبد مرحوم بتلك العلاقة، واختيار الاسمين معًا «رحمن رحيم» للدلالة على أنه سبحانه يعمّ عباده برحمته، تلك الرحمة - رحمة اسمه «الرحمن» - المتواصلة الشاملة لجميع العباد برّهم وفاجرهم، مخطئهم ومصيبهم. فالعبيد جميعًا، عبيد ربوبيته، وعبيد إلوهيته، على أية حال من طاعة وعصيان، من قرب وبُعد.

تلك العبودية التي تكون حين يختار الإنسان طريق العبودية والطاعة والانقياد لأوامر الله، وعلاقة العبودية هنا فيها اختيار، وهنا يأتي معنى «الرحيم» يعطيني رحمة خاصة لأهل عبوديته، لأولئك العبيد الذين يعبدونه عبودية الألوهية، عبودية الاختيار والرضا..

من هنا تكون: «بسم الله الرحمن الرحيم» افتتاح علاقة العبد مع الله - عزّ وجّل - ليكون عبدًا لإلوهيته طوعًا واختيارًا ومحبة ،كما هو عبد لربوبيته اضطرارًا.

فالبسملة تحوي معاني الإقرار بالعجز البشري عن الدخول ضمن ركب عباد الله، والتوفيق لفهم كتابه وتدبّر آياته وطاعة أوامره إلا بإعانته سبحانه وهدايته المستمدة من أسماء الله، الرحمن الرحيم.

«الحمد لله رب العالمين»

«الحمد» أول كلمة يفتتح بها العبد خطابه لخالقه سبحانه بعد البسملة. هذه الكلمة التي يتساوى الخلق تعبيرًا بها لخالقهم، ويتفاوتون في مراتب اليقين بها وحضور قلوبهم واستشعارهم لمعانيها العظيمة. والحمد في المعنى اللغوي أعمّ من الشكر. والحمد ثناء مطلق على المحمود سبحانه لكمال ذاته وصفاته، فلا يكون إلا لله سبحانه، وهو المستحق للمحامد كلها جّل شأنه. وللأصوليين كلام جميل حول التفريق بين الحمد والشكر:

(فَالْحَمْد أَعم؛ لكَونه هُوَ الثَّنَاء الْحسن مُطلقًا، أَعنِي: فِي مُقَابلَة السَّرَّاء وَالضَّرَّاء على جِهَة التَّعْظِيم. وَالشُّكْر لَيْسَ هُوَ قَول الْقَائِل: الشُّكْر لله، وَلَا القَوْل الْمُطلق الدَّال على تَعْظِيم الله، وَإِن كَانَ الثَّانِي جُزْءا مِنْهُ وَالْأول فَرد من هَذَا الْجُزْء، بل هُوَ صرف العَبْد جَمِيع مَا أنعم الله عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ إِلَى مَا خلق لأَجله من جَمِيع الْحَواس والآلات والقوى، فَالْحَمْد هُنَا أَعم من الشُّكْر مُطلقًا، فَكل شكر حمد وَلَا عكس).[19]

من هنا كان يستحب للمؤمن ألا يبدأ دعاءً إلا بقوله: «الحمد لله»، تقديمًا للثناء والشكر للمعبود سبحانه.

١٩. - المرداوي، التحبير شرح التحرير في أصول الفقه، تحقيق: السعودية: مكتبة الرشيد، ج١، ص٤٧-٤٨.

وهنا تبدو لفظة: «الحمد لله» كلمة جامعة تجمع كل معاني الثناء، و المدح[20]، كل معاني التذلل والانكسار بين يدي الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

وهنا يتحول الحمد الذي تبنيه سورة الفاتحة التي تُعرف بـ«سورة الحمد» من مجرد لفظة تقال باللسان، إلى عبادة عظيمة تدور عليها كل أعمال الإنسان في واقعه وحياته. فهي ليست مجرد كلمة تنطقها الألسنة خالية عن المعاني والحقائق، فالحمد الحقيقي يبدأ باستحضار كل النعم التي يمكن أن تخطر على البال، يمررها على عقله وفكره ساعة أن يقول: الحمد لله، مع استحضار أنه لن يحصي تلك النعم.

فسورة الفاتحة تبني في الإنسان استحضار النعم؛ والفارق شاسع بين عبدٍ يقول: «الحمد لله» مجرد كلمة ينطقها بلسانه دون تفكّر، وبين عبدٍ يقول «الحمد لله» من أعماق قلبه، مستحضرًا نعمه سبحانه التي وهبها الله - عَزَّ وَجَلَّ - لهذا الإنسان، متفكرًا فيها، مستشعرًا عجزه عن الإحاطة بها، فضلاً عن القيام بواجب شكرها وشكر واهبها وحمده.

٢٠. الحمد: هو الثناء على المحمود بجميل صفاته وأفعاله. والشكرُ: الثناء عليه بإنعامه، فكلُّ شكرٍ حمدٌ، وليسَ كلُّ حمدٍ شكرًا، فهذا فرقُ ما بين الحمد والشكر. فأما الفرق بين الحمد والمدح، فهو أن الحمد لا يستحق إلا على فعلٍ حسن، والمدح قد يكون على فعل وغير فعل، فكلُّ حمدٍ مدحٌ وليْسَ كل مدحٍ حمدًا. وانظر: تفسير الماوردي - ط دار الكتب العلمية (٥٣/١). قال النووي في الأذكار - ط دار الفكر بيروت ١٤١٤ هـ (ص: ١١٧): أجمع العلماءُ على استحباب ابتداء الدعاءِ بالحمد لله تعالى والثناء عليه، ثم الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك تختم الدعاء بهما، والآثار في هذا الباب كثيرة معروفة. اهـ. وانظر لمزيد فائدة: مجموع الفتاوى (٢٢/٣٧٦-٣٨١).

التلفظ بوعي وتدبّر ب«الحمد» يحوّلها من مجرد شعور في القلب وكلام باللسان إلى فعل وسلوك؛ لأن الحمد لا يتم ولا يكون حمدًا حقيقيًا إلا حين يستشعر الإنسان أن ما أفاض الله عليه به من النعم، مدعاة له أن يفيض به ويبذله لمن هو دونه وأقل منه، فيتحول الحمد حينئذٍ من مجرد لفظة تُقال إلى عمل يظهر في السلوك، ويبدو أثره على الجوارح؛ ليصبح شكرًا عمليًا يجعل العبد مقدّما كل ما أنعم الله به عليه لطاعته والقيام بأمره في الواقع. فما حمد عبدٌ ربَّه - عَزَّ وَجَلَّ - حمدًا حقيقيًا حين يبخل ويضنّ بما لديه من نعمٍ على غيره في مجتمعه ومحيطه ومن حوله.

فمن وهبه الله فضل مالٍ أن يفيض بذلك الفضل على غيره، ومن وهبه الله فضل علم - ولو بكلمة، في أي مجال من مجالات العلم - أن يفيض به ويبذله لغيره، ومن علّمه الله حرفًا علّمه لغيره، ومن أعطاه الله شيئًا من متاع الدنيا أو جاهًا وسلطانًا فليبذل من ذلك على غيره منفعة وعطاء وبذلًا وسخاء؛ ليصبح هذا الإنسان خليفةً حقًّا على هذه الأرض، خليفة لله على أرضه حامدًا لأنعمه حق الحمد.

حينئذ يصبح الحمد سلوكًا وواقعًا معاشًا، وبهذا يُفهم معنى الحديث أن الله سبحانه يُنال رضاه بكلمة حمدٍ يقولها العبد - الحمد لله - على شربة ماء يشربها.[21]

---

٢١. عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها». الحديث الذي

فليست المسألة أنها مجرد كلمة تُقال باللسان، لكنها سلوك وعمل ومنهج حياة يسير به الإنسان حامدًا لله في ذاته وحياته. من هنا كان الحمد مقدمة للشكر وبداية له. فمن لم يستشعر الحمد وينطق به نطقًا معبرًا عن الامتنان لخالقه الذي شعره القلب، أنّى له أن يشكر بالجوارح والأفعال!.

كما أن «**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» تأتي بعدها المرحلة الثانية وهي استذكار العبد أن هذا الحمد إنما هو لرّب العالمين سبحانه، واختيار كلمة «ربّ» فيه دلالة واضحة على تربية الخالق سبحانه لخلقه وعباده. فالرّب يربّي.[22] والتربية قد تكون بالمنع و قد تكون بالعطاء كلاهما تربية، تربية لذلك العبد الذي تبنيه سورة الفاتحة.

إن استحضار هذا المعنى ينقل الإنسان إلى مرحلة جديدة في مدرسة العبودية؛ عبد يتخرج برتبة مع «الذين أنعمت عليهم»، عبد برتبة «غير المغضوب عليهم» عبد ليس من «الضالين». وكل هذا يحتاج إلى ترقٍ، يحتاج إلى تربية.

أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٣٤).

٢٢. الرب في كلام العرب يطلق على أربعة معان: الأول: السيد المطاع، ومنه: قوله تعالى: {أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً} [يوسف: ٤١]. الثاني: المالك للشيء، كما يقال: رب الدار، أي مالكها. الثالث: المدَبِّر، ومنه: قول الله عزَّ وجلَّ: {وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ} وهم العلماء، سموا ربَّانيّين؛ لقيامهم بتدبير الناس بعلمهم، وقيل: ربَّة البيت؛ لأنها تدبره. الرابع: الرب مشتق من التربية ومنه: قوله تعالى: {وَرَبَآئِبُكُمُ اللاَّتِي في حُجُورِكُمْ} [النساء: ٢٣] تفسير الطبري - ط١ دار هجر (١/ ١٤٢-١٤٣)، تفسير الماوردي - ط دار الكتب العلمية (٥٤/١). والذي نذهب إليه هنا هذا المعنى الأخير.

وحين يفهم الإنسان أن الله سبحانه يرّبيه، وقد تكون التربية بالمحنة والمنحة، بالرخاء والشدة، بالراحة والتعب، بالصحة والمرض...يدرك طرفًا من لطف الله عَزَّ وَجَلَّ به في سائر أحواله.

فالله سبحانه أراد أن يربّي عباده بسورة بالفاتحة، ففرضها عليهم في كل ركعة، وجعل الصلاة قائمة على هذه السورة الجليلة.

وإذا ما استحضر الإنسان حقيقة تربية الله سبحانه له، تغيرت نظرته إلى الحياة كليا، وبدأ ينظر إلى الأمور نظرة مختلفة، تصرف قلبه عن الاشتغال بالهموم والتعب والنكد في الحياة. فما يمرّ به من آلام وأحزان وهموم لا تنفك عن طبيعة الحياة الدنيا، من قبيل تربية الله سبحانه له.

وهنا تبدو الجوانب المظلمة في تلك الحياة لا تخلو من جوانب مشرقة مضيئة لأنها نابعة من تربية الرّب للعبد.

فالرّب لا يربّي بالعطاء دومًا، بل لا بد من العطاء أن يتخلله منعٌ، ولا بد من الصعود أن يتخلله نزول، ولا بد من الجوانب المضيئة المشرقة التي تبهج الإنسان وتدخل السرور على قلبه أن يتخللها شيء من الكدر المشوب بالحزن.

وتلك الجوانب التي قد يراها العبد أنها مظلمة من الحزن والمنع والابتلاء ليست مرادة لذاتها؛ وإنما هي اختبار وامتحان ليحصل التمحيص والتربية، وتظهر الأشياء على حقائقها. فمن خلال تلك المواقف يستبين

أثر الأقوال؛ أ كانت مجرد كلمات خاوية أم أنها كانت روحًا تسري في القلوب والعقول وتنقاد لها الجوارح؟ كل ذلك لا يتحقق إلا إذا فهم الإنسان أن من جوانب الحكمة من الابتلاء في الدنيا؛ تربية الله سبحانه لعباده.

فهذه هي التربية الحقة، التي تجعل المؤمن لا ينفك عن الحمد لخالقه، فيحمد الله ربّ العالمين على منعه كما يحمده على عطائه، ويحمده على أخذه كما يحمده على هبته، يحمده على كل شيء، على كل نعمة، على كل حال يتنقل إليها ويترقى فيها، وهذا هو مصداق «الحمد» الذي تبنيه سورة الفاتحة.

ثم إن هذه التربية الرّبانية قائمة على معنى عظيم ملازم للربوبية، ألا وهو الإيمان واليقين بالرحمة بالخلق «رحمن رحيم». والصلة بين الرّب «رب العالمين» و«الرحمن الرحيم» تبين صلة الرّب بمربوبيه، صلة الخالق سبحانه بعباده، صلة تستجيش كل معاني الحمد حقًّا، إنّ الرّب الذي يربي عباده هو ربٌّ رحيمٌ، عالمٌ بضعفهم وقوتهم، عالم بظروف حياتهم خبير بأحوالهم. الأمر الذي يجعل المؤمن إيجابيًّا متفائلاً، قادرًا على أن يتحمل مسؤولية الخلافة على الأرض، تلك الإيجابية المبنية على حسن الظن بخالقه سبحانه ويقينه أنه جّل شأنه لن يتركه، ولن يتخلى عنه مهما اشتدت المحن وتتابعت الشدائد.

ومن هنا جاءت معاني الشفاء في سورة الفاتحة، فسورة الفاتحة تحمي الإنسان من المخاوف والهواجس التي تطارده حين يكون بعيدًا

عن خالقه، يشعر بضعفه البشري وغربته ووحدته في عالم تتلاطم فيه مشاعر المصالح وتعلو فيه أصوات المدافع، لتنقله إلى عالمٍ رحبٍ محاط بالرحمة والرأفة الإلهية من كل جوانبه؛ فتهدأ نفسه، وتسكن جوارحه، ويشعر بمعاني الاطمئنان والسكينة إلى ذلك الرّب الرحمن الرحيم الذي لا يريد به إلا الخير، فالحزن واليأس من أكثر ما يفتك بإرادة الإنسان، ويفت في عزيمته ويشل قواه.

والربّ الجليل القادر على عباده الذي بيده الأمر كله، يعامل عباده برحمته ولطفه ورأفته، وهذا المعنى يبعث الطمأنينة والسكينة في النفس فيشفيها من مخاوفها وقلقها. والنفس البشرية لا تطيب إلا إذا تخلصت من الخوف والقلق.

ثم إن التحرر من ذلك الخوف يقوي معاني التوحيد العظيمة وأولها توحيد الألوهية، فهذا العبد الذي تبنيه سورة الفاتحة لا يمكن أن يكون مكبّلاً بقيود الاستعباد لغير الله - عَزَّ وَجَلَّ .

إن سورة الحمد تحرر الإنسان، وتجعله ينفتح إلى عطاء توحيد الألوهية، وإن واحدة من عطاءات توحيد الألوهية تلك الطمأنينة التي تنزل على قلب المؤمن حين يستشعر أن من يتصرف فيه هو الرحمن الرحيم، فتهدأ نفسه وتسكن روحه ويطمئن قلبه، وذلكم الشفاء.

فالشفاء أعظم ما يتحقق حين يتيقن العبد بقوة الشفاء وتأثيره، وهذا يحدث حين يؤمن المرء يقينًا أن الله قادر رحمن رحيم به.

مالك يوم الدين

تنتقل السورة إلى آية عظيمة تنقل الإنسان إلى الواقع الذي لا ينبغي أن ينفك عنه الإنسان أبدًا في حياته، رحلة الحياة القصيرة، التي لا ينبغي أن تأخذه همومها واهتماماتها بعيدًا عن الحقيقة.

فالحياة الدنيا ليست هي نهاية المطاف، بل في الحقيقة هي بداية المطاف. وهذا الوصف وهذه الملكية من الله - عَزَّ وَجَلَّ - ليوم الدين «مالك يوم الدين» من خصائص الربّ الجليل الذي لا يقدر أحد أن ينازعه فيه أو يدعيه. ولذلك جاءت الآية بهذا النوع من الملك، إذ لو جاءت الآية بملك الله للدنيا مثلاً، فقد يقول جاهل: إن في الدنيا ملوكًا، وهذه حقيقة، مع أن الحقيقة الأخرى: أن هذا الملك الذي ينسب إلى ملوك الدنيا إنما هو ملك ظاهري، يقال على سبيل التجوّز، وليس على سبيل الحقيقة.

فقد يمتلك الإنسان قطعة أرض أو شيئًا من متاع الدنيا، يملك التصرف فيه، لكنه ملك ناقص مقيد محدود، بحدود الزمان والمكان، أما الملك الحقيقي الكامل المطلق الأبدي الأزلي فإنه «لله الواحد القهار».

فالله وحده هو الذي له الملك الحقيقي؛ ملك قدرة وهيمنة وسلطة مطلقة، أما البشر فحتى وإن ادعوا أن لهم ملكًا فهو إلى زوال، كما ذهب ملك فرعون الذي كان يقول: (أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي) [الزخرف: ٥١].

فإذا كان ملك الدنيا في الحقيقة إنما هو لله -عَزَّ وَجَلَّ- وحده، فكيف بملك يوم الدين؟ ذلك الملك الذي خصّ الله به نفسه، ووصف نفسه به في هذه الآية!.

فإذا تدبّر المؤمن في هذه المعاني، تحرر قلبه من كل عبودية لأحد غير الله، ومن كل خوف وتعلق بأحد غيره سبحانه، تحرر من استشعار أن أحدًا من الناس يملك له ضرًا أو نفعًا، عطاءً أو أخذًا، فقرًا أو غنى، عزًّا أو ذلًّا، تحرر من كل ذلك ليبقى القلب متعلّقًا بالله وحده لا شريك له، وتلكم درجة رفيعة في سلم العبودية.

كما أن «مالك يوم الدين» تربّي في نفس الإنسان الشعور بالطمأنينة وأن حقه المسلوب منه قهرًا وغصبًا سيرجع إليه يومًا، إن لم يكن في الحياة الدنيا، ففي الآخرة عند أحكم الحاكمين.

فمن ظُلم أو وقع عليه أمر يكرهه ولم يتمكن من استرداد حقه، أو ردّ مظلمته، لضعف أو عجز أمام قوة غاشمة أو سلطة قاهرة، تفتح هذه الآية أمامه أبواب الأمل والثقة بالله وعدله، فتهدأ نفسه وتسكن روحه.

هذه المعاني العظيمة تربّي في نفس العبد أن هناك يومًا تُرد فيه الحقوق لأصحابها، وتُرفع المظالم فيه عن المظلومين. وهذا يعزز الإيمان باليوم الآخر ويقويه؛ حتى لا يتزعزع إيمانه بالله سبحانه حين يُؤخذ منه حق، أو تقع عليه مظلمة.

وواقع بعض الشعوب (قديمًا وحديثًا) مهضومة الحقوق يؤكد هذه الإشكالية الخطيرة؛ فكم من أقوام تزعزع إيمانهم بالله، وربما وقعوا في شَرَك الارتداد عن الدين بسبب ما يرونه من مآسٍ ومحن تمرّ عليهم أو على غيرهم. وهذا متوقع الحدوث إذا ضعف الفهم أو اليقين بالله أو كلاهما.

ومن تأمل تلك المعاني علِم واستبانت له طبيعة العلاقة التي تقيمها سورة الفاتحة بين العبد وربّه، أنها علاقة قوية لا تضعفها الظروف الشديدة والمحن الصعبة؛ علاقة قائمة على حسن ظن العبد بربّه أن الله سينصره، وأن إقامة أوامره سبحانه في حياة الإنسان وسلوكياته تكون بالتقوى والصبر والعدل، وسيجازيه بالحسنى إن أحسن، وسيأخذ على يد ظالمه، ولن يضيّع له حقًا وإن ضيعّه البشر في الدنيا.

فالبشر قد يتعرض إلى ما يؤلمه وما يسرّه، ما يبغضه وما يحبه، فما الذي يجعل العلاقة بينه وبين ربه لا تتزعزع ولا تتغيّر سوى حسن الظن بخالقه سبحانه؟ وهنا يأتي الإيمان باليوم الآخر ليفتح أمامه أبوابًا من الأمل و التفاؤل، ويصرف عنه الوساوس، والشعور باليأس أو الإحباط أو السخط والجزع أمام منعطفات الحياة الخاصة أو العامة.

من هنا يترقى الإنسان في كل تلك المراحل في مدرسة العبودية، ليصبح عبدًا حامدًا شاكرًا لله محسنًا الظن بربه، موقنًا أن الله حَكم عَدل لا يضيع عنده حق، ولا يُظلم عنده أحد، وأنه مالك يوم الدين والحساب والجزاء، فيبدأ الإنسان الدخول في عالم جديد، مرحلة عالية من مراحل

العبودية، من مراحل العلاقة والصلة بينه وبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - إنها مرحلة «إيّاك نعبد».

فحين يقول: «إيّاك نعبد»، يتأمل طويلاً بأنه يكلّم الله ويخاطبه، وأن الله يراه ويسمعه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في وصف مرتبة الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».[23]

والمؤمن يرى آثار رحمته سبحانه به وبخلقه، ومن أعظم آثار رحمته سبحانه أن جعله لا يتوجّه بالعبادة لأحدٍ سواه؛ فإن القلب المشتت المتردد بين أرباب متعددين، قلبٌ تائه شارد لا يستطيع أن يرضي أحدًا من أربابه، ولذلك يقول سبحانه: (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) [يوسف: ٣٩].

وهذا العبد المؤمن الذي ترقّى في مراحل العبودية، وتخرّج في مدرسة سورة «الفاتحة»، هو العبد الذي وفقه الرّب - سبحانه - وهداه لعبادته وحده لا شريك له، وهذه هي بدايات الهداية العظيمة التي يسألها العبد في أواخر سورة الحمد، فهي ليست هداية قائمة على الدعاء

٢٣. هذا جزء من حديث جبريل المشهور في الصحيحين - البخاري (٥٠)، مسلم (٨) - عن أبي هريرة، قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - بارزا يوما للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله وتؤمن بالبعث. قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام: أن تعبد الله، ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك... إلخ.

من جانب العبد فحسب، بل طرف تلك الهداية في القيام بالتكاليف والأوامر الربانية.

إياك نعبد وإياك نستعين

ومن تمام هداية الله - عَزَّ وَجَلَّ - للعبد، ورحمته به، تربيته له بإفراده سبحانه بالعبودية؛ بأن لا يعبد إلا إياه. فـ «إياك نعبد»: تعني توجّه القلب لله، وقصده وحده لا شريك له. فالعبودية الحقة ليست انقيادًا ظاهرًا يبدو على الجوارح فحسب، بل لا بد أن يسبق ذلك خضوع وانكسار في القلب مع محبة واختيار، فالعبودية هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل، فعبودية من دون محبة لا تسمى عبودية وليست هي العبودية المرادة شرعًا.[24]

تعبدٌ قائم على عبودية ومحبة، مع خوف وخضوع وخشية من الله سبحانه.

و «إياك نعبد» قصرت وحصرت العبادة فلا تكون إلا لله - عَزَّ وَجَلَّ -، سواء كانت هذه العبادة من أعمال القلوب - كمثل التي تبنيها سورة

٢٤. قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٠/١٩): «العبادة: اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته، وكمال الذل لله ونهايته، فالحب الخلي عن ذل والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله» وقال في موضع آخر (١٠/٥٦): «العبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبودا، والمعظم الذي لا يحب لا يكون معبودا».

الفاتحة؛ من اليقين بالله والاستعانة به سبحانه والتوكل عليه أم من أعمال الجوارح، فلا يجوز صرف شيء من تلك العبادات القلبية لأحد سواه.

وهذه العبودية التي تأتي بقول العبد: «إياك نعبد» هي عبودية التسليم لأمر الله وحده، والانقياد لمراضيه ولو كانت على خلاف هوى النفس. بل إن من تمام العبودية أن يخرج العبد من هوى نفسه إلى ما يحبه الله ويرضاه؛ فلا يعبد الله سبحانه تقليدًا لأقوال الرجال ولا عادت المجتمع.

فالعبودية الحقة تكون بالامتثال والخضوع لأمر الله سبحانه، ومن ثمّ إخضاع كل شيء آخر لأمره، وبمثل هذه العبودية لله وحده، والخضوع والانقياد لمحابه ومراضيه وحده دون ما سواه، يتحرر العبد من كل شوائب الشرك وضلالات الأهواء والأفكار والآراء.

والترابط الواضح بين معاني «إياك نعبد» وبين سؤاله سبحانه والتوجّه إليه في نهاية السورة (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) .[الفاتحة: ٦–٧]. ذلك الدعاء المتضمن طلب الفرار من رفقة المغضوب عليهم والضالين.

والإنسان يضل ويشقى حين يبتعد عن الله – عَزَّ وَجَلَّ – وطريق العبودية له وحده، ويتّبع هواه ويتخذه إلهًا له من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، أو حين يعبد الله رب العالمين وفق آرائه وأفكاره، أو وفق مناهج البشر وأفكارهم. فقوله: «إياك نعبد» تحرّره من كل ذلك، تخلّصه من الضلال، وتأخذه بعيدًا عن طريق الضالين والمغضوب عليهم، وتضعه على جادة الطريق؛ طريق المرضي عنهم.

«إياك نعبد» إقرار من العبد وتسليم بأن يعبد الله وفق ما يأمره؛ فلا شرع إلا ما شرع، ولا حاكم على العبد إلا هو سبحانه.

وليس غير هذا القرآن الكريم و الوحي المعصوم، يهدي البشر إلى سواء السبيل؛ من هنا كانت الفاتحة تُسلم العبد إلى ما بعدها من سور القرآن، حوت أوامر وتكاليف وعبادات.. فالفاتحة سورة تُفتتح بها العلاقة بين العبد وخالقه.

إلا أن تلك العلاقة لابد وأن تُبنى على الحب والخضوع والتذلل والسكون، وتوجيه الإرادة والقلب لواحد لا شريك له، خلّصه من كل الأرباب المتعددين؛ هوى النفس، عادات الآباء والأجداد، وآراء البشر ... كل هؤلاء يتلاشون أمام وجهة القلب وهو يقرأ قوله تعالى: «إياك نعبد».

بَيد أن ذلك لا يتحقق للعبد من تلقاء نفسه دون الاستعانة بخالقه سبحانه وهو يقول: «وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ»، وجاء الحصر والقصر مرة أخرى «وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ» كما جاء في العبادة «إياك نعبد»، ليؤكد معنى التوحيد وإفراد الخالق سبحانه بالعبادة.

فالعبادة لله وحده و الاستعانة بالله وحده دون غيره. ومن ذلك ما قاله ابن تيمية رحمه الله:» وعلم القرآن جمع في الفاتحة وعلم الفاتحة في هذين الأصلين عبادة الله والتوكل عليه».[25] وكلما ازداد العبد فهمًا وتطبيقًا

٢٥. - ابن تيمية، جامع الرسائل. وذكر السيوطي كذلك أن إياك نعبد مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفروعية، وإياك نستعين شامل لعلم الأخلاق. جلال الدين السيوطي،

لهذه المعاني، كلما ترقى في سُلم العبودية، وبات مستحقًا لرفقة الذين أنعم الله عليهم.

اهدنا الصراط المستقيم

ويأتي بعدها الدعاء بطلب الهداية إلى «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»، فتقدم إفراد العبد لخالقه سبحانه بالعبادة والاستعانة بمنزلة الأخذ بالأسباب، ومن ثمّ جاء الدعاء لتخليص النفس من مظنة الدخول في مرض العُجب وتوابعه، وقطع الطريق أمام الوساوس والخواطر التي يمكن أن تؤدي إليه.

و الاستعانة من أعظم العبادات وأعظم أعمال القلوب ومنازل السائرين إلى الله، ولذا تتابع العلماء في الحديث عن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين».[26]

فاستحضار طلب العون من الله - عَزَّ وَجَلَّ - وحاجته وفاقته إلى ربه سبحانه، يذكّر الإنسان بحجمه الحقيقي وضعفه وعجزه. فلا يتم للعبد مقصد ولا عمل إلا بمشيئة الله وإرادته وتوفيقه، وليس بحوله ولا بقوته.

أسرار ترتيب القرآن، تحقيق: عبدالقادر عطا، الطبعة الثانية، دار العتصام، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٨٠.

٢٦. كأبي إسماعيل الهروي في «منازل السائرين»، وابن القيم في شرحه عليه المسمى «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين».

وهنا تذهب عن الإنسان آفة التعلق بالأسباب أدراج الرياح، ويبقى الإنسان في حاجة وفاقة إلى عون الله وتوفيقه في كل صغيرة وكبيرة، فالعلاقة بين تمام العبودية والاستعانة بالله سبحانه علاقة النتيجة بالسبب؛ فالاستعانة بالله وحده سبب لارتقاء العبد في منازل العبودية ودرجاتها.

وهنا يتساقط عن الإنسان ما يشعر به من توجّه القلب نحو طلب المعونة من الخلق الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا فكيف يملكونها لغيرهم. والمؤمن يباشر الأخذ بالأسباب المباحة بجوارحه ويبقى القلب مستعينًا بالله وحده واثقًا بأن الأمر كله بيده سبحانه.

من هنا كانت «لا حول ولا قوة إلا بالله» من كنوز الجنة[27]، فهي إقرار من العبد بعجزه وضعفه وقلة حيلته عن القيام بشيء إلا بمعونة الله سبحانه له. فإذا كان العبد في قيامه بأحوال الدنيا لا يستطيعها إلا بحول الله وقوته، فأنى له أن يقوم بالعبادة والتقرب إلى الله وطاعته بدون حوله الله سبحانه؟

من هنا جاءت هذه الكلمة الجليلة «إياك نستعين»، لتحرر الإنسان من أعظم وأخطر الأمراض القلبية؛ الرياء والعُجب. فالعبد إذا قام بطاعة، تصاغر العمل في نفسه وإن كان كبيرًا، لما يستحضر من فضل الله عزّ وجّل عليه وعونه وتوفيقه له في ذلك، فالفضل لله سبحانه عليه في أن فتح له

٢٧. كما في الصحيحين – البخاري (٦٣٨٤)، مسلم (٢٧٠٤) – من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي – صلى الله عليه وسلمم – قال له: «ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ويسّر له أسباب الهداية والتوفيق للطاعة، كما تتصاغر أمامه مراءاة الخلق أو معاينتهم لما يأتي من الطاعات والقربات، فيتخلص من العجب والرياء.

وإذا ثبتت هذه المعاني في نفس العبد، تحرر قلبه من موجبات الضلال وغضب الله - عَزَّ وَجَلَّ - وفُتح له باب الهداية،ولذلك آن لذاك العبد أن يرفع يديه بالدعاء ويقول: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ».

والفاتحة هنا تعلّم الإنسان أن يقدم بين يديّ خالقه الأسباب قبل إعلان الحمد وتوحيد الخالق وإفراده بالعبادة والاستعانة، ليتوج ذلك بطلب الهداية من الله سبحانه؛ لأن العبد لا يستطيع أن يعرف الهداية أو يوفق إليها دون أن يهديه الله لها ويعينه عليها. فالله - عَزَّ وَجَلَّ - هو الذي يفتح له أبواب الهداية وأسبابها؛ ليصبح الطريق أمام ذاك العبد معبّدًا لأن يأخذ الله - عَزَّ وَجَلَّ - بيديه ويهديه إلى صراطه المستقيم.

والهداية أعظم مطلوب يسعى إليه العبد، وهي على نوعين[28]:

هداية البيان: وهي هداية عامة لجميع البشر، مؤمنهم وكافرهم، مطيعهم وعاصيهم، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- بيّن للناس سبيل الحق وسبل الضلالة (إنا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) [الإنسان: ٣]، (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) [البلد: ١٠] وأرسل إليهم رسلاً، وأنزل كتبًا، تهدي الناس وترشدهم إلى

٢٨. انظر ابن القيم في مدارج السالكين - ط٣ دار الكتاب العربي - بيروت (١/ ٣٢)، وانظر كذلك لمزيد فائدة: المفردات في غريب القرآن - ط١ دار القلم، الدار الشامية (ص: ٨٣٥).

صراط الله المستقيم، فهذه الدلالة دلالة البيان والإرشاد التي تعمّ الخلق، فكما تكون لأهل طاعته تكون لأهل معصيته.

أما النوع الثاني من الهداية فهو هداية التوفيق، وهذ النوع من الهداية هو المراد هنا في سورة الفاتحة، فهذه الهداية لا تكون إلا لأهل الطاعة والإيمان ومن وفقه الله واصطفاه، فلا تكون إلا لعبيد ألوهيته سبحانه، بخلاف الهداية الأولى التي تعمّ عبيد ربوبية الله سبحانه.

وهذا التخصيص في هداية توفيق الله سبحانه لأولئك الذين تقرّبوا إليه بالحمد، وسلكوا طريق الهداية وسألوها منه سبحانه، فلذلك خصّهم الله بتلك الهداية الخاصة؛ فمن طلب الهداية وسعى لها سعيها هداه الله إليها، ومن أراد التوفيق لأمر الله وصدق في نيتِه وقصدِه وفّقَه وأعانه وأعطاه.

كما جاءت كلمة «اهدنا» بصيغة الجمع؛ لتذّكر الإنسان أنه مع كونه فردًا لكنه مع فرد في جماعة، فالله عَزَّ وَجَلَّ يريد أن يربي ذلك العبد على محبة الخير للجميع وعدم الأنانية وحبّ الذات، يرجو الخير لغيره من المسلمين عرفهم أم لم يعرفهم، يطلب الهداية لنفسه ولغيره، ولذا جاءت «اهدنا» بصيغة الجمع ولم تأت بصيغة المفرد، بل ولا تُقبل من العبد حين يطلبها - في الفاتحة - على الإفراد.

قد يريد العبد الهداية والخير لنفسه فقط بحكم الشُحّ والأنانية، ولكن سورة الفاتحة التي تعالج وتشفي ما في القلوب، تعالج مرض

الشُحّ[29] وتنتزعه من القلوب في عبارة واحدة «إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ»، من هنا جاءت بصيغة الجمع.

«اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ».

الصراط المستقيم طريق واضح، بدايته هنا ونهايته هناك في الفردوس الأعلى، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، صراط مستقيم واضح المعالم، فالله - عَزَّ وَجَلَّ - لم يترك عباده دون إشارات وبيان وهداية إلى ذلك الصراط، بل وضّح السبيل، وأقام الدليل، وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ولطريق الله المستقيم داعين، إنه صراط واضح تمام الوضوح.

ومن لم يسر على الصراط المستقيم في هذه الدنيا لن يعبره في الآخرة، ولن يصل إلى النعيم المقيم في جنة الخلد مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.[30]

٢٩. الشح أي البخل. قال ابن فارس في مقاييس اللغة - ط دار الفكر - عام النشر: ١٣٩٩هـ (٣/ ١٧٨): الشِّينُ وَالْحَاءُ، الْأَصْلُ فِيهِ الْمَنْعُ، ثُمَّ يَكُونُ مَنْعًا مَعَ حِرْصٍ. مِنْ ذَلِكَ الشُّحُّ، وَهُوَ الْبُخْلُ مَعَ حِرْصٍ. وَيُقَالُ تَشَاحَّ الرَّجُلَانِ عَلَى الْأَمْرِ، إِذَا أَرَادَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْفَوْزَ بِهِ وَمَنَعَهُ مِنْ صَاحِبِهِ. قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩].

٣٠. قال ابن القيم - رحمه الله - في مدارج السالكين - ط٣ دار الكتاب العربي - بيروت (١/ ٣٣): من هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله، وأنزل

إلا أنه لا حول للعبد ولا قوة على ذلك إلا بالله وحده، فلا بد له من إعانة الله وتوفيقه ليسلك هذا الصراط المستقيم.

ولأهمية طلب الهداية إلى الصراط المستقيم، جاء ذكره في السورة مرة أخرى: «صراط الذين أنعمت عليهم» ويأتي التذكير مرة أخرى بأن المنعم والواهب وصاحب الفضل في هداية العبد وتوفيقه إلى هذا الصراط إنما هو الله سبحانه، فتأتي كلمة «أنعمت» كما جاءت من قبل كلمة «اهدنا» فالله هو الهادي وهو المنعم وهو المتفضل.

وهنا تتخلص النفس من الشعور بالمنّ على خالقها سبحانه وتعالى بالطاعات ولو كثرت، فكلمة (اهدنا) و (أنعمت) تعزز في النفس منّة الله على عبده إذ هداه وأنعم عليه بأن يكون مع تلك الكوكبة من السائرين في طريق الهداية.

وهنا تضع سورة الفاتحة الإنسان في هذه الآية على المحك؛ **فالنعمة الحقيقية ليست في كثرة مال، ولا بأن يفتح الله على عبده أبواب الدنيا ونعيمها، بل النعمة الحقيقية هي الهداية إلى الصراط المستقيم،** ذلك الصراط الذي من هدي إليه في هذه الدنيا ووفقه ربه لسلوكه والسير عليه كان من الفائزين في الآخرة والناجين من العذاب الأليم.

به كتبه، هدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط.

فكم من إنسان أعطاه الله من نعيم الدنيا وجاهها ومناصبها ومالها وملذاتها وملهياتها، ثم ما لبث ذلك كله أن انقلب إلى نقمة على صاحبه، فكان مدعاة لجلب غضب الرّب سبحانه!

فهل تلك النعم الظاهرية في حقيقتها نعمة أم هي نقمة؟ النعمة الحقيقية العظمى هي الهداية إلى صراط الله المستقيم، وليست شيئًا آخر من حطام الدنيا وزخرفها.

ثم تأتي السورة على معنى جديد يبعث في النفس السكينة والصبر على المشاق، وعما قد يكابده المؤمن من ابتلاءات وعقبات، فتشير السورة إلى تلك الرفقة الصالحة التي تسير معه على ذلك الدرب؛ «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» إنهم المنعَم عليهم، المرضي عنهم من قبل الله عزّ وجّل، حتى ولو كان المؤمن لا يراهم في عصره أو زمانه، لكنهم يعيشون معه، ويعلم سبيلهم، وما قصّه الله ورسله في كتابه الكريم من قصصهم، وحسن مآلهم، ومن يسير على دربهم، فالطريق آمن، ليس بدعًا ولا غريبًا، فيه صعوبات وعثرات وعقبات، بل وحتى صخور، إلا أنها لم توضع في ذلك الطريق لتسدّ الطريق على سالكيه، بل ليرتقيها السالكون فيه؛ فيصبحوا أكثر قدرة وقوة على مواصلة السير.

هذه الآية في سورة الفاتحة تخلّصه من الشعور بالغربة، وخاصة غربة آخر الزمان، حين يستشعر الإنسان أنه غريب وسط جموع الناس، حين يستشعر أنه غريب بتمسكه والتزامه، غريب بحفاظه على عقيدته ومبادئه وثباته على قيّمه، غريب حين ينأى عن الدنيا ويترفع عن دناياها.

إن سورة الفاتحة تبدد ذلك الشعور بالغربة، تبدده حين تضع في حسبان المؤمن أنه مع الذين أنعم الله عليهم وهداهم واجتباهم واصطفاهم، فتلك الآيات من هذه السورة العظيمة نور وسكينة تنزل على قلب المؤمن بردًا وسلامًا ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، من هنا جاء ذكر الضلال والغضب، فالضلال والغضب بينهما تناسب. والآيات في سورة الفاتحة وضعت علاجًا للضلال وللغضب، خلّصت الإنسان من الضلال. ذلك الضلال في البعد عن الله - عَزَّ وَجَلَّ - بكل أشكاله وأنواعه، ولا يمكن أن يأتي الضلال - لأنه انتكاسة - إلا باتباع منهج غير منهج الله سبحانه.

ولذلك جاءت «إياك نعبد» لتجعل المؤمن في حصانة وأمان ووقاية من ذلك الضلال، فلا يمكن أن يأتي الضلال وهو يعبد الله حق العبادة؛ فالضلال لا يأتي إلا حين اتخذ معبودًا من دون الله، وغالب من يُعبد من دون الله هو الهوى والنفس؛ فكل أشكال الضلال من حسدٍ وحقدٍ وتنافسٍ على الدنيا، وحتى الكفر بالله، وتقديم آراء البشر وعقولها وعاداتها على أحكام الله وشرعه، لا يمكن أن تأتي إلا من قبيل هوى النفس واتباع الهوى.

ثم تأتي خاتمة السورة «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»؛ لتسدل الستار على جميع ما يمكن أن يقود ويأخذ الإنسان بعيدًا عن منهج الله - عَزَّ وَجَلَّ -، فالأعمال والأفعال التي يقع فيها الإنسان وتستجلب غضب الرّب - سبحانه - لا يمكن أن تكون إلا حين يبتعد عن المنهج؛ من

هنا جاء التحذير في السورة وفي آيات أخر وسور عدة من أفعال اليهود والنصارى، حين ابتعدوا من منهج الله سبحانه في حياتهم.

فالعبد حين لا يحقق معنى «إياك نعبد» في واقع حياته، ويعبد هوى نفسه، تكون النتيجة المترتبة على ذلك؛ البعد عن الطريق والصراط المستقيم، فيكون الضلال المتسجلب لغضب الله عزّ وجّل. فمن ضلّ عن منهج الله غضب الله عليه، ومن عبد الله حق عبادته - كما أوضحت سورة الفاتحة - لا يمكن أن يكون ضالاً أو مغضوبًا عليه.

من هنا كانت سورة الفاتحة شفاء حقيقيًا لكل تلك الأمراض، التي هي أخطر بكثير من أمراض البدن والروح حين ترتقي وتقوى بهذه المعاني العظيمة التي جاء ذكرها في سورة الفاتحة، تستطيع مواجهة أصعب الأمراض البدنية.

ولذا ورد عن ابن القيم أنه كان يقول أنه كان يتداوى بسورة الفاتحة.[31] فسورة الفاتحة تقوّي اليقين بالله - عزّ وجّل - أنه لن يصيب الإنسان إلا ما كتب الله له، ومن أكثر الأشياء التي تقوي مناعة المريض ضد الأمراض البدنية؛ تقوية جانب الإرادة والتفاؤل لديه، والأمل بالشفاء وحصوله.

٣١. قال ابن القيم - رحمه الله - في الداء والدواء ط المجمع (١/ ٨): ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيرًا عجيبًا في الشفاء. ومكثتُ بمكة مدّةً تعتريني أدواء، ولا أجد طبيبًا ولا دواء، فكنتُ أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيرًا عجيبًا. فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألمًا، وكان كثير منهم يبرأ سريعًا.

وسورة الفاتحة تزود المؤمن المتدبّر بهذا المعنى حين يردد بقوله واعتقاده: «إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ» فالرّب الذي يصرّف أمور عباده بكل دقائقها وتفاصيلها من راحة أو تعب صحة أو مرض. ربٌّ رحمنٌ رحيمٌ، وهذه معاني عظيمة تحققها سورة الفاتحة؛ لتفتح له آفاق طبيعة العلاقة الجديدة بينه وبين الله عزّ وجّل، القائمة على الأمل به سبحانه، والطمع برحمته والتوكل عليه سبحانه.

من هنا كانت هذه السورة أعظم سورة في كتاب الله؛ بهذه المعاني وهذه التربية وهذه المراحل التي تنقّلت بها سورة الفاتحة في تربية الإنسان المؤمن ليصبح عبدًا حقيقيًا لله مستحقًا لهدايته الهداية الخاصة، مستحقًا لرحمته الرحمة الخاصة القريبة من عباده المحسنين، بهذه المعاني استحقت أن تكون فاتحة في كل شيء. فهي فاتحة لذلك الكتاب، الذي يشكّل المنهج في حياة الإنسان على الأرض.

التناسب بين خاتمة الفاتحة ومفتتح سورة البقرة

ومن أساليب الخطاب القرآني العظيم؛ ذلك الترابط والتناسب بين خاتمة سورة الفاتحة ومفتتح السورة التي تليها؛ سورة البقرة؛ فسورة الفاتحة اختتمت بالدعاء بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، وجاءت الإجابة ومقتضياتها في بدايات سورة البقرة العظيمة: (الم (١) ذَلِكَ

الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) [البقرة: ١، ٢]. فالآيات توضّح أن من أراد الهداية فلا يكفي فقط الدعاء، بل عليه أن يسير وفق المنهج الذي جعله الله منارة لهداية البشر على اختلاف عصورهم وأزمنتهم.

وكلما ازداد الإنسان طلبًا للهداية،فعليه أن يزداد تمسكًا بكتاب الله ومنهجه علمًا وعملاً لتأتيه الهداية الخاصة لعباد الله المؤمنين السائلين لها في قوه عزّ وجّل: (اهدنا الصراط المستقيم).

ولعّل هذا يكشف معنى من معاني الحديث الصحيح الذي جاء فيه عن النبي – ﷺ – أنه «كان جالسًا وكان عنده جبريل إذ سمع نقيضًا[32] فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فُتح من السماء ما فتح قطّ فنزل منه ملك فأتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: أبشِر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ منهما حرفًا إلا أُعطيته».[33]

هذه هي سورة الفاتحة بكل عطاءاتها، بذلك النور الذي يعطيه الرحمن الرحيم عَزَّ وَجَلَّ – للمؤمن؛ لكي يهديه، ويوضّح له الطريق الذي جاء بيانه في هذا الكتاب العظيم.

٣٢. النقيض: هو صوت كصوت الباب إذا فتح. انظر: شرح النووي على مسلم – ط٢ دار إحياء التراث العربي – بيروت (٩١/٦).

٣٣. أخرجه مسلم (٨٠٦).

تدبّر سورة البقرة

بين يدي سورة البقرة.[34]

يعاني الإنسان في كثير من الأحيان من مخاوف شتى، هموم، أحزان، آمال، آلام، قلق، تطلعات وتشوفات إلى المستقبل.كل هذه المشاعر الإنسانية المعتادة تحتاج إلى إطارٍ ومنهجٍ يؤصّل للإنسان كيفية السير

٣٤. قال ابن عطية في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ط١ دار الكتب العلمية (١/ ٨١): «هذه السورة مدنية، نزلت في مدد شتّى، وفيها آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ، وهي: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) [البقرة: ٢٨١]. ويقال لسورة البقرة: «فسطاط القرآن»، وذلك لعظمها وبهائها وما تضمنت من الأحكام والمواعظ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير – ط١ دار الكتاب العربي (١/ ٢٤): « قال ابن عباس: هي أوّل ما نزل بالمدينة».
وقال ابن كثير في تفسيره – ط دار الكتب العلمية (٦٦/١): «والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف وهي من أوائل ما نزل بها، لكن قوله تعالى فيه (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله)ا، يقال أنها آخر ما نزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها».

في هذه الحياة وفق كل تلك المشاعر والأحاسيس البشرية. يؤصّل للإنسان كيف يتعامل مع آماله وآلامه، مخاوفه وأحزانه وهمومه، ذنوبه و طاعته.

منهجٌ يسير عليه على هدى، وهذا الهدى لا يمكن أن يتحقق إلا من خالقٍ يعلم خفايا تلك النفس البشرية، يعلم ما يحزنها وما يُسعدها، يعلم ما يضرّها وما ينفعها، يعلم ما يأتي لها بالخير والنفع والصلاح وما يأتي عليها بالشر والوبال، سواء أكانت تلك النفس تعيش بمفردها أو تعيش في مجتمع أو تعيش في أسرة أو تعيش في أمة.

سورة البقرة هي السورة التي أوصى النبي - ﷺ - بتلاوتها وتعلّمها. وهي السورة التي قال عنها: «إن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البَطَلة» يعنى السحرة. إنها السورة التي وصفها مع آل عمران بأنهما «الزهراوين»؛ يقول النبي - ﷺ - في وصيته لأمته بتعلّم هذه السورة وإحقاقها في واقع حياة البشر أفرادًا أو مجتمعات: (تعلّموا القرآن) وكلمة تعلّموا، لها مغزى ومقصد؛ فالتعلّم لا يكون محصورًا فقط في تلاوةٍ أو حفظٍ في الصدور، التعلّم بمعنى التطبيق والسير على المنهج الذي جاء في هذه السورة العظيمة: (تعلّموا القرآن، تعلموا البقرة وآل عمران، تعلموا الزهراوين فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان[35]

٣٥. قال النووي في شرح مسلم - ط٢ دار إحياء التراث العربي - بيروت (٦/ ٩٠): قال أهل اللغة: الغمامة والغياية كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما. قال العلماء: المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين. اهـ.

أو كأنهما فرقان من طير صوافّ[36] تحاجّان عن صاحبهما، تعلموا سورة البقرة فإن تعليمها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البَطَلة).[37]

سورة البقرة مع آل عمران سمّاهما النبي - ﷺ - الزهراوين؛ لنورهما، لهدايتهما، لعظيم أجرهما. أوصى بتعلّم هذه السورة لتصبح كلماتها وآياتها دستورًا يسير عليه المؤمن في حياته.

تعلّم الآيات يقود الإنسان لمعالجة مخاوفه وقلقه ويأتي بالإجابات الصريحة على تطلعاته وأشواقه وآماله وطموحاته. السورة جاءت لتكون في قلب المؤمن وعقله وحياته وواقعه.

سورة البقرة جاءت إجابة على السؤال والدعاء الملحّ الذي يلحّ به العبد على ربه في سورة الفاتحة حين يقول «اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ» فإذا بسورة البقرة تأتي وتفتتح بقوله عَزَّ وَجَلَّ: (الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ).[البقرة: ١، ٢]

هذه هي الهداية «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ»، لا بد من العمل، ولذلك لا يمكن أن يُفهم تعلّم القرآن بعيدًا عن تطبيقه في الواقع، بعيدًا عن تنفيذه. لا

٣٦. قال النووي في شرح مسلم - ط٢ دار إحياء التراث العربي - بيروت (٦/ ٩٠-٩١): قوله - ﷺ -: «أو كأنما فرقان من طير صواف».معنى فرقان: قطعتان. والفرق: القطعة من الشيء. قال الله عزّ وجلّ: (فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ). و«الصواف: المصطفّة المتضامّة لتظلّ قارئها. والبطلة: السّحرة. اهـ.

٣٧. الحديث أخرجه أحمد في مسنده واللفظ له برقم (٢٢١٥٧) ط الرسالة، مسلم (٨٠٤) بلفظ «اقرؤوا» بدل «تعلموا».

يمكن أن يكون هناك انفصال أو شرخ بين أن يحفظ الإنسان الآيات في قلبه وصدره ويتلوها، وبين أن لا يعيش تلك الآيات في واقعه وتعامله وأخذه وعطائه وسلوكه وأخلاقه، لا يمكن أن يكون هناك شرخ.

من هنا يمكن فهم المقصد من تسمية هذه السورة العظيمة مع آل عمران بـ «الزهراوين»؛ لما فيهما من النور والهداية.[38]

فنور البقرة الموجود في هذه السورة العظيمة لا بد لكي ينفذ في القلب من أن تُفتح لها منافذ العقل والإدراك؛ لأجل أن ينفذ ذلك النور.

وسورة البقرة هي أطول سورة في كتاب الله، وفيها أعظم آية في كتاب الله، هذه السورة التي كان يمكث صحابة النبي - ﷺ - السنوات الطوال لتعلّمها كما ورد عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلّم السورة.[39]

---

٣٨. قال القرطبي في تفسيره - ط٢ دار الكتب المصرية (٤/ ٣): للعلماء في تسمية البقرة وآل عمران بالزهراوين ثلاثة أقوال: الأول: إنهما النيرتان، مأخوذ من الزهر والزهرة، فإما لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما - أي من معانيهما -. وإما لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة، وهو القول الثاني. الثالث: سميتا بذلك؛ لأنهما اشتركتا فيما تضمنه اسم الله الأعظم.

٣٩. جاء في موطأ مالك، ط مؤسسة الرسالة - سنة النشر: ١٤١٢ هـ حديث رقم (٢٣٨): «حَدَّثَنَا أَبُو مُصْعَبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا مَالِكٌ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ مَكَثَ عَلَى سُورَةِ الْبَقَرَةِ، ثَمَانِيَ سِنِينَ يَتَعَلَّمُهَا». قال الزرقاني - تعليقًا على الأثر السابق عن ابن عمر

ومن المعروف أن العرب أمة حافظة، فكان أسهل شيء عليهم أن يحفظوا الكلمات والحروف، ولكن ما كان حفظ الكلمات والحروف مقصدهم، بل حفظ الآيات والتعاليم والأوامر في واقعهم وتطبيقها في مجتمعهم، كان المقصد والغاية الأساس، وهذا معنى النور.

وهذا معنى أن تأتي هذه السورة مع آل عمران تدافع وتحاج عن صاحبها يوم القيامة.

فالإنسان صاحب سورة البقرة الذي حفظ السورة بقلبه، وحياته، وسلوكه، وتطبيقه لها، كان جزاءه أن تحفظه سورة البقرة وتشفع له وتدافع عنه يوم القيامة، بقدر ما دافع عن أحكامها وأوامرها وتطبيقها في واقع حياته.

وهذا معنى من معاني أن «أخذها بركة»، أي تفيض على الإنسان بالبركة من خلال تعلّمه وتطبيقه لذلك التعلّم. التطبيق هو الغاية الأساس من نزول القرآن العظيم.

فالسورة العظيمة بأحكامها ومقاصدها في بناء الإنسان والأسرة والمجتمع نزلت لأجل أن تُحفظ في الحياة، في التعامل، في الاقتصاد،

- في شرحه على الموطأ ط١ مكتبة الثقافة الدينية (٢/ ٢٢): ... ليس ذلك لبطءٍ - معاذ الله -، بل لأنه كان يتعلم فرائضها وأحكامها وما يتعلق بها، فقد روي عن النبي - ﷺ - كراهة الإسراع في حفظ القرآن دون التفقه فيه.

في الأسرة، في الزواج، في الخطبة، في الرضاع، في الطلاق - كما ستأتي - تفاصيله في مواضعه في سورة البقرة.

ثم إن في سورة البقرة أعظم آية في كتاب الله[40]، هذه الآية التي لا يزال على الإنسان حافظ ولا يقربه شيطان إذا ما قرأ بها.[41]

٤٠. آية الكرسي؛ لما جاء في صحيح مسلم (٨١٠) عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله - ﷺم -: «يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) [البقرة: ٢٥٥]. قال: فضرب في صدري، وقال: «والله ليهنك العلم أبا المنذر».

٤١. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: وكلني رسول الله - ﷺ - بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته، وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله - ﷺم - قال: إني محتاج، وعلي عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي - ﷺم -: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة»، قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة، وعيالاً، فرحمته، فخليت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك، وسيعود»، فعرفت أنه سيعود؛ لقول رسول الله - ﷺ - إنه سيعود، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله - ﷺم -، قال: دعني فإني محتاج وعليّ عيال، لا أعود، فرحمته، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله - ﷺ -: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك»، قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة، وعيالا، فرحمته، فخليت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود»، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات، أنك تزعم لا تعود، ثم تعود قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) [البقرة: ٢٥٥]، حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله - ﷺ -: «ما فعل أسيرك البارحة»، قلت: يا رسول الله،

فالتخلص من المخاوف والقلق الذي يحيط بالبشر لا يمكن أن يتم إلا من خلال شحنة وقوة إيمانية دافئة. تلك القوة الإيمانية التي تمدّه بها هذه السورة العظيمة وبخاصة في آية الكرسي حين يقرأها المؤمن مستشعراً عظمة ما يقرأ، مستحضراً للآيات التي قرأها.

الأجواء التي نزلت فيها سورة البقرة

سورة البقرة مدنية نزلت في مدينة رسول الله ﷺ، فعن أم المؤمنين عائشة، قالت: «ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده».[42]

ولا شك أن تحديد مكية السورة أو مدنيتها يؤثر تأثيرًا مباشرًا في فهم السورة؛ إذ يختلف المعنى عند ربطه بالأحداث التي وقعت بمكة عن ذلك المعنى الذي يرتبط بأحداث المدينة.

وأكثر الموضوعات التي تتصدى لها السور والآيات المكية، هو بيان أصل العقيدة الإسلامية، ومجادلة المشركين حولها، وسوق الأدلة لبطلان

زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: «ما هي»؟ قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) [البقرة: ٢٥٥]، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فقال النبي – ﷺ –: «أما إنه قد صدقك، وهو كذوب، أتعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟»، قال: لا، قال: «ذاك شيطان».

٤٢. – أخرجه البخاري في الصحيح دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ، رقم: (٤٩٩٣).

الوثنية، وتأكيد الوحدانية، والتعرض لأحوال المشركين، ومعاداتهم للنبي ﷺ ومن آمن معه، والمبادرة بالدعوة وإنذار العشيرة. وهكذا أكثر القرآن المكي يتعرض لإثبات العقيدة، ومجادلة من ينكرونها من عبدة الأوثان.

أما السور المدنية وآياتها، فإنها تبين الأحكام التشريعية، وأحوال أهل الكتاب مع أهل الإيمان، وسنّ النظم لتكوين المجتمع الصالح الذي يقوم على مبادئ الإسلام، وما يحل وما يحرم في هذا المجتمع، وفيها قيام الأسرة الإسلامية التي تقوم على تقوى من الله تعالى، ورضوان منه ورحمة.[43] كما أن غالب السور المدنية تناول التحديات التي تواجهها المجتمعات المسلمة، وبخاصة الوصف القوي الذي وُصِف به المنافقون في الآيات، والتنديد الشديد الذي نُدِد بهم فيها، اللذان يدلان على ما كان لظهور هذه الطبقة من خطورة وأثر.

وسورة البقرة من أوائل السور المدنية التي نزلت بعد الهجرة؛ أي أول ما بدأ يكون للإسلام دولة.

قال ابن عباس: هي أوّل ما نزل بالمدينة. وحكى ابن حجر في شرح صحيح البخاري الاتفاق عليه، فقال: واتفقوا على أنها مدنية وأنها أول

٤٣. – محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، زهرة التفاسير، دار النشر: دار الفكر العربي، ج١، ص ٧٥.

سورة أنزلت بها. ففيها شرع فرض الصيام، والصيام فرض في السنة الأولى من الهجرة، فُرض فيها صوم عاشوراء.[44]

وهذا التوقيت الذي بدأت فيه سورة البقرة بالنزول هو توقيت في غاية الأهمية للمسلمين؛ فقد بدأت ملامح المجتمع والكيان تظهر، وتحول فيه الزمان بعد ثلاثة عشر عامًا من ابتلاء واضطهاد وتعذيب إلى وقت بناء وتأسيس وتشريع.

وقد نزلت هذه السورة العجيبة في مدد شتى، فظلت آياتها تنزل لمدّة ١٠ سنوات، تصاحب المؤمنين في جميع مراحل التأسيس والبناء حتى الانتهاء واكتمال الدين.[45] فرغم أن أغلب آياتها كانت أول القرآن نزولاً بالمدينة، إلا أن بقيتها ظلت تتنزل طوال الفترة المدنية حتى كان منها آخر ما نزل من القرآن.[46]

---

٤٤. - أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٢ م، ج١، ١٣٥. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ، ج١، ص ٢٤. أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، ج٨، ١٦٠.

٤٥. - أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ، ج ١، ٨١.

٤٦. - ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق.

والمتدبّر في الأحكام الواردة في السورة الكريمة يتلمس استمرار تنزلها على فترات طويلة في المدينة؛ فقد اشتملت على أحكام الحج والعمرة، وعلى أحكام القتال من المشركين في الشهر الحرام والبلد الحرام التي كان نزولها ما بين سنة خمس وسنة ست. وكذلك اشتمالها على أحكام الحج والذي فرض في سنة ثمان وفيها أيضا آيات الربا، قال القرطبي: وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن.[47]

ومن الواضح أن سورة البقرة استمر نزولها لفترات طويلة عاصرت مختلف التغيرات والأحوال التي مرّ بها المجتمع المسلم، حتى إن بعض السور المدنية نزلت، وسورة البقرة لما تنزل نهاياتها بعد.

وقد أشار ابن عاشور إلى هذا حين تناول سورة الأنفال، فقال: «ولعل سورة الأنفال قد انتهت قبل انتهاء نزول سورة البقرة، لأن الأحكام التي تضمنتها سورة الأنفال من جنس واحد وهي أحكام المغانم والقتال، وتفننت أحكام سورة البقرة أفانين كثيرة من أحكام المعاملات الاجتماعية. ومن الجائز أن تكون البقرة نزلت بعد نزولها بقليل سورة آل عمران، وبعد نزول آل عمران بقليل نزلت الأنفال، فكان ابتداء نزول الأنفال قبل انتهاء نزول البقرة وآل عمران».[48]

٤٧. - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، ج١، ص ١٥٢.

٤٨. - ابن عاشور، مرجع سابق، ج١٧، ص ٣٥.

والناظر في البيئة التي نزلت فيها السورة يدرك أن التحديات التي كانت تواجه المسلمين حينها متنوعة كثيرة؛ فالحديث المتواصل عن النفاق والمنافقين على سبيل المثال يعد واحدًا من أهم محاور سورة البقرة العظيمة، وهو من ضمن التحديات التي برزت في ذلك الوقت. وتناول الحديث عنه في أكثر من موضع له مدلولاته العميقة في أهمية وآليات التعامل مع هذا المرض الاجتماعي والأخلاقي الخطير الذي يمكن أن يظهر في أي مجتمع ولا يقتصر على بيئة المدينة فحسب.[49]

فسورة البقرة تناولت الواقع في حياة الأفراد بكل إحداثياته التي كان النفاق والمنافقون يشكلون جزءًا منه؛ فالمنافقون يظهرون في وقت القوة المادية لجني المكاسب العاجلة ليس إلا. وقد تخللتها عظات وتلقينات وتعليمات إيمانية وأخلاقية واجتماعية تعالج النفس البشرية وما يعتريها من أحوال، وانطوت فيها صور عديدة من العهد المدني وظروف المسلمين فيه.

إلا أن هذه الظروف الزمنية مع خصوصيتها، تبقى توجيهًا تربويًا وتعليمًا أخلاقيًا ينطبق على مختلف الأحوال والأزمنة. وهذا في واقع الأمر من أشكال الإعجاز في كتاب الله. يقول الأستاذ دروزة في تفسيره فقال: (ومع ما في الآيات من خصوصية زمنية واحتوائها صورة للمنافقين

---

٤٩. - راجع في تفاصيل ذلك كله بحثنا المنشور: السياق الزماني والمكاني وأثره في فهم النصوص القرآنية ..مقاصد سورة البقرة أنموذجًا. مجلة الدراسات الإسلامية. جامعة عمار ثليجي. الجزائر. العدد التاسع (يونيو ٢٠١٧م)

في عهد النبي ﷺ فإن في إطلاق الخطاب وتعميمه تلقينا عاما مستمر المدى بتقبيح الأخلاق والمواقف والأقوال المنسوبة للمنافقين والتي تبدر من بعض الناس في كل زمن ومكان).[50]

مقاصد سورة البقرة ومحاورها

المتأمل في هذه السورة العظيمة وما ورد في فضلها ومنزلتها من أحاديث صحاح، وآثار عن الصحابة وغيرهم في تعلّمها والحرص عليها، يتبين له أن لها مقاصد وغايات في غاية الأهمية، تتفق وتلك المكانة السامقة لها. ثم إذا ما تم النظر إلى السياق المكاني والزماني المصاحب لنزولها، كان للمتدبر تبيّنُ طرفٍ من تلك المقاصد؛ فنزول هذه السورة كان في أول عهد بناء المجتمع المسلم في المدينة، واستقلال أهل الإسلام بمدينتهم، لذا فقد كان من أول أغراض هذه السورة تنقيته من أن يختلط بعناصر مفسدة لما أقام الله لها من الصلاح؛ سعياً لتكوين المجتمع الإسلامي على صورة نقية من شوائب الدجل والدخل. فأراد أن يقيم البيت المسلم داخليًا وخارجيًا على دعامة التقوى ودرعها الحصين.

٥٠. – دروزة محمد عزت، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، الطبعة: ١٣٨٣ هـ ، ج٦، ص ١٣٥.

ومن المعلوم أن المجتمع المسلم كان في مرحلة بناء وتأسيس في المدينة، ولم يكن المجتمع المسلم بحاجة في بنائه وتأسيسه إلى أحجار وتراب بقدر ما كان بحاجة إلى أساس أصيل متمثلا في التقوى. من هنا جاءت سورة البقرة العظيمة لتؤسس الفرد وتقيم الأسرة والمجتمع على دعامة هداية التقوى. قال تعالى: (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) سورة التوبة: ١٠٩.

ومن العلماء الذين يُستشف منهم أن التقوى هي مقصد سورة البقرة، الشاطبي رحمه الله حيث قال: «لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة كان من أول ما نزل عليه سورة البقرة، وهي التي قررت قواعد التقوى المبنية على قواعد سورة الأنعام، فإنها بينت من أقسام أفعال المكلفين جملتها، وإن تبين في غيرها تفاصيل لها كالعبادات التي هي قواعد الإسلام والعادات من أصل المأكول والمشروب وغيرهما والمعاملات من البيوع والأنكحة وما دار بها، والجنايات من أحكام الدماء وما يليها».[51]

ومن المعاصرين الذين أكدوا هذا المقصد لسورة البقرة كذلك، الشيخ محمد الغزالي في تفسيره الموضوعي للقرآن الكريم.[52]

٥١. - أبو إسحاق الشاطبي، مقاصد الشريعة، ج٣، ص ٣٠٥.

٥٢. - محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق، الطبعة ٩، ٢٠٠٧م، ص ٤٥.

فالسورة كلها تدور حول التقوى، إذ لا بناء حقيقي في الفرد والمجتمع والأمة دون وجود التقوى التي تشكل حقيقة العمل وروح البناء.

من هنا يمكننا القول، **إن السياقات التي تحف نزول هذه السورة العظيمة واستمرار نزولها لسنوات في المدينة، تقودنا إلى القول إن المقصد الأساس للسورة هو هداية التقوى**؛ فلا تتحقق الهداية في حياة المسلم بدون تقوى: (هدى للمتقين).

ومن الأدلة على ذلك أن الآيات الأوَل في سورة البقرة إذا حاول المتدبر البحث عن المناسبة بين سورة البقرة وبين سورة الفاتحة فيها، سيجد الإجابة واضحة في مقصد سورة البقرة العظيم، ففي آخر آيات سورة الفاتحة – تلك السورة التي لابد من تلاوتها في كل ركعة يركعها لله عز وجل فريضة أو نفلاً – تجد دعاءً وطلبًا لأعظم مقصود يقصده المؤمن ألا وهو طلب الهداية (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) [الفاتحة: ٦، ٧].

ثم تأتي الآيات بعدها مباشرة في سورة البقرة مفتتحة بقوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) [البقرة: ٢]. إنها الإجابة للدعاء السابق في سورة الفاتحة، إنها هداية التقوى التي يلح عليها المسلم.

وهذا نوع من أنواع الترابط بين السور؛ أواخرها والبدايات التي تليها.

فهداية التقوى جاءت في السورة العظيمة مقصودة: «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ».

وكل ما جاء في سورة البقرة من آيات وتشريعات وأحكام متعلقة بالفرد، متعلقة بالأسرة، بالحياة الزوجية، بالطلاق، بالرضاع، متعلقة بالجهاد، وبالإنفاق. كل ما فيها تفصيل لجزئيات هداية التقوى. وهي ليست هداية نظرية؛ بل هداية عملية لا تتحقق بمجرد تطبيق الأحكام والتشريعات دون رصيد عميق من التقوى.

ومن هنا خُصت سورة البقرة بالهداية؛ بأنها للمتقين «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» ثم جاء بأوصاف هؤلاء المتقين.

فالقلب الذي هو الوعاء الذي تُستقبل فيه معاني سورة البقرة، لابد أن تكون فيه تقوى ليصل للهداية. وآيات هذه السورة العظيمة لا يمكن أن تحقق الهداية، إلا حين يكون ذلك القلب فيه من معاني التقوى ما يؤهله للانتفاع بالهداية، التي هي من أصل صفات القرآن العظيم.

التدبّر الإجمالي لسورة البقرة

سورة البقرة تتألف من ثلاثة أجزاء: الجزء الأول منذ بدايته أقام دعائم الهداية - والمقصد الأساس في السورة: هو الهداية؛ فالسورة سورة هداية، سورة نور في الدنيا وفي الآخرة لأصحابها، لمن يقوم بحقها - أقام دعائم الهداية على التوحيد الخالص الصادق الذي هو مراد الله عَزَّ وَجَلَّ،

يقول ابن قيم الجوزية: «إن كل آية في القرآن متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه».[53]

فالجزء الأول في سورة البقرة أقام دعائم الهداية على التوحيد، وبيّن منذ البداية أن لا عمل يصحّ إلا حين يُبنى على ذلك التوحيد:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) [البقرة: ٢، ٣].

ثم قدّمت السورة العظيمة في الجزء الأول نموذجًا واضحًا و مثالاً عمليًّا لأمة من الأمم ما استطاعت أن تقيم التوحيد في حياتها وفق المنهج الرّباني الذي نزل عليها، إنها أمة بني إسرائيل.

أمة بني إسرائيل اختارها الله – عَزَّ وَجَلَّ – وفضّلها على العالمين، فضّلها ليس بناء على قومية أو عِرْق أو ما شابه؛ فالله – سبحانه وتعالى – هو العَدْل، خلق الخلق والكل عنده سواء، وإنما أوكل لتلك الأمة – أمة بني إسرائيل – مَهمّة المنهج وتطبيقه، بأن تقيم التوحيد في حياتها.

ذلك المنهج الذي أنزله على النبي موسى عليه السلام وبقية الأنبياء من بني إسرائيل.

٥٣. انظر: مدارج السالكين – ط٣ دار الكتاب العربي – بيروت (٣/ ٤١٧).

وتعرض الآيات في سورة البقرة في البداية قبل أن تقدّم النموذج مهمة الإنسان الخليفة الذي ما جاء على هذه الأرض ليلعب ويعبث، وإنما: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة: ٣٠] ومهمة هذا الخليفة أن يقوم بالمنهج ويُتقنه في حياته وفي واقعه.

ثم تعرض السورة في الجزء الأول مواقف متعددة متنوعة لبني إسرائيل في سياق التذكير لهذه الأمة، الأمة التي نزل عليها القرآن أول ما نزل؛ أمة العرب.

هذا الكتاب الذي أنزله الله على هذه الأمة عرض لها نماذج من تعامل بني إسرائيل مع منهجهم، مع دعوة نبيهم موسى - عليه السلام - مع التوراة كيف تعاملوا؟ الرّب سبحانه وتعالى أكّد هذه الوصية (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: ٦٣].

والوصية ليست لبني إسرائيل دون غيرهم، الوصية لكل الأمم، الوصية لهذه الأمة التي نزل فيها القرآن (خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوّةٍ)[54] والحديث عن القوة هنا يتضمن كل أشكال وأسباب القوة المادية والمعنوية بما تتضمنه من معاني الصدق والجد والعمل الحقيقي الذي يعكس الإيمان بها.

٥٤. قال ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير - ط١ دار الكتاب العربي - بيروت (١/ ٧٤): وفي المراد «بقوّة» أربعة أقوال: أحدها: الجد والاجتهاد، قاله ابن عباس وقتادة والسدي. والثاني: الطاعة، قاله أبو العالية. والثالث: العمل بما فيه، قاله مجاهد. والرابع: الصدق، قاله ابن زيد.

فحين يأخذ المؤمن القرآن وسورة البقرة وأوامرها، لابد أن يأخذها بقوة وبطاعة وخضوع وانكسار ورغبة حقيقية في تطبيقها في واقع حياته.

كما أن الأخذ بقوة يتضمن معنى الدفاع عن المنهج؛ فطبيعة الحياة تدور مع الابتلاء والتحديات. فإذا لم يكن لدى المؤمن القوة الكافية لمواجهة تلك التحديات، سيفشل في القيام بحق المنهج. من هنا يُفهم الربط بما جاء في الحديث أنهما: «سورة البقرة وآل عمران، يأتيان يوم القيامة يحاجّان عن صاحبهما»؛ لأن صاحبهما دافع عنهما في الدنيا، دافع عن المنهج، وربما دفع ماله وحياته ثمنًا لتطبيق ذلك المنهج.

كما أن السورة تتحدث عن التضحيات التي أوصى الرّب عَزَّ وَجَلَّ: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) [البقرة: ٤٥]، هذه الوصية العظيمة لأجل مواجهة التحديات؛ فالحياة ليست مفروشة بالورود، وطريق تطبيق المؤمن للمنهج في حياته وواقعه، يمكن أن يواجه الصعوبات والأشواك.

الأمر الذي يقتضي أن يحمل المؤمن سورة البقرة ومعانيها بقلبه ويدافع عن قيمها ومبادئها وأحكامها، إلا أن بني إسرائيل لم يتمكنوا من أخذ ذلك الكتاب بقوة، بل قالوا: (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا). [البقرة: ٩٣]

وتأتي الآيات في سورة البقرة - في الجزء الأول - مرة بعد مرة إلى قضية العصيان الذي وقع في بني إسرائيل، ثم إلى الشرك بأنواعه

المتعددة بعيدا عن خلوص التوحيد، ذلك التوحيد الذي هو القضية الأولى، ولذلك تقول عنهم الآيات: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

عبادة العجل التي وقعت في بني إسرائيل تعكس البعد عن التوحيد، التخبط، الزيف، الانحراف عن المنهج، المماطلة في تنفيذ أوامر الله: «قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا» وقالوا في آية أخرى: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨] أُغلقت[55]، وهي بالفعل قد أُغلقت.

الآيات في سورة البقرة تحدثنا عن أشكال من العقوبات التي أصابت قلوب تلك الأمة التي ترنحت في القيام بمنهج الله سبحانه وتعالى وتنفيذه في واقع الحياة. إنها قسوة ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤] وغُلفٌ وخَتمٌ، لم كل هذه العقوبات على القلوب ؟!

لأن الإنسان حينما يُغلق قلبه أمام المنهج فإن العقوبة من جنس العمل. إذا أغلق الإنسان قلبه أمام آي القرآن العظيم، ولم يسمح لها أن تنفذ و تغيّر في حياته، و تصحح مساره، و تهذّب سلوكه وأخلاقياته، لا يمكن إلا أن يكون الإغلاق والختم والقسوة هو الجزاء المناسب لهذا العمل، وذلك ما حدث مع بني إسرائيل.

٥٥. هذا أحد المعنين في تفسير «غلف». قال الراغب الأصفهاني في تفسيره – ط١ كلية الآداب – جامعة طنطا (١/ ٢٥٦): أصل الغلف: ستر الشيء بالشيء الذي يجعل فيه، يعني قلوبنا مغطاة عما تدعونا إليه فلا نفهمه.

ثم خلص في نهاية الجزء الأول من جديد على موضوع التوحيد، وأن التوحيد الخالص هو دعوة الأنبياء (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) [البقرة: ١٣٦] هذه دعوة الإسلام.

وتسلّمت الأمة المسلمة التي نزل عليها القرآن المسؤولية العظيمة؛ مسؤولية القيام بدعوة الأنبياء دون أن تفرّق بين أحد منهم وسواء آمن اليهود والنصارى أم لم يؤمنوا.

فالإسلام جاء ليكون الرسالة الخاتمة، الرسالة الخالدة، الرسالة التي تحمي تراث الأنبياء جميعًا، الرسالة التي تحمي تعاليم اليهودية الحقة والنصرانية الحقة التي جاء بها الأنبياء من قبل (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [البقرة: ١٣٧].

هذا المنهج الرّباني الواضح الأسس والمعالم بنته سورة البقرة - في الجزء الأول - في قلب المؤمن، حين يؤمن ويوقن أنه لا يمكن أن تتحقق الهداية في واقعه دون التوحيد، التوحيد الذي هو مدار العلاقة مع الله - عَزَّ وَجَلَّ - فلا تستقيم العلاقة دون التوحيد.

فلا يكفي أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله باللسان دون أن يشهدها في واقعه، في تعامله، في عطائه، في السلوكيات التي تحكم

أركان الحياة ونواحيها المتعددة. فلا بد أن يكون الواقع مصداقًا لتلك الشهادة حتى يشفع للمؤمن القرآن.

فكيف يشفع له القرآن وهو لا يدافع عن ذلك القرآن في واقعه من خلال حماية تلك التعاليم العظيمة التي جاءت في القرآن العظيم وفي هذه السورة الكريمة المباركة؟!

أما الجزء الثاني في سورة البقرة فيبدأ بالحديث عن القبلة وتحويل القبلة نحو المسجد الحرام، وتحمل الأمة المسلمة؛ الأمة الوسط التي نزل عليها القرآن مسؤولية الشهادة على الأمم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] .

إذاً، هي الرسالة والأمانة التي ضيّعها بنو إسرائيل من قبل، رغم أن الأمة المسلمة كلفت بعدم تضييعها. وما جاء في الجزء الأول من حديثٍ عن بني إسرائيل، إنما جاء في سياق التحذير لهذه الأمة من أن تقع فيما وقع فيه بنو إسرائيل من تضييع للأمانة المتمثلة في المنهج الرّباني المنزل عليهم في التوراة.

من هنا جاء الجزء الثاني بكل التعاليم والتفاصيل التي يحتاجها الناس في معاشهم وسائر تعاملاتهم، فآيات تحدثت عن القصاص، وأخرى تحدثت عن الدَّين والوصايا والزواج...

جمعت السورة كل التعاليم التي تقيم المنهج في واقع الحياة وتخلّص البشر من الفوضى؛ فما أراد الله سبحانه لعباده أن يتركهم يعبثون ويلعبون ويجربون القانون تلو القانون، ليجدوا أنفسهم في نهاية المطاف أمام فوضى عارمة تعمّ مناحي حياتهم الأسرية والاجتماعية والثقافية.

ولذلك منذ اللحظة التي نزل فيها آدم عليه السلام، أُعطي له ذلك المنهج: (قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) [البقرة: ٣٨].

لقد جاء الجزء الثاني بكافة التفاصيل حتى فيما يخص العلاقة بين الزوجين؛ لتضع تلك العلاقة في إطار من تقوى الله - سبحانه وتعالى - ومراقبته في السرّ كما في العلن، وخُتمت تلك الآيات بقوله تعالى: (تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) [البقرة: ١٨٧].

والآيات العظيمة حين تحدثت عن مختلف الأحكام في مناحي الحياة، أوضحت أن ذلك المنهج لا بد أن يطبّق في إطار من تقوى الله - عَزَّ وَجَلَّ - وأن الإنسان الضعيف الذي لا يأخذ تلك التعاليم ويطبقها على نفسه في حياته الأسرية، يصعب عليه تطبيقها في مجتمعه الذي يشكل الأسرة الأكبر.

كما أن الإنسان الذي لا يستطيع أن ينتصر على نزعات نفسه وهواها ،لا يستطيع أن ينتصر على أحد لأنه فشل في الانتصار على نفسه وأهوائها ونزعاتها وما فيها من جنوح في بعض الأحيان نحو الشر والفساد.

وسورة البقرة تعلّم الإنسان من خلال الأوامر والنواهي كيف يتقي الله، كيف يقول لنفسه: «لا» حين ينبغي أن يقول لها: «لا». وعلى قدر ما تكون عظمة الله – عَزَّ وَجَلَّ – في قلب ذلك المؤمن الذي تبنيه السورة في آياتها آية بعد آية على قدر ما يكون تعظيم ذلك الإنسان لأمر الله ووقوفه عن نواهيه. ولذلك الكلام متواصل في السورة في الجزء الثاني عن :(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا) [البقرة: ١٨٧] (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا) [البقرة: ٢٢٩].

وبقدر تعظيم الله سبحانه وتوحيده في القلب، يكبر تعظيم الأمر وتطبيقه في واقع الإنسان وحياته العملية.

ولا تخرج آيات الجهاد في سبيل الله عن ذلك الإطار، فهو ليس من قبيل التسلط على شعوب العالم أبدًا، أو الإكراه لهم على الدخول في الدين، وإنما من باب حماية القيم العظيمة التي تضيع الحياة الإنسانية إن ضيعتها: العدالة، الحرية والمساواة. وهي قيّم جاءت بها كل الشرائع السماوية. تلك القيم الكفيلة بحماية النفوس من غوائل وزيف الشر

والفساد.[56]

هذه التعاليم العظيمة التي جاءت في سورة البقرة انتشلت أمة كانت تتقاتل لسنوات وسنوات فيما بينها على الماء والكلأ والأشياء المادية المحدودة.[57]

لقد خلّصت هذه التعاليم حين طُبقت في واقع الحياة المجتمع من صراعات محمومة استنزفت طاقاته.

وعالم اليوم بات يعاني من كل تلك البؤر المحمومة التي تقف المصالح المادية على رأسها، والتي تدفع به نحو الصراع والنزاع لأجل أن يبقى الأقوى حتى لو لم يكن صالحًا.

فحاجة العالم إلى منهج من الرّب لخلقه لا يفرّق بين أبيض وأسود، ولا يصنف الناس وفق أعراقهم وأجناسهم ولغاتهم حاجة ماسة.[58]

---

٥٦. قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] وقال عز وجل: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]

٥٧. كما حدث في حرب البسوس التي استمرت بين قبائل تغلب وبني بكر ما يقرب من ٤٠ عامًا بسبب ناقة قُتلت. انظر: الكامل في التاريخ - ط١ دار الكتاب العربي - بيروت (٤٧٣/١-٤٨٥).

٥٨. روى أحمد في مسنده - ط الرسالة حديث رقم (٢٣٤٨٩) عن أبي نضرة قال حدثني

فالرّب سبحانه خلقهم جميعًا بذلك التنوع والاختلاف والتعدد، وأنزل لهم ما يقيم حياتهم ،كما أوضح لهم أن الهلاك في البعد عن هذا المنهج: «خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ».

هذه هي رسالة سورة البقرة، ولذلك خُتم الجزء الثاني من سورة البقرة بقصة طالوت وجالوت؛ ليبين معنى الثبات على الحق والصبر على تعاليم المنهج والتزاماته، مؤكدًا سُنة التمحيص والغربلة والتدافع بين الناس، ليُحِقّ الله الحق بكلماته ولو كان بقلة عدد وعدة.

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ) [البقرة: ٢٤٩].

ولكن لكي تغلب هذه الفئة من الناس لا بد أن ينتصر المنهج في نفوسها أولاً، في سرّها قبل أن يكون في العلن، لا بد أن تتخلص من أدواء النفس ونزعاتها وأنانيتها وتسلّطها ورغبتها في التسلط والجبروت والتكبر على الآخرين، فما كان لذلك المنهج ولا لأصحابه أن يرتقوا على أنفسهم وحياتهم إلا بتلك التعاليم.

ثم يأتي في بداية الجزء الثالث من السورة التأكيد مرة أخرى على أن دعوة الأنبياء واحدة متمثلة في التوحيد وإقامة المنهج في واقع الحياة الإنسانية، وحماية العدالة والحرية والمساواة فيه.

من سمع خطبة رسول الله – ﷺ – في وسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى...» الحديث.

كما جاءت الآيات لتوضّح أن ما حصل من صراعات بين البشر ما كان لتحقيق رسالة الأديان، بل كان من قبيل أطماع النفوس ونزعاتها وأنانيتها ورغبتها في التسلط على الآخرين، كما حدث في قصة طالوت وجالوت.

ثم تأتي الآية العظيمة أعظم آية في كتاب الله، تلك الآية التي قال النبي ﷺ لأبيّ بن كعب: «يا أبا المنذر أيّ آية معك من كتاب الله أعظم؟ فيقول أُبيّ: قلت الله ورسوله أعلم، قال: يا أبا المنذر أيّ آية معك من كتاب الله أعظم؟ قال: قلت: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) – آية الكرسي – قال: فضرب رسول الله – ﷺ – في صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر».[59]

آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله، تلك الآية التي جاء فيها الحديث «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تُصبح».[60]

أعظم آية في كتاب الله، آية التوحيد، الآية التي يُعرف الله سبحانه وتعالى ويتجلّى فيها لعباده بصفاته، فالقرآن كما يقول ابن القيم: «القرآن كلام الله وقد تجلّى الله فيه لعباده بصفاته».[61]

---

٥٩. أخرجه مسلم (٨١٠).

٦٠. رواه البخاري (٢٣١١) عن أبي هريرة – رضي الله عنه – وقد سبق ذكره قريبًا.

٦١. انظر: الفوائد – ط دار عالم الفوائد (ص ٩٨).

وفي هذه الآية العظيمة - سبحانه وتعالى - تجلّى لعباده بصفاته في هذه الآية (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) [البقرة: ٢٥٥] .

يقول ابن قيم الجوزية حول ذلك: «القرآن كلام الله وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارةً يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال فتخضع الأعناق وتنكسر النفوس وتخشع الأصوات ويذوب الكِبْر كما يذوب الملح في الماء، وتارةً يتجلى في صفات الجمال والكمال وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدالّ على كمال الذات، فيستنفد حبُّه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرف ذلك العبد من صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغًا إلا من محبته».[62]

وهذه الصفات يتيقن بها قلب المؤمن حين يقرأها بقلبه قبل أن تتحرك بها شفتاه.

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) [البقرة: ٢٥٥].

صفات عظيمة، صفات تولِّد في قلب المؤمن التوكل على الله -عَزَّ وَجَلَّ-، صفات تورثه أعمالاً قلبية تجعل صاحبها في حرز وأمن من المخاوف

٦٢. انظر: الفوائد - ط دار عالم الفوائد (ص ٩٨).

المتوهمة، الخوف من العين، الخوف من السحر، الخوف من الحسد، الخوف من الفقر، الخوف على المستقبل، الخوف على النفس، الخوف من المرض، الخوف على الأولاد، تسقط عنه كل تلك المخاوف المتوهمة بنور الإيمان حين يتجلى في قلبه. نور الإيمان بصفات الكمال والجلال لله الواحد القهار.

وكلما شهد العبد هذ الصفات حين يقرأ هذه الآية العظيمة ولّدت لديه توكلاً على الله، وشعورًا بالافتقار إليه سبحانه والاستعانة به دون سواه والذل والخضوع والانكسار له، وهذا محض التوحيد والعبودية. هذا محض رسالة التوحيد العظيمة أن يشعر الإنسان أن لا حاجة له إلى أحد سوى الله - سبحانه وتعالى - فيخشع القلب لله؛ تعظيمًا وإجلالاً وتوقيرًا ومهابة وينكسر بين يديّ خالقه، ويشهد نِعَم الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيخشع القلب فتتبعه الجوارح وتسير على هداه - فالقلب قائد - فلا يبقى هناك خوف من أحد، فتتبدد المخاوف وما أكثر المخاوف التي يعاني منها الإنسان في وقتنا الحاضر!

ولكن من ملأ الإيمانُ بربه قلبَه أيخاف أحدًا؟! ولذلك جاءت الآيات التي تليها - بعد (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ). [البقرة: ٢٥٦] وبعد أن تعرّف الله سبحانه وتعالى وعرّف ذاته العليّة لخلقه بصفاته (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا.) [البقرة: ٢٥٧].

فإذا استشعر العبد بأن الله مولاه يتولى شؤونه، يصرّف حياته، يدبّر له المستقبل كما دبّر له الماضي والحاضر، تهدأ نفسه وتتبدد مخاوفه

من البشر - ومن السحر والحسد والعين و الخوف على الرزق والمال والوظيفة - بوجود هذه الصفات الإيمانية في قلبه.

ولا أحد ينكر وجود هذه الأشياء والمخاوف التي تحف بالإنسان، كما لا أحد ينكر وجود الشر، لكن على المؤمن أن يحرر قلبه من الخوف من الشر، وهذا لن يحدث إلا حين يخضع العبد لخالقه - عَزَّ وَجَلَّ - وينكسر بين يديه، ويستشعر ضعفه وفاقته وحاجته لخالقه، وأنه في حمى مولاه وحفظه.

ويأتي السؤال الواضح هنا: لماذا التركيز في سورة البقرة على التخلص من هذه المخاوف والأحزان، والبيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة يفرّ منه الشيطان؟[63]

لأن الإنسان الذي تصنعه سورة البقرة على عين آياتها هو إنسانٌ حر، قوي، إنسانٌ قادر على أن يلتزم المنهج الرّباني في واقع الحياة. ولا يمكن لإنسان خائف جبان متردد مليء رأسه بالأوهام والوساوس والقلق والأرق، أن يلتزم بالمنهج في الواقع، لا يمكن أن يأخذ هذا الكتاب بقوة.

من أين جاءت كل هذه الشحنة من القوة والدافعية؟

جاءت من شهود هذه المعاني في قلب المؤمن، من هنا جاء تأكيد النبي - ﷺ - على قراءة آية الكرسي صباحًا و مساءً بعد كل

٦٣. روى مسلم في صحيحه حديث رقم (٧٨٠) عن أبي هريرة، أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة».

صلاة[64] لتتركز تلك المعاني في القلب فيشعر بالاطمئنان؛ تلك العملة المفقودة في عالم اليوم!.

لقد تفنن الإنسان المعاصر في صنع الأقفال و أجهزة الحماية، ولكنه لا يزال أكثر المخلوقات خوفًا وقلقًا. والإيمان يبدد مشاعر الخوف والقلق في النفس. قد تمر على الإنسان أوقات يشعر فيها بحكم بشريته بشيء من الخوف والقلق، ولكن أن يستسلم لذلك ويعيش في دوامتها، فهذا ما لا يستقيم مع دواعي الإيمان واليقين في النفس.

من هنا جاء الحديث عن الإنفاق والحضّ عليه بعد آية الكرسي العظيمة؛ لأن المؤمن الذي يخاف على المستقبل وعلى أمواله من النفاد وعلى ثروته من أن تتبدد أو تضيع، لا يمكن أن يبذل، لا يمكن أن يضحّي، لا يمكن أن يُعطي. أما المؤمن الذي استقرت في قلبه معاني الإيمان بأسماء الله وصفاته سبحانه ،

وأنه له ملك السماوات والأرض وهو الذي يأمر بالعطاء ويعد بمزيد منه للمنفق، فالأمر يختلف عنده.

فالسورة بآياتها تعلمه أنّ ما ينفقه فالله يخلفه، وأنّ ما عندكم ينفد مهما زاد، وما عند الله باق مَا (عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) [النحل: ٩٦].

٦٤. روى النسائي في الكبرى (٩/ ٤٤) حديث رقم (٩٨٤٨) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله – ﷺ –: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ» والحديث صححه الألباني بطرقه في السلسلة الصحيحة (٦٦١/٢).

فالإنفاق لا يمكن أن يقلل من المال، وإنما الذي يقلل من المال مخالفة المنهج الرّباني. الرّب الذي أمر بالإنفاق ضمِنَ أن لا يقلّ ذلك المال، بل يزداد ويتضاعف أضعافًا مضاعفة ولذلك جاءت الآية بالمقابل: (يَمْحَقُ اللهُ الرّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ). البقرة (٢٧٦)).

الرّبا مخالفة للمنهج الرّباني مخالفةً صريحة، فيه استغلال لحقوق الضعفاء وحاجتهم إلى جانب ما يحمله من ضعف الشعور الإنساني بالآخرين وآلامهم وحاجتهم، فجاءت سورة البقرة لتحيي في النفوس المشاعر الإنسانية تجاه غيرهم، وتبدد المخاوف التي يعاني منها العالم المعاصر الذي اكتوى بنار الرّبا والفوائد في البنوك، وأعلن إفلاسه أكثر من مرة.

وليس المقصود بالإفلاس إفلاس اقتصاد وبنوك، بل إفلاس قلوب ضيّعت المنهج الرّباني الذي أمر بالإنفاق وحرّم الرّبا ولذلك يقول (يَمْحَقُ اللَّهُ الرّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) [البقرة: ٢٧٦]. يمحقها أي ينقصها ويُذهب بركتها[65]، ولذا عقّب في ختام الحديث عن آيات الرّبا بتحذير البشر من الحرب من الله سبحانه وتعالى: (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) [البقرة: ٢٧٩] «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا» بترك الرّبا (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) حرب؟! نعم حرب، وما يعيشه عالمنا المعاصر اليوم حرب بكل

٦٥. - الراغب الأصفهاني، المفردات، ج١، ص ٧٦١، مادة محق.

المقاييس. الحرب التي يبدأها الإنسان بجهله وتطاوله على أحكام الله سبحانه وتجاوزه لمنهجه الذي أنزل وفرض.

وهنا تجيب سورة البقرة عن المعضلات التي دوّخت رؤوس العالم اليوم من العلماء والمفكرين والنقاد والمحللين؛ سياسيين واقتصاديين واجتماعيين. لِمَ كل تلك المعاناة في العالم المعاصر رغم كل التقدم التقني والعلمي المشهود؟!

لِمَ المعاناة؟ لِمَ زادت الحروب؟ لِمَ زاد الفقر؟ لِمَ زاد الشقاء؟ لِمَ زادت التعاسة؟ لم زاد الضنك؟ لم زاد التعب؟ لم زاد المرض رغم التقدم في وسائل الطب؟ هذه الأسئلة تجيب عنها سورة البقرة بطريقة واضحة لمن يتدبّر في آياتها ويقف عند معانيها ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ .

فالإنسان أعلن الحرب على المنهج الذي أنزله الخالق إليه ليهديه وينقذه، ليسعده لا ليشقيه، ليعطيه لا ليمنعه، حين ضرب بكل أحكامه عرض الحائط وعاش مخالفًا له في كل تفاصيل حياته الاقتصادية والمعيشية وغيرها.

ثم تنتقل الآيات للحديث عن موضوع في المعاملات المادية: «الدَّيْن».

لتجعل آياتها تدخل في كل خلجات النفس فتداويها، في كل حركات الحياة الإنسانية فتعالجها، وتضع البصمة الحقيقية عليها؛ بصمة التقوى.

التقوى يجب أن تكون حاضرة في كل معاملات الحياة، في الدَّين، في الكتابة، في الشهادة، في كل شيء.

ثم يعود الله – عز وجلّ– فيؤكد في ختام آيات سورة البقرة أنه لا هداية للبشرية بعيدًا عن المنهج الرّباني، لا هداية على الإطلاق، لا يمكن أن تكون هناك هداية. قد يتساءل البعض كيف السبيل؟ كيف النجاة؟ لا يمكن أن تكون النجاة بعيدًا عن المنهج الرّباني الذي ليس مجرد شعار، ولا مجرد كلمات تُحفظ في الصدور، والذي لا بد أن يكون واقعًا يُطبّق، واقعًا تسير عليه، واقعًا تمشي عليه.

الأمانة لا تحتاج على سبيل المثال أن يضع الإنسان شعارًا على رأسه أو علامة تخبر الناس بأمانته. الأمين يمارس الأمانة في حياته فيُعرف بأنه الأمين. النبي – ﷺ – ما لقّب نفسه قبل البعثة بأنه الصادق الأمين ولكن قومه قالوا عنه: «الصادق الأمين»؛ لأنه عُرف بصدقه وأمانته، عاملهم بالصدق والأمانة.

فتطبيق المنهج الرّباني لا يحتاج رفع شعار أو إعلان، وإنما الأخلاق والسلوك والمعاملة ستكون هي الشعار الحقيقي، الصدى الحقيقي لما يؤمن به في الواقع ويعيش عليه.

ثم تُختم سورة البقرة بالدعاء العذب، الدعاء الذي يبين عجز الإنسان وتقصيره، شعوره بالانكسار بين يديّ خالقه، حين يبذل جهده ويخشى صدور الخطأ: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) [البقرة: ٢٨٦] ولكن في نهاية

المطاف الإنسان بحكم بشريته قد تصدر منه أخطاء، أو نسيان، فتأتي الآية تستوعب ذلك وتحتويه بأجمل اعتذار وأرق عبارة وانكسار: (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) [البقرة: ٢٨٦] .

اعتذار عن كل ما يقع خارجًا عن إرادة الإنسان. ولكن الذي ليس خارجًا عن إرادته هو فعله في الواقع، وتطبيقه لتلك الإرادة التي يطّلع الله عليها، ولذلك جاء قبل آيات الدعاء في ختام سورة البقرة: (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) [البقرة: ٢٨٤]؛ مفهوم المراقبة الذاتية. مفهوم أن يراقب الإنسان خالقه في سرّه، فيكون حريصًا على أن يكون سرُّه خيرًا من علانيته، هذا الحرص لا يمكن أن يتحقق إلا حين تيمن أن الله مطّلع على سرّه وأن السرّ عنده علانية (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ).

فإذا استحكمت هذه المعاني في ذات الإنسان، يأتي الدعاء: (لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)؛ فهو لم يتعمد المخالفة، وإنما قصده الطاعة والسير على المنهج، ولكن قد تقع بعض الأخطاء. (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) [البقرة: ٢٨٦].

هذا الإنسان الذي صنعته سورة البقرة بتعاليمها والذي يحرص على أن يتعلمها، و يدافع عن تلك السورة، وعن القرآن بماله وحياته

لأجل أن يطبّق ما جاء فيها، هو إنسانٌ يستحق أن تدافع عنه سورة البقرة يوم القيامة، يستحق أن تُظلّه سورة البقرة يوم القيامة في ذلك اليوم العصيب، في ذلك اليوم الذي يبلغ فيه الناس مبلغًا عظيمًا من التعب والجهد والحرّ والانتظار، في ذلك اليوم تأتي هذه السورة ومعها آل عمران، تقدمه سورة البقرة وآل عمران يشفعان ويحاجّان عن صاحبهما[66]، لحفظه لهما.

فكلما ازداد المرء حفظًا لكتاب الله في قلبه وحياته وسلوكه زاده الله حفظًا في نفسه وفي ماله وفي أسرته وفي مجتمعه.[67]

حِفظُ الإنسان لسورة البقرة في سلوكه وتعامله يجعله في حفظ الله ورعايته. من هنا يُفهم ما جاء عن ابن عباس أنه قال: بينما جبريلُ قاعدٌ

٦٦. روى مسلم في صحيحه حديث رقم (٨٠٥) عن جبير بن نفير، قال: سمعت النواس بن سمعان الكلابي، يقول: سمعت النبي - ﷺ - يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة، وآل عمران»، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما حزقان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما». اهـ. وقد مر نحوه معنا قريبًا.

٦٧. جل هذا شواهد عظيمة منها ما جاء من حديث أخرجه أحمد في مسنده ط الرسالة (٢٦٦٩)، الترمذي (٢٥١٦) وغيرهما، عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أنه ركب خلف رسول الله - ﷺ - يومًا، فقال له رسول الله - ﷺ -: «يا غلام، إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف» .

عند النبيّ - ﷺ - سمع نقيضًا[68] من فوقِه فرفع رأسَه فقال: «هذا بابٌ من السماءِ فُتِحَ اليومَ لم يفتح قط إلا اليومَ فنزل منهُ ملكٌ فقال: هذا ملكٌ نزل إلى الأرضِ لم ينزل قط إلا اليومَ فسلّم وقال: أبشِرْ بنورينِ أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌّ قبلك فاتحةُ الكتابِ وخواتيمُ سورةِ البقرةِ لن تقرأَ بحرفٍ منهما إلا أُعطيتَه».[69]

هذه الخواتيم العظيمة التي تُشعر الإنسان بحفظ الله سبحانه وتعالى له، لأنه قد حفظ آيات هذه السورة العظيمة في حياته وواقعه، في عمله وسلوكه، في عطائه، في زواجه، في أسرته، في مجتمعه، تلك الخواتيم تحقق للإنسان الحفظ والأمن والأمان والسلام والرحمة التي ينشدها ولا يكاد يجد سبيلاً إليها، كل ذلك يجده في هذه السورة العظيمة؛ سورة البقرة.

التدبّر التفصيلي لسورة البقرة

المناسبة بين مفتتح سورة البقرة وبين مختتم سورة الفاتحة واضحة؛ فالسورة التي ينبغي على المسلم أن يكررها في كل ركعة يركعها لله عَزَّ

٦٨. النقيض: هو صوت كصوت الباب إذا فتح. انظر: شرح النووي على مسلم - ط٢ دار إحياء التراث العربي - بيروت (٦/٩١).

٦٩. أخرجه مسلم (٨٠٦).

وَجَلَّ فريضة أو نفلاً - حوت دعاءً وطلبًا لأعظم مقصود يقصده المؤمن ألا وهو طلب الهداية. (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) [الفاتحة: ٦، ٧]، ثم تأتي الآيات بعدها مباشرة في سورة البقرة مفتتحة بقوله تعالى: (الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) [البقرة: ١، ٢]. إنها الإجابة للدعاء السابق في سورة الفاتحة، إنها الهداية التي يطلبها المسلم ويلحّ على الله بالدعاء للوصول إليها.

الهداية التي لا سعادة ولا نجاة لا في الدنيا ولا في الآخرة بعيدًا عنها، يجدها في السورة العظيمة، إنها هداية التقوى،: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ). كل ما جاء في سورة البقرة من آيات وتشريعات وأحكام متعلقة بالفرد، متعلقة بالأسرة، متعلقة بالحياة الزوجية، متعلقة بالطلاق، متعلقة بالرضاع، متعلقة بالجهاد، متعلقة بالإنفاق، كل ما فيها تفصيل لجزئيات الهداية الحقيقية؛ فالهداية في السورة ليست هداية نظرية، بل هداية عملية، فلا يمكن أن يهتدي بعيدًا عن المنهج الذي يقدّمه القرآن للإنسان. لا يمكن أن يكون الإنسان على هدى، وهو يسير في حياته وتعامله وسلوكه بعيدًا عن منهج القرآن. إنها هداية العمل والسلوك ليكون فعلاً محققًا لمعاني الهداية العظيمة.

ولكن هذه الهداية في السورة جعلها الله سبحانه للمتقين، ثم جاء بأوصاف هؤلاء المتقين.

فالشرط في تحقق الهداية أن يكون القلب الذي هو الوعاء الذي تُستقبل فيه معاني سورة البقرة على تقوى من الله، ما يؤهله للانتفاع بالهداية.

وقد وصف الله سبحانه القرآن كله بأنه هدى[70]، ولكن لكي تتحقق تلك الهداية، لا بد للقلب الذي يستقبل وينتفع بمعاني الهداية وبأنوارها أن يكون فيه تقوى. والمعنى الواضح الأساس للتقوى أن يسير الإنسان على توقٍّ وحذر.

وهنا تتضح حكمة أخرى تحمل في طياتها التحذير من الإقبال على القرآن بقلبٍ مريض، يأتي إلى القرآن بتراكمات وأهواء مختلفة، لا يطلب الهداية، فهذا النوع من القلوب وذاك النوع من التلقي لا تتحقق فيه معاني الهداية.

ولذلك حددت الآيات الخمس الأولى في سورة البقرة من هم هؤلاء الذين سينتفعون بهداية البقرة؟ إنهم المتقون.

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)

---

٧٠. كما قال سبحانه: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) [البقرة: ١٨٥] وقال عز وجل: (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [الأعراف: ٥٢] وقال تعالى: (طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) [النمل: ١، ٢] وقال: (الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ) [لقمان: ١ – ٣] وقال سبحانه: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ) [فصلت: ٤٤].

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [البقرة: ٣ – ٥]

في هذه الآيات ذُكرت الهداية «هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» في موضعين، ثم في نهاية صفاتهم تأتي «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى»؛ تأكيد للمعاني. من أعظم صفات أولئك المتقين الذين ينتفعون بهداية سورة البقرة، هم الذين يُعرفون بأنهم أصحاب الزهراوين: إنهم «يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ».

تلك الحقيقة التي لا يمكن أن يتم إيمان المرء إلا بها؛ فالإيمان والاهتداء بالقرآن وتطبيق تعاليم القرآن وأحكامه، كل ذلك يقوم على تلك الحقيقة: «الإيمان بالغيب»، الإيمان بعالم ما وراء الحسّ.

فالإيمان بالغيب جزء لا يتجزأ من حقيقة إيمان الإنسان وتصديقه، يبدأ من الإيمان بوجود الله سبحانه ووحدانيته وصفاته وأسمائه وهو سبحانه: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) [الأنعام: ١٠٣].

ثم إن جميع أركان الإيمان تقوم على الإيمان بالغيب؛ فالإنسان يؤمن بالملائكة ولا يراهم، وبكل الكتب التي أُنزلت على أصحابها من الأنبياء ولم يرها، ويؤمن بالأنبياء عليهم السلام ولم يرهم.

كل ذلك إيمان بالغيب، فلا بد من الإيمان بالغيب أن يقوى في النفس البشرية، ويستقر في القلب؛ لكي يتمكن القلب من الاستفادة من أنوار الهداية الموجودة في سورة البقرة.

والإيمان بالغيب ليست مجرد حقيقة إيمانية فقط غائبة عن الواقع، فهي تأخذ بجوارح الإنسان إلى سائر العبادات و النطق بالشهادة و ممارسة شعائرَ، وسلوكيات، وأعمال كلها نابعة من ذلك: (وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ).

فإيمان الإنسان بالغيب وبوعد الله - عَزَّ وَجَلَّ - يدفع إلى إقامة الصلاة والوقوف بين يدي خالقه وقوفًا يليق بإيمانه بأنه يخاطب ربه سبحانه.

فإذا قوي الإيمان بالغيب في قلبه، أصبحت الصلاة ليست مجرد صلاة، بل يقيمها ركوعًا وسجودًا وخضوعًا وتدبرًا وتفكرًا في معاني الآيات التي يقرأ في كل ركعة.

هذه المعاني العظيمة لا تتحقق من قلب لا يؤمن بالغيب، بل تتحقق من قلب قد وضع الإيمان بالغيب نصب عينيه وفي أعماق قلبه الذي آمن.

حينها تصبح الصلاة التي يصليها تليق بالرّب - سبحانه وتعالى - الذي يصلي ويركع ويسجد ويخضع له، فلم تعد الصلاة عملية روتينية، ولا مجرد حركات بالجسد لا تغني عن صاحبها الكثير، بل أصبحت صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

صلاة تجعل من العبادة ممارسة متواصلة للعمل الصالح الذي يريده الله - سبحانه وتعالى - تتجدد منها معاني الهداية المطلوبة، وتتحول الصلاة إلى عطاء ودافع عظيم للعطاء المعنوي والمادي.

وهذا سرّ الترابط بما بعدها: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ فالرزق بكل أشكاله، أكان موهبة، علما، عملا، عطاء، خيرا، مالا، جاها، منزلة، كل ما أنعم الله به على العبد، أَنفق منه.

وهنا يأتي السؤال ما وجه الرّبط بين الإنفاق وبين ما قبله من الحديث عن الهداية؟

الإنسان الذي يهتدي بنور القرآن العظيم وبتلك الصلاة يتحول إلى إنسان كثير العطاء والخير، إنسان معطاء يتخلص من الشح، يتخلص من الأنانية، إنسان يعطي ولا يمنع؛ لأنه يدرك أن العطاء إنما هو عطاء وتفضل وامتنان من الله - سبحانه وتعالى - عليه، فلا ينبغي أن يمسكه ولا ينبغي أن يمنعه عن مستحقيه. فالمؤمن كالغيث، خير أينما حلّ ونزل في مكان أعطى الخير الذي لديه.[71]

---

٧١. ففي الصحيحين - البخاري (٦١٢٢)، مسلم (٢٨١١) - عن عبد الله بن عمر أن النبي - ﷺ - قال: «مثل المؤمن كمثل شجرة خضراء، لا يسقط ورقها ولا يتحات» فقال القوم: هي شجرة كذا، هي شجرة كذا، فأردت أن أقول: هي النخلة، وأنا غلام شاب فاستحييت، فقال: «هي النخلة».. قال النووي في شرح مسلم - ط٢ دار إحياء التراث العربي - بيروت (١٧/ ١٥٤): قال العلماء: وشبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده على الدوام، فإنه من حين يطلع ثمرها لايزال يؤكل منه حتى ييبس، وبعد أن ييبس يتخذ منه منافع كثيرة، ومن خشبها وورقها وأغصانها، فيستعمل جذوعًا وحطبًا وعصيًّا ومخاصر وحُصرًا وحبالاً وأواني وغير ذلك، ثم آخر شيء منها نواها وينتفع به علفًا، ثم جمال نباتها وحسن هيئة ثمرها، فهي منافع كلها وخير وجمال، كما أن المؤمن خير كله من كثرة طاعاته ومكارم أخلاقه

ثم إن هؤلاء المتقين الذين أصبحوا محلًّا للاستهداء بآيات سورة البقرة ونور الكتاب العظيم يؤمنون بكل الرسالات التي سبقت: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. الإيمان بالنسبة لهم لا يفرّق بين موسى وعيسى ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فيؤمنون بكل الرسل؛ فالإيمان بهم جميعًا جزء من عقيدتهم التي نزل بها القرآن على قلب محمد - ﷺ.

لا يفرّقون بين أحد من الرسل كما سيأتي في خواتيم سورة البقرة العظيمة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فليس هناك تفرقة بين الرسالات السماوية ولا بين الأديان، وهنا تظهر لطيفة أخرى من لطائف هذه السورة العظيمة؛ أن المؤمن بإيمانه واستهدائه بنور ذلك الكتاب، يصبح رسالة ومشروعًا عالميًا للسلام، للخير والعطاء. لا يقف عطاء ذلك المؤمن المستهدي بنور آيات سورة البقرة عند أمته وعند قومه وعند رسالته، وإنما يمتد ليشمل كل البشرية.

﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، واليقين بالآخرة في مواصفات هؤلاء الذين يستهدون بآيات سورة البقرة مهم جدًا، فهو الذي يدفع بهم إلى التضحية في بعض الأحيان، التضحية التي يتطلبها الإيمان

ويواظب على صلاته وصيامه وقراءته وذكره والصدقة والصلة وسائر الطاعات وغير ذلك. اهـ.

والالتزام بأحكام التشريع. فهناك يوم الدين والجزاء واليقين بأن الدنيا دار عمل وليست دار جزاء، وأن الإنسان يقوم بعمل ولو كان مثقال ذرة من خير أو شر، ليجازى به. (وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ).

واليقين هو: العلم الحاصل للقلب بعد النظر والاستدلال، فيوجب قوة التصديق حتى ينفي الريب والشك، ويوجب طمأنينة القلب بالإيمان وسكونه وارتياحه به.[72] وكان مِنْ دُعَاءِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اللَّهُمَّ هَبْ لِي إِيمَانًا وَيَقِينًا وَمُعَافَاةً وَنِيَّةً. عونٌ بن خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، قَالَ: «تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ كَمَا تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ حَتَّى تَعْرِفُوهُ فَإِنِّي أَتَعَلَّمُهُ».

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «الْيَقِينُ أَنْ لَا تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَلَا تَحْمَدَ أَحَدًا عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَلَا تَلُمْ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ الرِّزْقَ لَا يَسُوقُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِقِسْطِهِ وَعِلْمِهِ وَحِلْمِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَجَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَمْ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ؟ قَالَ: أَرْبَعُ أَصَابِعٍ. قَالَ: بَيِّنْ، قَالَ: الْيَقِينُ مَا رَأَتْهُ عَيْنُكَ وَالْإِيمَانُ مَا سَمِعَتْهُ أُذُنُكَ وَصَدَّقَتْ بِهِ.

٧٢. - ابن رجب الحنبلي، فتح الباري، ج١٣، ١. وانظر كتاب اليقين لابن أبي الدنيا ففيه فوائد جيدة.

وحين تستقر كل تلك المعاني في النفس سيصل الإنسان لمرحلة الهداية: ﴿أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾. وطريق الهداية طريق ممهد ميسر للفلاح والفوز في الدنيا وفي الآخرة، ولذا جاء في نهاية الآية ﴿وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. قطعًا هم فائزون، فائزون برضى الله -عَزَّ وَجَلَّ- في الدنيا وفي الآخرة. فائزون بالسكينة والطمأنينة التي يفتقر إليها العالم اليوم.

فالمؤمن الذي يسير على النهج الذي تضعه سورة البقرة، تتحقق معاني الأمن والأمان في حياته والسكينة والطمأنينة التي لا تشترى بالأشياء المادية، هي تُمنح وتُعطى من الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ لأن تلك القلوب المؤمنة أصبحت مؤهلة لذلك العطاء بإقدامها وبانتفاعها وتطبيقها لتلك الآيات العظيمة.

ثم إن الآيات تنتقل بعد ذلك في سورة البقرة لتتحدث عن نموذج آخر من الناس، نموذج لا يغني عنهم الإنذار الموجود في آيات الله العظيمة، لا تغني عنهم قراءة سورة البقرة أو الاستماع لها؛ لأن القلوب التي تتلقى تلك الآيات ما عادت محلاً للانتفاع بها ولذلك جاءت الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦، ٧] .

صنف من البشر خُتم وأُغلق على قلبه جزاء بما فعل. سدّ كل منافذ الإدراك من قلب وسمع وبصر أمام الاستماع والتلقي لآيات ذلك الكتاب العظيم، ولذلك هذا الصنف من البشر القرآن عليهم عمى، لو قرأ أو

استمع إلى القرآن لا يغني عنه ذلك شيئًا؛ لأن المحل قد أُغلق، لأن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك قد أُغلق دون تلقي آيات القرآن العظيم، هذا صنف من الناس لا تنفع معه آيات القرآن العظيم.[73]

وهناك صنف ثالث تقدمه سورة البقرة؛ ليتعلم منها القارئ الكيفية التي ينبغي أن يتلقى بها آيات القرآن العظيم كيفية معينة، إنه قلبٌ مؤهّل لأن ينتفع بالهداية الموجودة في هذه الآيات.

يقول تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) [البقرة: ٨، ٩].

صنف يعتبر قضية الإيمان مجرد ادعاء يدعيه، لا ينتبه إلى أن الإيمان قضية قلبية تبدأ بالقلب أولًا وتنتهي بالقلب كذلك، لا يدرك أن الإيمان علاقة بين الإنسان وربه، لا يدرك أن «الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل».[74]

---

٧٣. قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٨٣-٥٨٦): الكافر ما دام كافرًا لا يقبل الحق سواء أنذر أم لم ينذر ولا يؤمن ما دام كذلك؛ لأن على قلبه وسمعه وبصره موانع تصد عن الفهم والقبول. وهكذا حال من غلب عليه هواه ... فبين حال الكافر المصر على كفره أن الإنذار لا ينفعه للحجب التي على قلبه وسمعه وبصره.

٧٤. هذا من قول الحسن البصري رحمه الله يروى عنه من غير وجه. انظر: المصنف لابن أبي شيبة - ط١ مكتبة الرشد (١٦٣/٦)، الإبانة الكبرى لابن بطة - ط دار الراية - الرياض (٨٠٥/٢)، شعب الإيمان للبيهقي - ط١ مكتبة الرشد (١٥٨/١).

يعتقد أن مجرد الادعاء باللسان كاف للدخول في صفوف المؤمنين، وقد يكون هذا فعلا حاصلا أمام الناس، ولكنه قطعًا لا يغني عن هؤلاء شيئًا في العلاقة بينهم وبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - ولذلك هذا الادعاء يولّد في قلوبهم نوعًا من أنواع الأمراض: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] .

هذا الادعاء ولّد في قلوبهم مرض النفاق؛ مرض البعد عن الله - عَزَّ وَجَلَّ - مرض جعلهم ينظرون إلى الحقائق الماثلة أمام أعينهم على أنها أشياء مغلوطة مكذوبة، هو يقوم بالفساد ولكن لا يراه فسادًا ولا إفسادًا، بل يراه صلاحًا، يراه خيرًا :﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. [البقرة: ١١، ١٢] .

وهنا تتضح فائدة الهداية في أن يجعل الله للإنسان نورًا في قلبه، نورًا في بصره، نورًا في حياته، نورًا يهتدي به، نورًا يرى به الحقائق كما هي في الواقع، نورًا لا يجعله يرى الخير شرًا أو يرى الشر خيرًا، نورًا لا يجعله يرى الفساد إصلاحًا وإن أجمع الناس على ذلك، نورًا يجعله يرى الحق حقًا والباطل باطلاً.

هذا الصنف من الناس في تعامله مع القرآن الكريم يقارب الصنف الثاني الذي جاءت الآيات على ذكره يستمع لدعوات المؤمنين بالإيمان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ١٣].

ينظرون إلى الأمور بسطحية عجيبة، ينظرون إلى قضية الإيمان على حسب الناس الذين يؤمنون بها ويتبعونها، فحين يرون أن أتباع ذلك الدين وذلك الإيمان - كما كان في عهد النبي ﷺ في بداية العهد المكي - الغالب عليهم أنهم من الضعفاء والعبيد، حكموا على الدين بعدم الصلاحية.

وقد قادتهم تلك السطحية إلى النظر في الدين من خلال النظر في درجة الأتباع ومكانتهم المادية والاجتماعية. أما المؤمن الذي يهتدي بنور آيات الكتاب العظيم لا يرى الأمور بسطحية، وإنما ينظر إلى الأمور بحقائقها بعيدا عن تلك الحسابات المادية.

ولذلك هؤلاء المنافقون لم تصل بهم تلك الرؤية السطحية إلى حقيقة الإيمان، وإنما ابتعدت بهم تمامًا: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. [البقرة: ١٤، ١٥] .

كل تلك الأصناف - عدا ذاك الصنف الأول - الذي اهتدى بآيات الكتاب العظيم من المتقين، دخلوا في صفقة خاسرة: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] أعظم خسارة للإنسان في الدنيا والآخرة أن يشتري الضلالة بالهدى.

والحديث عن الهدى في سورة البقرة حديث متواصل يضرب الله له الأمثال ليقرب المعاني غير المحسوسة من خلال الأمثال المحسوسة

التي يراها الناس في واقعهم: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا). [البقرة: ١٧] (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ) [البقرة: ١٩].

والكلام الوارد في كل تلك الأمثال، جاء عن الغيث والنور والبرق؛ لصلتها بقضية الهداية، ولذلك جاء في ختام الآيات: (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [البقرة: ٢٠].

فالنور موجود في آيات هذا القرآن العظيم، لكن لا يراه من أن أغلق عينيه، فإن الإنسان إن أغلق المنافذ أمام ذلك النور فأنّى لنور الهداية أن ينفذ إلى قلب سُدّ وخُتم عليه؟!!

ثم تنتقل آيات سورة البقرة العظيمة إلى دعوة مفتوحة لكل الناس :(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: ٢١] .

وهو نداء محبب من الله سبحانه لخلقه، يذكرهم بأنه ربٌ سبحانه يربيهم بالعطاء بكل صوره، فكما رباهم وغذّى أبدانهم، فهو يربيهم بالمنهج الذي يغذي أرواحهم وقلوبهم، فيدعوهم لعبادته وهو غني عن تلك العبادة «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

وهذه التقوى لا تتحقق إلا بهذه الهداية التي هي أعظم مقاصد هذه السورة، ولكي تتحقق فلابد من استجابة من قبل الخلق لها بالعباد ،ة بكل

أشكالها من صلاة وصيام وزكاة وشعائر وواجبات والتزامات في المجتمع .. إلخ لتحقيق واقع التقوى في الحياة وتحقيق ثمار الهداية العظيمة.

ثم تذّكر الآيات العظيمة بنِّعم الله عَزَّ وَجَلَّ: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) [البقرة: ٢٢]، لتوقظ الفطرة، تلك الفطرة التي يدمغها الإنسان أحيانًا ويُسكت صوتها ويخرسه ببعده عن الله سبحانه.

ذلك البعد الذي قد يحصل من خلال اعتياده على تلك النعم ووجودها في حياته. فيعتاد على رؤية السماء ورؤية الأرض مستقرة، ورؤية كل ما حوله من النعم، وبمرور الوقت يألف وجودها، فلا تعد عنصر تحريك لدواعي الإيمان في قلبه.

هذا النوع من النظر في آيات الكون إذا صح للإنسان أن ينظر فيها نظرة غير معتادة وغير مألوفة لا بد أن توقظ في نفسه معاني التوحيد (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة: ٢٢].

والقرآن يهز الفطرة لتستيقظ فتدرك أن الله واحد، واحدٌ في خلقه، واحدٌ في ملكه، واحدٌ في قدرته لا شريك له.

ثم إن القرآن يتحداهم بتشكيكهم في هذا الكتاب العظيم، بأن يأتوا بسورة من مثله، وأن يقوموا بدعوة جماعية وتضافر في الجهود لأجل تحقيق ذلك. (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة: ٢٣].

القرآن يتحدى غرور الإنسان وعناد الإنسان وتكبره حين يسير بعيدًا عن منهج الهداية، يتحدى غرور الإنسان الكافر المكابر الذي يجادل في الله بغير علم، يجادل في آيات هذا القرآن العظيم بغير علم فتكون النتيجة قطعًا هي الخسارة: (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) [البقرة: ٢٤].

وخسارة الإنسان المكذب بالقرآن ليست فقط خسارة في الآخرة، بل خسارة في الدنيا؛ خسارة الضلال خسارة الضياع. إنها الضريبة التي يدفعها من يمشي بعيدا عن نور القرآن. وهي ضريبة باهظة لا يدرك حقيقتها إلا ذلك الإنسان الذي يتخبط في ظلمات الضلال والبعد عن الله عَزَّ وَجَلَّ. وفي ذات الوقت وكطبيعة للقرآن العظيم تأتي البشارة في المقابل للمؤمنين الذين استطاعوا أن يحولوا آيات الكتاب إلى عملٍ صالح.

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) [البقرة: ٢٥].

ثم تأتي الآيات في سورة البقرة - آية بعد آية - بالأمثال المختلفة؛ لتبين أن ضرب الأمثال في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ - وهو كثير - إنما هو لبيان الحقائق وتقريبها.

والمثل كغيره من آيات القرآن العظيمة يهتدي به المؤمن، ولكن الفاسق والخارج والبعيد عن آيات الكتاب العظيم لا يجد في تلك

الآيات والأمثلة أيّ نوع من أنواع الهداية، لا يجد إلا المزيد من الضلال (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) [البقرة: ٢٦]. ذلك الإنسان الذي يرتضي أن ينقض العهد بينه وبين الله عَزَّ وَجَلَّ.

وسورة البقرة تتحدث عن العهد، تتحدث عن الميثاق طويلًا في آيات متعددة، الميثاق مع بني إسرائيل، الميثاق مع الإنسان، الميثاق مع آدم - عليه السلام - أبو البشر؛ لتذكر الإنسان بأن وجوده على هذه الأرض ما كان نوعًا من العبث. (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) [المؤمنون: ١١٥].

وأن خلقه بمثابة عهد بينه وبين خالقه سبحانه، ذلك الخلق ستتحدث عنه الآيات التالية في قصة الخليقة ونزول آدم عليه السلام على الأرض، فالإنسان الذي يقطع الميثاق والعهد الذي بينه وبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - فلا التزام ولا استهداء بآيات كتاب الله العظيم هو الخاسر الحقيقي: (وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [البقرة: ٢٧].

كل أشكال الفساد والإفساد التي يقوم بها المفسدون في الأرض، تنصب الخسارة عليهم بالدرجة الأولى وليس على الآخرين، فالخاسر الأكبر في تلك المعركة هو الإنسان المفسد في حد ذاته.

ثم تنتقل الآيات العظيمة في سورة البقرة بشكلٍ آخر يستنكر على الكافرين كفرهم: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [البقرة: ٢٨]

«كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ»، الله سبحانه وتعالى يُكفر به، ونعمه على الإنسان نازلة بالليل والنهار ؟!. وأعتى الكفار والمشركين - من فرعون وغيره - ما استطاع أن يدفع عبر تاريخ البشرية عن نفسه الموت، فكيف يكفر الإنسان بالله وهو الذي أحياه ثم يميته ثم هو قادر على أن يبعثه بعد الموت ثم إليه يرجع الخلق جميعا؟!

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ) هنا الآيات تشكل للإنسان لونًا جديدًا من ألوان الحوار مع نفسه، توقظ ما نام من الفطرة لتدرك المعاني العظيمة: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) [البقرة: ٢٩].

فالآيات في سورة البقرة تخاطب بأساليب متعددة ومتنوعة؛ لتستلّ كل ما يمكن أن يوقظ فيه من أساليب الهداية، وتحاول الآيات أن تعيد من كان في قلبه ذرة من حياة إلى جادة الصواب.

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [البقرة: ٢٩].

فتلفت النظر إلى الحكمة من الخلق العظيم الذي يسير وفق ذلك النظام المحكم المتقن لأجل غاية عظيمة حددتها الآيات، إنها قصة

الخليقة: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) [البقرة: ٣٠].

فالصلة واضحة بين الهداية وبين القصة الأولى في سورة البقرة؛ قصة الخليقة. الآيات تحدد وتوقظ الإنسان من البداية، ليتساءل عن غاية وجوده على الأرض والدور الذي يقوم به.

أسئلة مشروعة لا يمكن لعاقل يمتلك من وسائل الإدراك والعقل نصيبًا إلا ويطرحها على ذاته بعيدًا عن التوهم والخرافات والتضليل.

والخلافة أمانة خلقه ووجوده عبدًا لربوبية الله سبحانه؛ اضطرارًا، وعبدًا لإلوهيته؛ اختيارًا ليعمر الأرض لا ليفسدها وفق المنهج الذي أنزل إليه من خالقه الذي كلّفه بحمل هذه الأمانة: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ).

إذاً، الكتاب والمنهج وسورة البقرة وآياتها وغيرها من السور في كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - تشكل منهج الإنسان الخليفة.

ولا يمكن أن يتوصل الإنسان إلى ذلك المنهج بعيدًا عن العلم، لا يمكن أن يتوصل إليه عن طريق الخرافة والجهل والتكهن، فاقتضت رحمة الخالق وحكمته أن علّم آدم: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة: ٣١].

فالحوار الدائر بين الله سبحانه وتعالى وبين الملائكة في قصة خلق آدم – عليه السلام – حدد المهمة وحدد المنهجَ، قال سبحانه: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]، وهنا اتضحت معالم القضية أمام الملائكة وأمام الإنسان الذي يقرأ في هذا الكتاب العظيم.

وهنا أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بأن يسجدوا لآدم، والسجود هنا ليس سجود عبادة؛ وإنما سجود تشريف وتكليف من قبل الخالق الذي أمر، وليس من أجل آدم عليه السلام.[75] وإبليس لم يدرك هذا المعنى حين نظر إلى آدم و تكوينه دون اهتمام بقضية الأمر الذي جاء من رب آدم ورب الملائكة أجمعين.

وهنا يتضح ضلال إبليس الذي لم ينظر إلى الأمر على أنه أمر رباني، عليه الامتثال له وطاعته، بل نظر إلى جزئيات وتفاصيل تتعلق بنظرته الدونية لآدم، فأعمته عن ذلك ودفعت به إلى التمرد والعصيان.

٧٥. قال القرطبي في تفسيره – ط٢ دار الكتب المصرية (١/ ٢٩٣): واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة، فقال الجمهور: كان هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد في الصلاة، لأنه الظاهر من السجود في العرف والشرع، وعلى هذا قيل: كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله، وطاعة لله تعالى، وكان آدم كالقبلة لنا. ومعنى» لآدم«: إلى آدم، كما يقال صلى للقبلة، أي إلى القبلة. وقال قوم: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مبقى على أصل اللغة، فهو من التذلل والانقياد، أي اخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل.

ووجّه الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام إلى أهمية الالتزام بالأمر والتوقف عنده وعدم تجاوز الحدود: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) [البقرة: ٣٥] اِفعل ولا تفعل، اسكن وكلا منها رغدًا ولا تقربا هذه الشجرة.

أمر ونهي تمامًا ككل آيات سورة البقرة والقرآن العظيم، افعل ولا تفعل. وقدّمت الآيات نموذج آدم عليه السلام وحواء حين تجاوزا ذلك المنهج :(فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا..) [البقرة: ٣٦] .

وبخلاف ما ورد في كتب التوراة والإنجيل من إلحاق الخطيئة بحواء واشتراكها مع الشيطان في إضلال آدم، يأتي القرآن العظيم مبينا بكلمة: «فَأَزَلَّهُمَا»، أي آدم وحواء، كلاهما أخطأ ،كلاهما وقع في الزلل، كلاهما لم يقف عند الأمر الإلهي من الله عَزَّ وَجَلَّ: (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) [البقرة: ٣٦]. والإزلال: جعل الغير زالا أي قائما به الزلل وهو كالزلق أن تسير الرجلان على الأرض بدون اختيار لارتخاء الأرض بطين ونحوه.[76]

والمغزى الأساس من القصة الأولى أن تعاليم القرآن التي وردت في السورة - وفي سور أخرى - لا يقف الإنسان منها موقف المتفرج ولا

٧٦. - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، مسألة فأزلهما الشيطان.

موقف المخالِف، وعليه أن يستحضر العواقب والنتائج المترتبة على مخالفة المنهج والأمر الإلهي.

ولو تدبّر القارئ فيما يحدث من كوارث و مشاكل و مصائب، لتبينّ أنها نتيجة واضحة لمخالفات صادرة من البشر لذلك المنهج الذي أنزله الله سبحانه وتعالى.

من هنا كان على الإنسان أن يبادر بالتوبة والتراجع عن الخطأ وعدم الاحتجاج بشيء لتبرير أخطائه وزلاته. ولذلك جاءت الآيات تتحدث عن التوبة (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [البقرة: ٣٧].

فالطبيعة البشرية تشي بقابليته لأن يزلّ ويخالف، وقد يبتعد عن منهج الله، ومع تلك القابلية من رحمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - فتح أمامه وله باب التوبة[77] «فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

والرّب الذي تاب على آدم هو الرّب الذي لم يزل فاتحًا أبواب التوبة لخلقه جميعًا، فكلما أخطأ العبد، عالج الخطأ بخطوة صحيحة وهي التوبة والتراجع.

٧٧. دلت النصوص الشرعية على قبول توبة العبد ما لم يعاين ملك الموت أو تخرج الشمس من مغربها. ففي الحديث عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» رواه أحمد برقم (٦١٦٠) ط الرسالة، الترمذي (٣٥٣٧)، ابن ماجه (٤٢٥٣) وغيرهم وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٨٦/١). قال ابن القيم في مدارج السالكين - ط٣ دار الكتاب العربي - بيروت (٢٩٤/١-٢٩٥): وأما التوبة من قريب فجمهور المفسرين على أنها التوبة قبل المعاينة.

وهنا يتضح الفارق الجوهري بين ما صدر عن آدم عليه السلام حين أخطأ وبين ما صدر من إبليس؛ فآدم وإبليس كلاهما أخطأ، ولكن الفارق أن إبليس أصرّ على خطئه ولم يتراجع ويعترف بالذنب، ولم يتب فبقي على ضلاله، أما آدم أخطأ فاعترف بذنبه وتراجع عن الخطأ وتاب عن ذلك الخطأ.

ومنذ تلك اللحظة بدأ النزول على هذه الأرض (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [البقرة: ٣٨] .

وحين نزل آدم وبدأت الحياة البشرية على هذه الأرض لم يترك الله عَزَّ وَجَلَّ آدم بدون منهج، قال: «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ».

فالمنهج سيهديه في الدنيا وفي الآخرة إلى حياة خالية من الخوف والحزن، خالية من الاكتئاب والقلق والمتاعب النفسية المتزايدة، التي يعاني منها إنسان العصر الذي لم يدرك أبسط جزئيات هذه المعضلة التي يعيشها ويعاني منها، معضلة البعد عن المنهج، قال:(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة: ٣٩].

ثم تبدأ الآيات – من الآية ٣٩ وحتى نهاية الجزء الأول من سورة البقرة تقريبًا – في تقديم نموذج حيّ؛ نموذج بشري لأمة من الأمم ركزت عليها

سورة البقرة العظيمة. وأوضحت جوانب مختلفة ومواقف من حياة تلك الأمة في تعاملها مع المنهج الرّباني الذي أنزله الله - سبحانه وتعالى - إليها وأرسله إليها عبر رسلها وأنبيائها؛ إنها أمة بني إسرائيل، وذلك مباشرة بعد قصة آدم.

سورة البقرة تقدّم المواقف المختلفة لبني إسرائيل وكيفية تعاملهم مع المنهج الرّباني ومع الميثاق والعهد الذي كان بينهم كبشر وأمة، أُنزل عليها كتاب وأُنزل إليها رسل، وبين الله - سبحانه وتعالى -.

وجاءت مواقفهم في سياق التعلّم والاعتبار من المواقف التي وقعت في بني إسرائيل؛ لتجنب تكرار ما حدث والسقوط في الزلات والأخطاء والعثرات مرة تلو مرة في الأمم.

وهنا يتضح منهج القرآن في التعامل مع الأحداث التاريخية، فهو لا يعرضه لمجرد أنه تاريخ، ولكن لأنه درس وحقل للتعلم والتجربة واكتساب الخبرة والعظة. فمن لا يحسن قراءة الماضي لا يمكن له أن يتعلم ويعرف كيف يعيش الواقع أو يستشرف المستقبل.

قصة بني إسرائيل حاضرة بوضوح في مواقف متنوعة في سورة البقرة العظيمة، مؤكدةً أنّ كل ما يحدث للأمم وللأقوام، إنما هو نتيجة طبيعية تلقائية لكيفية تعاطي تلك الأمم مع المنهج الذي أُنزل من ربها سبحانه وتعالى.

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ..) [البقرة: ٤٠]، وأعظم نعمة ينعم الله بها على الإنسان - ونعمه كثيرة لا تحصى - نعمة أن ينزل عليه منهجًا، أن يعطيه منهجًا، يقول له: افعل ولا تفعل.

إنه المنهج الذي أخذ الله سبحانه عليهم أن يقوموا به ويتحملوا أمانة التطبيق لتعاليمه في واقعهم: (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) [البقرة: ٤٠].

وتأتي الوصية العظيمة، والوصية تحمل الكثير من المعاني لبني إسرائيل، أن رسالات الأنبياء من عهد آدم إلى خاتمة الرسالات - رسالة محمد ﷺ - رسالة واحدة تدعو إلى التوحيد وتأمر بالخير والعمل الصالح.

وهي رسالة غير مجزأة ولا تعمل حسابًا لقوميات وعنصريات، لا تعمل حسابًا لعطاءات الدنيا المختلفة؛ لأنها رسالة إيمانية؛ رسالة التزام مع الله عَزَّ وَجَلَّ: (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ) [البقرة: ٤١].

رسالة النبي - ﷺ - وصية الله عَزَّ وَجَلَّ لتلك الأمة - أمة بني إسرائيل - أن تؤمن بالرسالة التي جاء بها النبي - ﷺ -؛ لأنها تتمة لرسالة موسى وعيسى - عليهما السلام - وجميع من سبقهم من الأنبياء.

فالرسالة واحدة لا تفرّق، لأن ما يفرّق ليس الدين والرسالات، وإنما ما يفرّق بين البشر الأهواء والأطماع والحسابات الشخصية المادية، ولذا

جاء كثيرًا هذا المعنى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١].

فالكارثة الكبرى حين يتحول الدين إلى متاجرة من قِبل من يُعرف بالأحبار والرهبان في بني إسرائيل وغيرهم، حين باعوا واشتروا الدين لأجل مصالحهم الشخصية: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٧٤] ويتكرر ذلك التحذير كثيرا في السورة.

ثم تتوالى الصور لتلك المتاجرة بالدين في السورة؛ فتارة يلبسون الحق بالباطل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢] .

والخطاب في سورة البقرة يأتي لبني إسرائيل، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فالخطاب موجّه للمسلمين أيضا.

فالحق لا ينبغي أن يُكتم حين يكون الحق على الفرد ويظهره حين يكون له، فالحق لا يخضع للحسابات الشخصية المادية[78]، فالحق لا يخضع لأهواء شخصية.

وهنا تبرز أهمية الربط بين تدبر القرآن وبين الواقع المعاش، فالمطلوب من الإنسان أن يصحح ويعدّل وفق المنهج الرّباني في كتاب الله.

٧٨. قال سبحانه: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٤٨ – ٥٠].

ولعل واحدًا من أعظم أسباب معاناة الكثيرين اليوم، أنّ الإنسان المعاصر أصبح يتاجر ويبيع ويشتري بالحق والباطل!.

ولذا يوجد في المجتمع من يحق الحق حين يكون الحق إلى جانبه ولصالح تحقيق أغراضه وأطماعه الشخصية، وحين يكون الحق مخالفًا لأهواء نفسه ولمصالحه الشخصية يسارع بكتمانه ويسارع بلبس الحق بالباطل، وهو ما تحذّر منه هذه الآيات العظيمة.

وتستمر الآيات في تقديم معالم في طريق الهداية، و في كيفية عرض وتقديم معالم المنهج الرّباني في سياق الحديث عن بني إسرائيل، وتستمر الوصايا بـ (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) [البقرة: ٤٣]

والأمر بالعبادة من صلاة و زكاة يأتي في سياق الحديث عن التعامل في عرض وتقديم الدين والمنهج؛ لأن كل العبادات جاءت لترتقي بالنفوس، وتخلّصها من شوائبها، جاءت لتكون عونًا للإنسان على الارتقاء بسلوكياته وطريقة تعامله مع الأحداث: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)

ثم في الآية التي تليها مباشرة يعيب على من يأمر بالمعروف وينسى نفسه، وينهى عن المنكر ويأتيه، وهي وصية تبدو في إطار من يتصدى للأمر بالمعروف والإصلاح والنهي عن الفساد. (أَتَأْمُرُونَ

النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].[79]

وهذا التوبيخ والتقريع- وإن كان خطابًا لبني إسرائيل- إلا أنه عام؛ من حيث المعنى لكل واعظ يأمر ولا يأتمر، ويزجر ولا ينزجر، ينادي الناس البدار البدار، ويرضى لنفسه التخلف والبوار، ويدعو الخلق إلى الحق، وينفر عنه، ويطالب العوام بالحقائق ولا يُشَم ريحها منه. وهذا هو الذي يُبْدَأ بعذابه قبل عبدة الأوثان، ويَعظِم ما يلقى؛ لوفور تقصيره يوم لا حاكم إلا الملك الديان.[80]

ومرض الازدواجية مرض يصيب الكثير من رجالات الدين، وقد أصاب الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى ويصيب غيرهم كذلك.

---

٧٩. وفي الحديث المتفق عليه – البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩) واللفظ له – عن أسامة بن زيد – رضي الله عنهما – قال: سمعت رسول الله يقول: (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان، ما لك؟! ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أسري بي، مررت برجال تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟!» رواه أحمد (١٣٤٢١)، وابن حبان في صحيحه (٥٣)، وابن أبي شيبة (٣٧٧٣١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٨٥/١).

٨٠. – الألوسي في تفسيره روح المعاني – ط١ دار الكتب العلمية (١/ ٢٥٠)

وهو يجعل الإنسان يتصرف بعيدًا عن نفسه لا يرى العيوب الموجودة فيه، وإنما ينظر إلى عيوب الآخرين ويضخمها وكأنه قد أُعطي حصانة ضدها.

والمنهج الرباني يقيم الحجة على أتباعه؛ فالإنسان حين يتعلم شيئًا من المنهج يصبح ذلك التعلم حجة عليه، وعليه أن يمارس ما يتعلمه ويعلمه، ويخرج به من الإطار النظري إلى الإطار العملي.

وتقدّم الآيات العظيمة علاجًا ناجعًا للتخلص من الازدواجية في الحياة ليصبح التوازن والتساوي بين ما يظهره الإنسان علانية أمام الآخرين وبين ما يسرّه ويبطنه في واقعه وتعامله. كيف يتحقق التناغم والتناسق بين السر والعلن، كيف يصبح العلن انعكاسًا لما يخفيه الإنسان في سرّه من نقاوة وصفاء، المنهج الرّباني يجيب ،: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

إنه الصبر على النفس والتحلي به والترقي بها؛ فالأمر يحتاج إلى صبر على الطاعة، والتحلي بالصفات الحسنة والأخلاق الطيبة من أعلى درجات الصبر، ولذلك جاءت التوصية به. والصبر لا ينفك عن الصلاة.

من هنا كانت الصلاة في حياة النبي الكريم ﷺ ليست مجرد أداء فريضة، ولا عبئًا على عاتقه يريد أن يتخلص منه.

كان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[81]، كان ينادي على بلال فيقول: أرحنا بها يا بلال.

فكيف تمكن النبي ﷺ من تحويل الصلاة إلى مفزع وملجأ وكهف يأوي إليه حين تأتي عليه المحن!

باستحضار الخشوع في الصلاة وممارسته الذي هو روح الصلاة ولبّها.

وهذا يتحصل باليقين بلقاء الله - سبحانه وتعالى - (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) [البقرة: ٤٦]. الصلاة لقاء بين العبد وربه، يناجي العبد ربه - عَزَّ وَجَلَّ - وهو يخاطبه في تلاوته وركوعه وسجوده. وهذا النوع من الصلاة الذي يرتقي بأخلاقيات الإنسان ويرتقي بسلوكياته.

فالصلاة هي أعظم صلة تربط بيننا وبين الخالق سبحانه، روحها الخشوع. وثمرة الصلاة الخاشعة السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة. قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ). سورة المؤمنون: ١-٢.

ومن محن هذا العصر، فقدان الخشوع في الصلاة، كما قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: (أول ما تفقدون من دينكم الخشوع وآخر ما تفقدون

٨١. يشير إلى الحديث الذي رواه أحمد برقم (٢٣٢٩٩) ط الرسالة، أبو داود (١٣١٩)، وغيرهما عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى». والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٨٥٨/٢).

من دينكم الصلاة، ورب مصل لا خير فيه، ويوشك أن تدخل المسجد فلا ترى فيهم خاشعا).[82]

والخشوع لا يكون إلا في القلب أولا، المتصل بقنوات وأدوات تصب فيه متمثلة في العقل والسمع والبصر؛ فهذه القنوات تستقبل عشرات المسموعات والصور والكلمات، فهي لا تبقى فارغة بل تمتلئ بخليط معقد من الرواسب التلقائية ومن الأخبار والأحداث وكل ما تحويه البيئة الثقافية والاجتماعية والطبيعية التي يعيش فيها الإنسان.

من هنا كان لابد من مِران وتدريب طويل للتنبّه إلى ما يدخل إلى هذه القنوات التي تصب في القلب مباشرة، والتي بناء عليها يحصل الإنسان على الخشوع أو لا يحصل. وهذا النوع من الصلاة هو الذي يرتقي بأخلاقيات الانسان المسلم و بسلوكياته، وتبني فيه تلك الأخلاقيات سورةُ البقرة التي تحثّ على صلاة المؤمنين الخاشعين؛ صلاة أولئك الذين يرون في هذه الصلاة لقاءً بين العبد وربه. يأتون إلى الصلاة بهمومهم بأحزانهم بآلامهم وباهتماماتهم ويضعونها بين يديّ خالقهم سبحانه وتعالى مستحضرين الاستعانة به عزَّ وجلَّ، ممارسين لعمل الاستعانة والتي هي من أعظم أعمال القلوب. ولا يستعان بأحد أعظم من الله سبحانه وتعالى.

---

٨٢. - مصنف ابن أبي شيبة، ٧/ ١٤٠، برقم ٣٤٨٠٨

وهذه المعاني تولّدها سورة البقرة العظيمة لتأتي بالوصية من جديد: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ .

والتذكير بالنعمة من أساليب القرآن العظيم؛ لإقبال القلوب على الطاعات بالشكر والحمد ومراعاة أوامر الله سبحانه في الواقع. والنعمة شاملة لكل ما أنعم الله به عليهم كما أنعم على غيرهم ممن خلق، وما أنعم عليهم من إنزال الكتب وإرسال الأنبياء والرسل، والتذكير بالتفضيل القائم على تلقي المنهج والتمسك به ليس إلا.

ذلك التذكر الذي لا ينفك عن تذكر الآخرة؛ اليوم الذي يلاقي فيه الله عزّ وجّل، و الذي سيجد فيه ما قدّم من عمل.

وتواصل الآيات الحديث عن مواقف وأحداث مختلفة حدثت لبني اسرائيل وتبدأ بواحد من أهمها متمثلا في النجاة من ظلم فرعون.

وبنو إسرائيل أمة، عاشت في حالة اضطهاد وعذاب شديد من قبل فرعون، وهذه الحالة من الاضطهاد والتعذيب التي عاشوها والتي أنقذهم منها الله عزّ وجّل ونجاهم منها، هي على غير عمل قاموا به أو قدموه؛ فكانت تلك النعمة مدعاة بأن يذكّرهم الله عزّ وجّل بها ليستخرج منهم القدرة على اتباع المنهج الرباني الذي أنزله إليهم.

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ. وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)) .

فالمؤمن لا ينبغي له، وهو يعيش في حالة ممارسة المنهج وفي حالة النعم، أن ينسى ما مرّ به من ظروف صعبة قاسية. والتذكير بالمواقف الصعبة ليس لأجل يعيش الإنسان مرارة الموقف مرات ومرات، ولكن ليستحضر نعمة الله عليه، فيحسن التعامل معها بالطاعة والخضوع لمن نجّاه.

وما بين الكلام عن النعمة العظيمة التي امتن بها الله عليهم، جاء الحديث عن موقف بني إسرائيل؛ فبعد أن خلّصهم ربهم ونجاهم من بطش فرعون وقومه، ما قابلوا النعمة بالحمد والشكر للرب الذي أنقذ ونجّى، بل بالنكران والجحود: (ثمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ).

تراجع القوم عن التوحيد وانتكسوا بالشرك بالله عزّ وجّل واتخاذ عبادة العجل من دون الله، فكان ذلك أعظم الظلم الذي وقعوا فيه. وكان ذلك الموقف من أوائل المواقف التي وقفها بنو إسرائيل ضد نبيهم عليه

السلام. إلا أن الله سبحانه وتعالى أعطاهم فرصة تلو أخرى ليتوب عليهم ويعفو عنهم، وتلك نعمة أخرى.

ثم تذّكرهم الآيات بنعمة المنهج: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)﴾؛ ذاك المنهج الرباني الذي وصفه القرآن في مواضع أخرى بالنور والهدى. فكلها تعاليم سماوية تقيم للناس حياتهم ومعاشهم وفق ما أمر الله سبحانه. إلا أن القوم غلبت عليهم شقوتهم وتمادوا في الطلبات المادية من موسى عليه السلام التي تعكس كثافة الجوانب الحسية فيهم وضعف الإيمان بالغيب في قلوبهم؛ فالإيمان بالغيب ركيزة التمسك بالتعاليم والمنهج، كما هو أساس العلاقة بين الإنسان وخالقه الذي لا يراه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾.

وهنا ظهرت أزمة العجل التي تعكس كثافة الحسية والتجسيد في عقولهم، تلك الأمراض التي ازدادت شدتها من خلال طول صحبتهم

وعشرتهم لآل فرعون، ومعاينتهم لمظاهر المادة وتمركزها في حياتهم. الأمر الذي يؤكد أهمية الإصلاح والجهر بالحق وإعلاء كلمته في الواقع الإنساني، إذ أن طول الرقاد والصمت على الباطل، يجعل الفرد والمجتمع في أسر الشهوات واستمراء الخطأ والرضا به.

وتتوالى فرص التوبة عليهم لتوضّح للمؤمنين طرفًا من حلمه سبحانه على عباده وإمهاله لهم ليتراجعوا عن مواقفهم ويصححوا سلوكياتهم ويغيروا من طبائعهم.

و هكذا الإنسان في هذه الحياة الدنيا يُعطى فرصًا متعددة ؛كي يتراجع عن الأخطاء ويقيل النفس من العثرات وينهض بها من كبوتها، فالتعثر والتخبط مما يتعرض له البشر دائما.

إلا أن الإشكالية التي يحكيها القرآن العظيم، هي وقوعهم في أسر الشهوات المادية والحسية حدًا لم يتمكنوا من التحرر من قيوده.

من هنا جاء التركيز على التوحيد وتنقيته، إذ أن من أعظم عطاءات التوحيد أنه يحرر الإنسان من أسر الشهوات المادية، والوقوع في سلطان النزوات والشهوات من مالٍ، وجاهٍ، ولهث وراءها.

وتبقى المواقف التي عرضتها سورة البقرة عنهم تشهد بعجزهم عن الخلاص والانفكاك من أسر العبودية للماديات؛ فعلى الرغم من نعم الله عليهم بتخليصهم من أسر فرعون، إلا أنهم لم يتمكنوا من مجاهدة

أنفسهم للتوصل إلى التحرر المعنوي وفك أسر قلوبهم من الشهوات المختلفة.

(وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(٥٩)).

فقد أمرهم الله سبحانه بالمبادرة بالتكفير عن ذنوبهم وأخطائهم بطاعة الله ودخول الأرض التي أمرهم - بصرف النظر عن مكانها -، إلا أنهم تمادوا في ذلك ولم يمتثلوا لما أمر الله سبحانه وقالوا غير ما أمرهم به. كل ذلك يعكس لجاجتهم في قبول الحق والإذعان لأمر الله وطاعته.

(وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)).

فالآيات تتحدث عنهم وهم يطلبون من موسى عليه السلام أن يستسقي لهم الله - عَزَّ وَجَلَّ - وقد فعل موسى عليه السلام، وربي سبحانه وتعالى قدّم لهم معجزة مادية عاينوها بأعينهم، فقد رأوا الماء وهو يتفجر بين أيديهم، ثم جاءهم الأمر الإلهي: (كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ). ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لم يتوقف بنو إسرائيل

عند ذاك الأمر الإلهي والمنهج الرّباني، وإنما وقفوا عند شيء آخر، شيء مادي، ووقعوا في أسر الشهوات من جديد.

ذاك أن التوحيد الذي كان في قلوبهم لم يلامس شغاف القلوب توحيد ضعيف، ما استطاع أن يحرّرهم التحرر الحقيقي من سلطة الشهوات المادية، فكانت النتيجة أن قالوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: ٦١].

لم ينظروا إلى عطاء الحرية وتنسّم الحرية بكل معانيها، قدر ما نظروا إلى الفُتات وتشوّقت أنفسهم وتطلّعت إلى ما كانوا يأكلون وهم عبيد تحت ضيم فرعون وعبوديته.

الآيات تعلّمنا أن الحرية لها ثمن، وأن الحرية حين تُعطى وتوهب لأمة من الأمم، ينبغي لتلك الأمة أن تكون على مستوى عطاء الحرية، على مستوى التضحية، على مستوى البذل.

آيات سورة البقرة التي نزلت على مدى سنوات، عاشها المسلمون في المجتمع المدني الأول؛ فترة بناء الدولة المدنية، تريد أن تربي في المسلمين معاني التضحية والحرية بأوسع فضاءاتها ونطاقاتها.

فالحرية ليست كلمة تُقال، الحرية ليست مجرد شعار، بل أن يتحرر المرء داخل نفسه من أسر شهواتها، وأن ينفض عنه قيودها، ليصبح عبدًا

لله وحده دون سواه. من هنا كانت الحرية ثمرة التوحيد بأبهى صوره وحُلله.

وبنو إسرائيل لم يتخلصوا من أسر الشهوات المادية، اشتاقوا لطعم العبودية، اشتاقوا للشهوات المادية التي كانت متكرّسة ومتأصّلة في نفوسهم، فماذا كانت النتيجة: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١].

هذه النتيجة طبيعية تمامًا لكفرهم، ولطريقة تعاملهم مع المنهج الرّباني المتمثل في التوراة، فالله سبحانه وتعالى أنزل لهم منهجًا، وحين يقابل الإنسان المنهج الرّباني بالكفر والجحود والعناد، والمعصية تلو المعصية، والمخالفة مع التي تليها، ومحاولة التحايل على النصوص والتلكؤ في اتباع أوامر الله سبحانه، لا يمكن أن تكون النتيجة مغايرة.

«وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ».[83]

---

٨٣. قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير – ط الدار التونسية للنشر – سنة النشر: ١٩٨٤ هـ (١/ ٥٢٨): «الذلة الصغار وهي بكسر الذال لا غير وهي ضد العزة ولذلك قابل بينهما السموأل أو الحارثي في قوله: [وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل] والمسكنة: الفقر. مشتقة من السكون؛ لأن الفقر يقلل حركة صاحبه. وتطلق على الضعف، ومنه المسكين للفقير. ومعنى لزوم الذلة والمسكنة لليهود: أنهم فقدوا البأس والشجاعة وبدا عليهم سيما الفقر والحاجة مع وفرة ما أنعم الله عليهم، فإنهم لما سئموها صارت لديهم كالعدم، ولذلك صار الحرص لهم سجية باقية في أعقابهم» اهـ.

والذلّة: أن يصبح الإنسان أسيرًا. قد يكون فردًا أو جماعة أو شعبًا، فالشعوب أيضًا تقع في الأسر والذل والخضوع والمسكنة ظاهرًا وباطنًا. فالذلة نتيجة طبيعية لعدم خضوع الإنسان لمنهج خالقه سبحانه وتعالى، الأمر الذي يترتب عليه أن يُخضع لغيره من البشر في الواقع. فذاك يحرّكه من هنا وأخر يوجهه من هناك وهو يعاين ذلة ومسكنة.

الذلة أن يفقد الإنسان حريته في النظر والتصور والتطلع والهدف. من هنا عوقب بها بنو إسرائيل جزاء وفاقًا لما توهموه من الحرية بعيدًا عن التقيد بالمنهج الرّباني وتعاليمه، فسقطوا في وحل الذلة والمهانة.

فلا حرية ولا عزّة حقيقية بعيدًا عن المنهج الرّباني؛ فاتباع المنهج الرّباني يحرر الإنسان من سطوة غيره من مناهج يختطها البشر. من هنا كانت عين الحرية والعزّة أن يكون الإنسان عبدًا لله سبحانه دون سواه. يقول ابن عاشور رحمه الله: (الذلة ضد العزّة، فالذليل خائف؛ لأنه يخشى العدوان والقتل والغزو، وأما العزيز فهو شجاع؛ لأنه لا يخشى ضرًّا ويعلم أن ما قدر له فهو كائن).[84]

هذه المعادلة لم يدركها بنو إسرائيل ووقعوا بسببها في مخالفات كثيرة، ولذلك جاءت الآية العظيمة التي بعدها: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [البقرة: ٦٢].

٨٤. - ابن عاشور، المرجع السابق، ج١، ص ٥٤١.

من هنا جاء ختام الآية بقوله سبحانه: «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». الخوف والحزن هما ضريبة يدفعها الإنسان الأسير بذلته ومسكنته، يدفعها العبد إزاء قابليته للاستعباد لغيره.

ولا يقتضي الدخول في مرحلة الذلة والمسكنة أن يكون الناس في حال فقر مادي أو ما شابه، بل قد تدخل المجتمعات فيها وهي في حال اكتفاء مادي، لكنها تشعر بالخوف على الأرزاق والخوف على المستقبل إلى جانب حزن لا ينفك من منظومة الخوف، يدفعها نحو الذلة والمهانة.

ويتخبط الناس في البحث عن أسباب ودوافع لما يعانونه بعيدا عن العامل الأساسي المتمثل في البعد عن المنهج:(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [البقرة: ٦٢] في الدنيا والآخرة.

ومفهوم المخالفة في الآية هو: أن من لم يؤمن بالله واليوم الآخر سيكون الحزن والخوف عنده حالة ملازمة لا ينفكّ عنها ولا يستطيع التخلص من أسرها، وهذا ما حدث ويحدث حين يخالف الإنسان فردًا كان أو شعبًا المنهج الإلهي الرّباني.

أما المتبع للمنهج الرباني في حياته، فالخوف والحزن لديه نسبيان قد يمران به، ولكن ما يلبث أن يعيده المنهج إلى فسحة الأمل والتفاؤل واليقين برحمة الله وإحسانه.

وتعود الآية من جديد في سياق الحديث عن بني إسرائيل، لتؤكد أن الإشكالية الكبرى في بني إسرائيل ومواقفهم المتعددة التي تتناولها سورة البقرة، إنما كانت تكمن في مخالفة المنهج الرّباني ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]

والأمر بأخذ المنهج الرّباني بقوة لا ينصرف إلى القوة المادية فحسب، بل القوة المعنوية؛ قوة الاعتقاد، قوة الإدراك، قوة التنفيذ والتطبيق في واقع الحياة للمنهج الرّباني «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

والآيات وإن كانت تتحدث عن بني إسرائيل وتعاملهم مع التوراة، إلا أنها وردت في سياق التحذير للأمة المسلمة التي كلفت بحمل أمانة القرآن العظيم.

«خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ» وصية لكل فرد في نفسه وإنسان في مجتمعه: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»، ولكل مجتمع بأفراده ومجموعه.

أما إذا كان التّولّي والإعراض عن المنهج الرّباني طريقا لهم، كان الوقوع في إشكالية التعامل معه التي وقعت مع بني إسرائيل. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤]

ثم تتوالى القصص والمواقف التي تعكس سوء تعامل بني إسرائيل مع المنهج الرباني؛ فمن تحايل على التعاليم إلى مجاهرة بالعصيان. (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) [البقرة: ٦٥].

فئة من بني إسرائيل اعتدوا على الأمر الرّباني وتجاوزوه بالمعصية والخروج عليه، الأمر الذي أدى إلى مسخ تلك الفئة. وسواء أكان ذلك المسخ حقيقيًا، أو مسخًا معنويًا، فإن الخسارة والنكال كانت الجزاء لها. (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) [البقرة: ٦٦] .كل ذلك السرد القرآني لهذه المواقف يحمل قاعدة ارتباط العواقب والنتائج بالمقدمات؛ فمخالفة المنهج الرّباني، تترتب عليها عقوبات فردية وقد تكون جماعية.

ثم تنتقل الآيات إلى موقف آخر من مواقف بني إسرائيل سميت السورة به، نموذج آخر في التحايل على التعامل مع المنهج الرّباني، فتقصّ الآيات ما أخبرهم موسى عليه السلام من الأمر الإلهي أن يذبحوا بقرة (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) [البقرة: ٦٧].

ولكن القوم اعتادوا على التعامل مع الأوامر الرّبانية والوحي الإلهي، بالتحايل والمماطلة وكثرة السؤال حول التفاصيل، لا لأجل أن يفهموا، ولكن لأجل أن يجدوا مدلفًا للتحايل والتباطؤ في التطبيق.

وهذا من المسالك الخطيرة في التعامل مع المنهج الرباني. فالسؤال عن الحكمة والقصد من وراء التشريع الإلهي، من الأمور المقبولة التي قد تقوي دوافع التطبيق للتعاليم في نفس الفرد والمجتمع. إلا أن ذلك إن جاء بنيّة التهرّب من ذلك الأمر، فالأمر مختلف.

فأصل العبادة وحقيقتها: أن يكون الإنسان عبدًا خاضعًا لله سبحانه منقادًا لأمره، فَهِم الحكمة من التشريع أم استعصت على فهمه وإدراكه.

إلا أن أول كلمة ردّ بها القوم على موسى عليه السلام: (قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) [البقرة: ٦٧] وهذه عبارات تشي بسوء أدبهم في التعامل مع النبي عليه السلام، لتأتي من بعدها المماطلة: (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ) [البقرة: ٦٨] (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا) [البقرة: ٦٩] (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ) [البقرة: ٧٠].

من هنا كشف القرآن الكريم التزوير والكذب والاحتيال الذي وقعوا فيه :(وإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [البقرة: ٧٢، ٧٣].

وهنا يظهر الغرض من سرد قصة ذبح البقرة بأن يُضرَب بها القتيل ليعيده الله سبحانه وتعالى بقدرته إلى الحياة من جديد، فيشهد على من قتله من بني إسرائيل بعد أن أنكروا قتله.

ولا يخلو الأمر من تقريب صورة البعث إلى قلوب بني إسرائيل الذين أولعوا بالحسّ وضعف الإيمان بالغيب.

لقد كان ذلك اختباراً آخر لإيمانهم بالمنهج الرّباني واستجابتهم لتطبيقه، إلا أنهم لم ينجحوا فيه فكانت النتيجة أن ضرب الله قلوبهم بالقسوة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] .

فالقسوة في القلب عقوبة تجعل منه متصلبًا متبلدَ الحسّ، لا يشعر بالآيات ولا بالمواعظ حين تمرّ أمام عينيه، وما تلبث أن تظهر على العين فتتصلّب فيها الدموع وتجف المآقي، فلا تعد قادرة على أن تذرف دمعة من خشية الله، ويالها من عقوبة لا تأتي إلا على مخالفة ومعصية عظيمة!

ومن أعراض قسوة القلب كذلك، أن تمرّ عليه المواعظ في كتاب الله ويسمع الآيات بأذنيه ويراها في واقعه بعينيه، ولكنها لا تحرك فيه قلبًا باتجاه تلك الآيات العظيمة، فيخرّ مؤمنًا خاضعًا لها، كما لا تحرّك فيه بواعث الخشية من الله عَزَّ وَجَلَّ التي هي من أعظم أعمال القلوب.

ثم تنتقل الآيات إلى موقف آخر من مواقف سوء التعاطي مع المنهج الرباني من قِبل بني إسرائيل، ألا وهو التحريف بكل أشكاله وصوره ؛تحريف معنوي وتحريف حسّي.

أما المعنوي فهو ما أخبر عنه الله عَزَّ وَجَلَّ حين قال ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٥، ٧٦].

الازدواجية، النفاق، جعل الدين بضاعة وتجارة، كلها أشكال وصور للتحريف، ومنها كذلك الاستشهاد بآيات تحقق أغراضًا شخصية معينة وإخفاء غيرها. هذه المواقف كلها تجسد النفاق وتعزز الازدواجية في التعامل مع المنهج، مع ادعاء طاعة الله والإيمان به خلافا لما في الواقع.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾. ولكن هل يغني ذلك الادّعاء في التعامل مع الله عَزَّ وَجَلَّ؟! قال سبحانه: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧].

ذلك التحايل يعكس ضعف إيمانهم بالله سبحانه وقلة علمهم بإحاطته وقدرته سبحانه: «يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ».

تلك الصور التي يسوقها القرآن العظيم محذرًا من يأتي بعدهم من الوقوع في مثل ذلك ونظائره، فالتعامل مع المنهج الرباني يقتضي

إخلاصًا في النية وتجردًا يعكس صدق التوحيد لله وحده، وعمق الرغبة في تطبيقه واقعًا معاشًا وسلوكًا منظورًا.

أما النوع الآخر من التحريف الذي يحذّر منه القرآن فهو يتمثل في القراءة والتلاوة فقط باللسان، مع خلو العقل والذهن من التدبّر فيما يقرأ ويتلو وخلو القلب مما تُتلى عليه من المواعظ والدروس، فهي عملية تفريغ للنصوص والآيات من مضامينها العملية ومفاهيمها القيمية وتحويلها إلى كلمات وعبارات منطوقة فحسب: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) [البقرة: ٧٨]، ولذا قال جمعٌ من المفسرين في هذه الآية: لا يعلمون من الكتاب إلا التلاوة والقراءة، أما التدبر والتفقّه والتفهم والتطبيق فهذا شيء بعيد تمامًا عن اهتمامهم.[85]

قال ابن القيم في ذلك: «ذمّ الله المحرفين لكتابه والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة وهي الأماني».[86] وقال الشوكاني: وقيل: (الأماني: التلاوة) أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة دون تفهم وتدبّر».[87]

٨٥. –عن ابن عباس في قوله: إلا أماني: إلا قولا يقولونه بأفواههم كذب.

٨٦. – ابن القيم الجوزية، بدائع التفسير، جمع يسرى السيد محمد، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٩٩٩، ج١، ٣٠٠.

٨٧. – محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، دار الفكر، بيروت، ج١، ص ١٠٤.

أما التحريف الحسي فهو يتمثل في كتابة آيات وإخفاء آيات الكتاب تحريفًا بأيديهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩].

جاء في تفسيرها: (حرّفوا التوراة وزادوا فيها ما يحبون ومحوا منها ما يكرهون ومحوا اسم محمد ﷺ من التوراة).[88]

وذكر القرطبي أن في هذه الآية والتي قبلها التحذير من التبديل والتغيير والزيادة في الشرع، فكل من بدّل وغيّر أو ابتدع في دين الله ما ليس منه ولا يجوز فيه فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد والعذاب الأليم، وقد حذّر رسول الله ﷺ أمته لما قد علم ما يكون في آخر الزمان..... فحذرهم أن يحدثوا من تلقاء أنفسهم في الدين خلاف كتاب الله أو سنته أو سنة أصحابه فيضلون به الناس، وقد وقع ما حذره وشاع، وكثر وذاع.[89]

إنها شكل من أشكال المتاجرة بالدين! يحرّف على هواه فيُخضِع الدين والمنهج الرّباني لأغراضه الشخصية، ليعزز به رأيًا أو يعضد نهجًا أو يدعم أحدًا من الخلق.

وغالب ما يحدث في المجتمعات المعاصرة من أشكال المتاجرة بالدين، الذي لا يأتي إلا بالنتائج الوخيمة التي تفسد المجتمع وتلبس

٨٨. - نقلا عن تفسير الطبري.

٨٩. - القرطبي، تفسير الآية ٧٩ من سورة البقرة.

على الناس دينهم وعوضا عن التعديل والتصحيح من خلال فهم الكتاب العظيم، يشيع التحريف والتزوير والبعد عن هدي القرآن الكريم.

ولذلك وردت: «لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً» وقد جاء ذكرها في سورة البقرة كثيرًا، في سياق التحذير من هذا النهج الخطير.

فالدين لا ينبغي أن يخضع للبيع ولا للشراء، وآيات الكتاب جاءت بالهدى وبيان الحق من الباطل لأجل أن تقيم الصواب وتعدّل الخطأ والانحراف، وليس لأجل أن يخضعها البشر لأهواء النفوس المتقلبة وأطماعها المتغيرة، من هنا كان الوعيد عليها شديدًا: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

فالمال الحرام المكتسب من وراء المتاجرة بآيات الكتاب العظيم وبال على صاحبه قلّ أو كثر، وهذا بالفعل ما حدث مع بني إسرائيل.

من هنا انتقلت الآيات من جديد إلى ذلك الميثاق والمنهج الرّباني الواحد الذي جاءت به كل الشرائع السماوية، فالتوراة جاءت بشرائع عظيمة؛ لأنها من الله عَزَّ وَجَلَّ، والإنجيل جاء بتعاليم ربانية عزيزة، والقرآن جاء ليتم التعاليم والمبادئ التي لا تستقيم الحياة الإنسانية إلا بها: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣] .

كل الرسالات السماوية جاءت بالتوحيد والقيم العظيمة، جاءت بالأمر بالإحسان للوالدين والأقارب وقول الخير وعمل الخير والصلاح والبرّ والمعروف، جاءت بعبادات ترتقي بصاحبها في مرحلة السلوك والتطبيق والتعامل مع الآخرين. هذه الشرائع التي لا يختلف عليها اثنان، كيف كان الموقف منها؟! ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

فعلى الرغم من عظمة هذه التعاليم ورصانتها إلا أنها جوبهت بالتولي والإعراض من قبل الأغلبية منهم. والمفردات القرآنية عبرت بدقة عن حالة هؤلاء مع المنهج؛ فالتولي أولا والإعراض لاحقا. قال الكفوي: المتولي والمعرض يشتركان في ترك السلوك (القويم)، إلا أن المعرض أسوأ حالا، لأن المتولي متى ندم سهل عليه الرجوع، والمعرض يحتاج إلى طلب جديد، وغاية الذم الجمع بينهما، أما الصد فهو العدول عن الشيء عن قلى.[90]

ولا يظهر من سياق الآيات سبب محدد لتوليّهم عن تلك المسالك القويمة والصفات الرصينة والأخلاق المتينة سوى قساوة قلوبهم وضعف توحيدهم وخنوع إرادتهم، حتى عمت الأبصار وضلت القلوب وترنحت النفوس عن معالي الأمور.

٩٠. - أيوب بن موسى الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، على الموقع:

http://shamela.ws/browse.php/book-7037#page-134، فصل الألف والعين.

ثم تنتقل الآيات إلى نوع آخر من الازدواجية في التعامل مع الآيات والمنهج الرّباني، وهو منهج الانتقائية فيما يأخذ ويترك، فيا يفعل ولا يفعل، لإخضاع المنهج الرّباني للمصالح، والأهواء والمقاييس الشخصية التي لا يحكمها سوى منطق الطمع في القريب العاجل: (... أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [البقرة: ٨٥].

والمنهج الرّباني لابد من أخذه جملة وتفصيلاً لكي تستقيم الحياة الإنسانية على الأرض، فهو جاء بتعاليمه لينظم علاقات الفرد بذاته وأسرته ومجتمعه في إطار يحقق الثمار المرجوة في الواقع وفي المجتمع. أما أن تطبّق جزئية منه ويترك الجزء الآخر فهذا اعوجاج في الأخذ به، يؤدي إلى تعضية التعاليم ومن ثم إحداث خروقات في الفهم والتطبيق.

فالقصاص (على سبيل المثال) الذي ورد في سورة البقرة، لا يؤخذ بعيدا عن كل ما جاء من آيات تعزز قيمة الحياة وحق الإنسان فيها وحرمة الاعتداء عليها بكل وسائل وأساليب الاعتداء، فتقع التعضية حين تكون الانتقائية في أخذ آية وترك ما جاء معها .قصاص جاء ليتم بناء التشريع والتعاليم على أسس قوية متينة، تحقق غاياتها ومقاصدها.

والقرآن العظيم في الآيات فكك إشكالية الانتقائية وردّها إلى أصولها وجذورها مبينًا من جديد دور الأهواء والانغماس في العروض الدنيوية في تكريسها: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ..) [البقرة: ٨٦] باع واشترى، باع آخرته واشترى دنياه بثمن بخس: (فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) [البقرة: ٨٦].

فالقضية خطيرة جدًّا وقد حدثت مع بني إسرائيل وتحدث مع غيرهم، ولذلك القرآن وقف عندها في سورة البقرة طويلا؛ ليأتي بأساليب العلاج الجذرية ويحاصرها ذاتيا.

وتعود الآيات من جديد لتتحدث عن موسى -عليه السلام- والكتاب (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ...) [البقرة: ٨٧]؛ فالرسالات واحدة ولكن الإشكالية في تعامل البشر مع تلك الرسالات (... أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) [البقرة: ٨٧].

وهنا يُواجه القرآن العظيم النفوس الضعيفة بخفاياها، فالسبب في مخالفة بني إسرائيل للمنهج الرّباني الذي جاء به موسى -عليه السلام- أنه قد جاء «بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ»، إنه هوى النفس.

أخطر أمراض النفس في التعامل مع المنهج الرّباني: هوى النفس، من هنا نصّ القرآن عليه في آيات عدة، وعدّه واحدًا من أبرز ما يعبد

من دون الله سبحانه: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) [الفرقان: ٤٣] (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ...) [الجاثية: ٢٣] .

قال الكفوي: الهوى هو ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع.[91]

وقد سُمّي بذلك؛ لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا في كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية كما قال الراغب.

ولابن تيمية رحمه الله كلام في ذم الهوى: (صاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه فلا يستحضر مالله ورسوله في الأمر ولا يطلبه أصلا ولا يرضى لرضا الله ورسوله ولا يغضب لغضب الله ورسوله بل يرضى إذا حصل ما يرضي هواه ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه فليس قصده أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصده الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء ليعظم هو ويثنى عليه أو لغرض من الدنيا فلم يكن لله غضبه ولم يكن مجاهدا في سبيل الله، بل إن أصحاب الهوى يغضبون على من خالفهم وإن كان مجتهدا معذورا لا يغضب الله عليه ويرضون عمن يوافقهم وإن كان جاهلا سيء القصد ليس له علم ولا حسن قصد فيفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله ويذموا من لم يذمه الله ورسوله وتصير موالاتهم ومعادتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله).[92]

٩١. - الكفوي، فصل الألف والهاء

٩٢. - ابن تيمية، منهاج السنة، ج٥، ص ٢٥٦.

من هنا كشف القرآن العظيم سرّ قتلهم الأنبياء وتكذيبهم لدعوتهم، فدعوة الأنبياء جاءت لتحرر البشر من سلطان الهوى والخضوع والانقياد لأمره، إلى العبودية لله وتنفيذ شرعه.

من هنا ذكر القرآن وصفهم لقلوبهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

وقد ساق القرآن العظيم هذه المقدمات ليبيّن للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام أن موقف هؤلاء من دعوته لن يخرج عن مواقفهم مع أنبيائهم.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾.

وهم في الأصل كانوا يستفتحون على العرب بما جاء به، ويتباهون ويتفاخرون أنه قد أظلّنا زمان نبي يبعث، فلما بعث كذبوه. وهم في ذلك لم يتغير موقفهم في الحقيقة، لأن موقفهم كان بناء على التعامل مع الدين بالمتاجرة. عرفوا أن هذا الكتاب الذي أنزل على النبي - ﷺ - حقٌّ، عرفوا بذلك ولكنهم تجاهلوا تلك المعرفة؛ لأن تلك المعرفة قد تناقض ما تهواه أنفسهم وتتشوف إليه، ولذا شهد القرآن عليهم: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى

مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

وهنا تبرز نتيجة المتاجرة بالدين: الغضب والعذاب المهين من الله سبحانه وتعالى. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢]. جاءت الآيات تذكّرهم بمواقفهم المخزية مع موسى عليه السلام حين اتخذوا العجل من بعده.

ثم حين أخذ الله عليهم الميثاق، ذكرّهم بإعلانهم العصيان: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

وهنا يضع القرآن الإنسان على المحك: إن لم يولّد الإيمان لدى الإنسان قوة دافعة للاتباع والطاعة وأخذ المنهج الرباني بقوة، فما قيمة ذلك الإيمان؟!.

«قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ»، فإذا كان الإيمان الذي يدّعون يأمرهم بقتل الأنبياء ومخالفة المنهج الرّباني فبئس الإيمان هو؛ فالإيمان لا يجعل الإنسان يعيش في تناقض مميت بين ما يؤمن به في قلبه وبين ما يمارسه في حياته وسلوكه.

وتنتقل الآيات في تسلسل واضح يعرض نتائج هذا النوع من التعامل مع المنهج الرّباني: حب الدنيا والركون إليها وكراهية الموت... فالموت

بالنسبة لهم يشكّل العالم الآخر الذي باعوه بثمن بخس، اشتروا الدنيا ولكنهم باعوا الآخرة:(وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ...) [البقرة: ٩٦].

هذا النوع من البشر لا يريد لحياته على الأرض أن تنتهي، ويعيش واهمًا بطول الأمل أن ذلك سيزحزحه عن العذاب ويباعد بينه وبين وقوعه. ذاك أنه غابت عنه الحقيقة الراسخة: (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ) [الجمعة: ٨].

فالرّب الذي كفروا به سيأتون إليه ويعودون إليه وسيوفيهم أعمالهم يوم القيامة، ولذلك جاء ختام الآيات فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: (.وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) [البقرة: ٩٦].

ثم إن ذلك الإنسان الذي يعيش هذه الازدواجية، يعيش معاديًا حتى للملائكة و الأنبياء و الكتب، حين عادى المنهج الرّباني الذي جاء به الله - سبحانه وتعالى - ولذلك جاءت الآية بقوله سبحانه وتعالى: (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ) [البقرة: ٩٩]، فلا يكفر بهذه الآيات الواضحة وبذلك المنهج العظيم الذي أنزله الله على النبي الكريم محمد ﷺ إلا من خرج عن أوامر ربه سبحانه وتعالى.

ولذلك لما جاءهم الرسول - ﷺ - مصدّقًا لما معهم، وضعوا كتابهم خلف ظهورهم (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [البقرة: ١٠١]. أرادوا أن يخفوا المنهج الرّباني وما كُتب في التوراة من استبشار بنبوة محمد ﷺ والنبذ إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به.[93]

والمفردة تصور موقف هذا الفريق منهم من كتاب الله ومنهج ربهم، ذلك الموقف الذي يعكس نظرتهم الدونية للكتاب وعدم شعورهم بأهميته ومكانته وقيمة ما جاء فيه من تعاليم ربانية وتوجيهات سامية. ولا يخلو ذلك من التحذير والتنبيه إلى أهمية إدراك المتلقي لقيمة التعاليم الواردة في الكتاب والحرص عليها، فعلى قدر ما يشعر المرء بقيمة ما في الكتاب، يعظّمه، وعلى قدر ما يشعر بفائدته له في حياته وأمره، يتبعه ويسير على هداه.

وهؤلاء حين باعوا كتاب ربهم العظيم وخالفوا نهجه في حياتهم، ساروا وراء الشياطين: (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) [البقرة: ١٠٢].

وتأتي الآيات في سياق الحديث عن أنبياء بني إسرائيل، فموسى - عليه السلام - لم يكن هو النبي الوحيد الذي كذّب به بنو إسرائيل، بل كان من قبله أنبياء كُذبوا واتهموا بالأباطيل.

تعدد الأنبياء فيهم وموقفهم منهم لم يتغير؛ لما جاء في دعوة الأنبياء من مخالفة لأهوائهم ومحاصرة لأطماعهم ومآربهم: (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ

٩٣. - https://www.almaany.com/quran/2/101/10/

اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

اتبعوا الشياطين وخضعوا لأقوالهم ونهجهم بما فيه من مخالفة ومناقضة صريحة للمنهج الرّباني، لتوهمهم أن ذلك الاتباع سيدر عليهم أرباحا ومكاسب عاجلة. لقد آثروا السحر على ما جاءهم من الهدى، فتعلّموا كيف يفرّقون بين المرء وزوجه ... «وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ».

بئسها من تجارة! فالساحر والمخالف للمنهج الرّباني المنهج الذي أمر الله به – عَزَّ وَجَلَّ – مهما درّ ذلك عليه من مكاسب دنيوية وقتية فهي في الواقع خسائر لا مكاسب.

لقد خسر نفسه، خسر آخرته، خسر دنياه، ولذلك أورد القرآن هذه اللفتة العظيمة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣] .

وهنا يظهر الفارق العظيم بين من يتاجر خاسرًا ولو تحصل على مكسب مادي عاجل، وبين من يؤمن ويتقي الله فتلك هي التجارة الرابحة.

وهذه الآية من أعظم التوجيهات في المنهج الرّباني، وهي ليست خاصة ببني إسرائيل فحسب، بل لكل البشر في نظرتهم لمفهوم الربح والخسارة.

فاتباع الإنسان للمنهج الرّباني في الحياة والسلوك كسبٌ حقيقي في الدنيا وفي الآخرة وربح أصيل لا يتبدل، بنقيض مخالفة ذلك المنهج، وما يأتي وراء ذلك من خسارة حقيقية وأن تلبست بلباس مؤقت لا يظهرها.

وهنا يأتي التوجيه الرباني مؤكدا ضرورة مخالفة هؤلاء والتميز عنهم في كل أمر ولو كان كلمة متشابهة لفظًا وتأتي بخلاف المعنى، كعادتهم في تزييف الأمور وتلبيسها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [البقرة: ١٠٤].

و المسألة هنا ليست كلمة تقال، ولكنه التميز والشعور برفعة المنهج الذي أراد الله سبحانه للمؤمنين أن يستحضروه. وألغى بذلك كل أشكال التبعية العمياء والتشبه البغيض الذي يمحو معالم الشخصية ويطمس بنيتها.

ثم تأتي الآيات بعد ذلك مؤكدة عداوة المتاجرين بالدين الذين لا يرغبون في إنزال خير الرسالة على غيرهم، ولو نبذوها وراء ظهورهم:(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) [البقرة: ١٠٥]. وهنا يبين القرآن العظيم عظمة الخير العميم الذي نزل على المؤمنين من خلال تعاليم القرآن وشريعته واصفًا إياه بالفضل العظيم.

ثم تتوالى الآيات بعد ذلك لتبيّن موقف بني إسرائيل من الدعوة الجديدة؛ القرآن، ذاك الموقف الذي يعكس الأمراض التي حاصرتهم وشابت نفوسهم وعلاقتهم بخالقهم وبالمنهج الذي أنزل عليهم.

فالقرآن نزل مصدقًا لما معهم، ولكن الحسد حال بينهم وبين اتباعه وتصديقه، رغم كل ما تبين لهم من دلائل وبينات.

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ..) [البقرة: ١٠٩]. وهنا تظهر سمة العدالة والإنصاف في القرآن حين يتحدث عن المخالفين: «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ». فحتى ولو كانت الكثرة غالبة، إلا أنها لا تنفي وجود عدد منهم خالفوا ذلك النهج المعوج.

وهنا يكشف القرآن العظيم عن غوائل النفوس المريضة التي تاجرت بدين الله وبرسالات الأنبياء: «حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم».

فالمؤمن إذا امتلأ قلبه بالثقة واليقين بعطاء الله سبحانه وتعالى وقسمته للأرزاق بين خلقه، بعدت عن نفسه دواعي الحسد، فالحاسد يقع في إشكالية عقدية حين يتوهم بحسده أن الرّب الذي قسّم الأرزاق، أعطى غيره ومنعه.

لقد وقع بنو إسرائيل في إشكالية الحسد التي جاء نتيجة طبيعية لتغليبهم الحسّ والمادة على الإيمان بالغيب والآخرة، فتضخمت مساحة

الدنيا في قلوبهم وهي متاع قليل، وتضاءلت الآخرة في نفوسهم وهي دار القرار.

ولذلك جاءت الآية «حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» هم يعرفون الحق.

فالمعرفة بالحق وحدها لا تكفي لاتباعه ولا للسير عليه ووفق منهجه. وتلك العوارض من قبيل الابتلاءات والمحن التي تعرض لها كل الرسل: (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [البقرة: ١٠٩].

وتتوالى الآيات في تقديم منهجية التعامل مع الأمم المخالفة للمنهج الرّباني الذي فيه الهداية، فسورة البقرة تتحدث عن الهداية، وتقدم وسائل الهداية وكيفية الوصول إلى الهداية، من خلال الآيات والأوامر الرّبانية: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [البقرة: ١١٠].

والقرآن العظيم هنا يوضّح للمؤمنين سبيل الهداية في التعامل مع المخالفين: السير على المنهج الذي أنزله الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ومخالفة الأمم السابقة في طغيانها وفي كفرها ومعاندتها، وتلقّي ذلك المنهج بصدر رحب وإيمان ويقين.

من هنا عابت الآيات على اليهود والنصارى قولهم باحتكار الجنة لأنفسهم: (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ...) [البقرة:

١١١]؛ فالجنة ليست حكرًا على أحد، ولا أحد يملك مفاتيح الجنة إلا الخالق الذي خلق وأعطى ورزق: ﴿... تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] .

وهذه الإشكالية خطيرة يقع فيها كثيرون بزعمهم: «فلان يدخل الجنة، وفلان يدخل النار». وهنا تبدأ عمليات التشنيع والتشهير من كل فريق على مخالفيه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٣].

إلا أن ذلك لا يغيّر من حقيقة الأمر، وأن الحكم والفصل بيد الله وحده دون سواه: ﴿... فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. (١١٤)

من هنا فإن دور الإنسان المبلّغ أن يبيّن الحقيقة ويعرض الرسالة ويسير عليها في حياته وسلوكه، أما الحكم على الناس فليس من اختصاص أحد من البشر: ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

وتأتي آيات عظيمة تعزز الإيمان في قلوب أصحابه وأتباعه، وأن الله سبحانه وتعالى ما اتخذ ولدًا، فهو الغني عن كل أحد، له ما في السماوات وما في الأرض.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾.

والكل عبيد لربوبيته عزّ وجّل، بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون. هذه الآيات تكرّس التوحيد وتؤكد أن هذه الدعوة الإسلامية جاءت لتكون خاتمة الرسالات والمناهج، مصدّقة لما بين يديها من التوراة والإنجيل.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(١٢٣)﴾.

تأتي الآيات لتقرر حقيقة انعدام الرضا من المتبعين لأهوائهم من اليهود والنصارى عن النبي الكريم ورسالته طالما بقي على منهجه وتمسك بما أنزل إليه؛ فشريعة الأهواء لا تشابه شرع الله ونهجه في شيء. والهدى ما بينّه الله في كتابه وما أنزله عليه، وليس في السير وراء من يدّعي الهدى وليس من أهله؛ فالهداية نهج حياة وليس ادعاء المدعين وشعارات المدلسين.

فمن يؤمن بالكتاب حقا ويسير في حياته على منهجه وأوامره هم أولئك الذين يقيمون أوامره وتعاليمه في حياتهم وواقعهم. أما أولئك الذين يتلون آياته في كتبهم ويخالفونها في واقعهم، فأولئك هم الخاسرون الحقيقيون في الدنيا والآخرة. فمن أعظم خسارة ممن أعطاه الله منهجًا ثم انساق لمخالفته في واقعه متخبطًا في سيره، لا يعرف له شريعة سوى أهواء نفسه وأطماع ذاته.

وهنا تأتي الآيات تذّكرهم بنعمة الله عليهم وتفضيله لهم على العالمين في زمانهم و بالمنهج الذي أنزله إليهم. وهو تذكير لا ينفك عن التذكير بلقاء الله عز وجل الذي يجد فيه الإنسان جزاء ما قدّمه من عمل:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(١٢٣)).

ثم تنتقل الآيات لتردّ جميع الرسالات إلى الحنيفية السمحاء التي جاء بها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

والآيات تذّكر بأنموذج إبراهيم عليه السلام الذي وفّى بأمانة التكليف وحمل رسالة التوحيد. كما توضح الآيات العظيمة أن الإمامة في الدين لا تورث بالنسب، بل من خلال القيام بتكاليفها وحمل أعبائها، فها هو أبو الأنبياء يسأل الله عز عزّ وجلّ أن يجعلها في ذريته لتأتيه الإجابة : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾؛ فالقضية ليست ادعاء وتوريثًا، ولكنها أمانة يستحقها من يقوم بها حق القيام، وفي ذلك تقريع للمنحرفين عن نهجه وملته الحاملين لشعار الانتساب إليه.

وهنا تمهد الآيات لانتقال الرسالة والمنهج إلى أمة القرآن من خلال الحديث عن مكانة البيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس وأمنًا، مقيمة دعائم البيت على رسالة التوحيد الخالدة ونقاوته الصافية فلا تفسدها شوائب الشرك ولا دعاوى التحريف. من هنا كان الحديث عن

التطهير متضمنًا الحفاظ على نقاوة التوحيد وصفائه، فلا أوثان تُعبد ولا أصنام تُرفع والأمر كله لله. حينها تصعد دعوة إبراهيم عليه السلام سائلة الأمن والرزق لكل من أمّ البيت وقصده من المؤمنين الموحدين.

وما تزال أصداء تلك الدعوة الصادقة تتردد في الأرجاء، يعاين أثرها كل من يقصد البيت الحرام حاجًا أو معتمرًا، حيث يرى التوحيد وهو يعمّر أرضًا كانت خالية من كل حياة.

إنها رسالة التوحيد التي جاء بها الأنبياء فلم يحابوا فيها أحدًا، ولم يخضعوا لأهواء أقوامهم من البشر.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

تعلن الآيات أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا البناء واحد في أصوله في قواعده، في توحيده، وفي إسلامه لله رب العالمين. كما تظهر الآيات الإخلاص الذي سكن قلب إبراهيم عليه السلام الظاهر في دعوته وإسماعيل: (ربنا تقبل منا)، فلا شيء يدور بخلد المؤمن حين يقدّم عملاً بين يدي خالقه سوى قبول العمل. تلك الدعوة التي رافقتها دعوة إبراهيم عليه السلام ببعثة رسول يتلو الآيات ويعلّم الكتاب ويزكّي النفوس بالحكمة.

لقد كان إبراهيم عليه السلام النموذج الواضح لدعوة التوحيد التي وصّى بها أبناءه، تلك الوصية التي تحمل معها أمانة التكليف بالحفاظ على دعوة التوحيد، فدونها تتساقط كل المصالح والأغراض. وفي الآيات رد على أولئك الذين باعوا دينهم من أجل دنياهم ومصالحهم الشخصية؛ فهذه ملة إبراهيم؛ التوحيد الخالص الذي يقود صاحبه إلى الاتباع والتسليم والانقياد والخضوع للمنهج الرباني في كل صغيرة وكبيرة، ولهذا وصّى بها إبراهيم بنّيه و يعقوب: (أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ).

فليس ثمة شرعية لما وقع من خلاف حول كلمة التوحيد واتباع النبي عليه الصلاة والسلام بعد هذا.

ثم يسدل الستار على هذه المواقف بقول الله عّز وجّل «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ). فلا جدوى من الدخول في معارك تاريخية أو نزاعات مضى زمانها وانقضى؛ فالمرء لا يسأل عن غيره، ولكن يسأل عن عمله وإيمانه وما يعتقد.

ثم تعود الآيات لتنقل ادعاءات المفترين واحتكار الهداية في اتباع أهوائهم التي ألبسوها لبوس الديانة اليهودية والنصرانية: (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وهنا تعلن الآيات براءة الأنبياء جميعهم من كل أشكال التحريف والتزوير الذي طال ما جاءوا به على يد بعض أتباعهم، فالتوحيد واحد؛ ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين.

إعلان الشهادة التي يختم بها الله سبحانه وتعالى الجزء الأول من السورة قبل أن تنتقل الآيات إلى التشريعات التي جاء بها القرآن الكريم؛ فمن دعائم الاعتقاد الصحيح: الإيمان بجميع الأنبياء دون تفرقة بينهم.

وهكذا يأتي الجزء الأول من السورة في سياق التحذير من كل ما وقع فيه بنو إسرائيل من أخطاء فادحة في التعامل مع منهج الله المنزل عليهم. الأمر الذي أدى إلى استبدالهم بأمة أخرى أنزل الله عليها القرآن ليشهد به واقعهم وحياتهم من خلال ممارستها لتلك التعاليم وتقديمها للعالم.

ولعل من أخطر ما وقع به بنو إسرائيل، تحويلهم المنهج إلى ادعاء فخالفوا إيمانهم في سلوكهم واعتقادهم، وتاجروا بالدين، وأخضعوا المنهج الرباني لأهوائهم وأطماعهم الشخصية.

وسورة البقرة في نهايات الجزء الأول وبدايات الجزء الثاني تقدّم الإسلام كرسالة عالمية لكل الأمم ولكل الشعوب. فالقرآن ما جاء ليكون محصورًا في قومية معينة أو في جنس معين، بل هو خطاب لكل الأمم.

وثمة تساؤل يطرح نفسه هنا: لماذا يوجّه القرآن الخطاب مباشرة لبني إسرائيل؟ (يا بني إسرائيل). إنها عالمية الرسالة القرآنية وأهمية

تقديمها للعالم كله، ذلك التقديم الذي يقتضي ارتقاء الحامل للرسالة بسلوكه وحياته ومعاشه ليكون أهلاً لذلك الحمل والتلقي والبلاغ لرسالة القرآن.

وفي ختام الجزء الأول من سورة البقرة الكريمة تحمّل الآيات مسئولية البلاغ لمن يؤمن بهذا الكتاب: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. المسئولية التي تحول الإيمان إلى واقع معاش وحياة تشريعية واضحة المعالم وفق ما أمر الله به، من هنا كان الجزء الثاني من سورة البقرة متضمنًا لكل تفاصيل الحياة الأسرية والاجتماعية والاقتصادية؛ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وأتى بها في سياق التشريع؛ لأنه منهج هداية. ذلك المنهج الذي لا يحمل أعباءه إلا من استقر التوحيد في قلبه وضميره وأقامه على دعائم التقوى وخشية الله.

في الجزء الأول من سورة البقرة جاءت معالم الهداية في تحديد الاعتقاد الذي ينبغي أن يستقر في نفوس المؤمنين بالقرآن العظيم منهجًا للهداية، بعد عرض مستفيض لمواقف بني إسرائيل في التعامل مع كتابهم، التي تولدّت من إيمانهم الهش واعتقادهم الضعيف، لتؤكد ضرورة ارتكاز العلاقة مع المنهج الرباني حول الإيمان بالله وتوحيده وتعهده بالتنقية والتصفية.

ويأتي الجزء الثاني من سورة البقرة الذي اختص بحشد من التشريعات والتعاليم، حتى قيل أن سورة البقرة حوت ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر[94]، ليقيمها على أساس التوحيد وعمقه في قلب الفرد الذي أخذ تلك التعاليم والتشريعات بقوة الاعتقاد ورصانة الفهم وصحة التوجّه.

وبدأ الجزء الثاني بقضية «القِبْلة»، ذلك المكان الذي يتوجّه إليه المسلمون في كل يوم على الأقل خمس مرات بقلوبهم وأبدانهم. وقد كان المسلمون في مكة يتوجهون أول الأمر حين فرضت الصلاة إلى بيت المقدس، في ذلك الوقت الذي كان العرب في الجاهلية يقدّسون البيت الحرام ويعظّمونه، ولربما رأوا في توجّه المسلمين آنذاك باتجاه بيت المقدس شيئًا من التحدي لمكانة البيت الحرام في الجزيرة العربية.

وحين هاجر النبي – ﷺ – كان اليهود يعتبرون أن هذا نوع من أنواع التفوق الذي جاءوا به على المسلمين، من حيث إن المسلمين يتوجّهون نحو قبلتهم، أي نحو بيت المقدس.

٩٤. نقله القرطبي عن ابن العربي. قال القرطبي في تفسيره – ط٢ دار الكتب المصرية (١/ ١٥٢): «قال ابن العربي: سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر». اهـ.
وانظر: أحكام القرآن لابن العربي – ط٣ دار الكتب العلمية (١/ ١٥).

وفي تلك الأجواء نزلت الآيات، عَنْ أَنَسٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ»، فَنَزَلَتْ: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) البقرة/ ١٤٤، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ وَهُمْ رُكُوعٌ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَقَدْ صَلَّوْا رَكْعَةً، فَنَادَى: أَلَا إِنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ، فَمَالُوا كَمَا هُمْ نَحْوَ الْقِبْلَةِ».[95]

وبدأ الكلام عنها بقوله عَزَّ وَجَلَّ عن سفهاء اليهود: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [البقرة: ١٤٢] يهدي من يشاء إلى معالم الهداية التي أذن الله بها لهذه الأمة، في أدق تفاصيل حياتها وشعائرها وعباداتها. وقد وردت الكثير من الروايات حول الموضوع وأسباب التحول، إلا أن سياق الآيات وما جاء بعدها وقبلها يوضح أن تحول القبلة إعلان وميلاد لأمة أنزل الله عليها كتابًا ومنهجًا لتقوم به بين الناس، دون أي توهم لأي شكل من أشكال التشبه أو التبعية لأحد، وخاصة أن اليهود كانوا يتفاخرون على النبي الكريم ﷺ والمسلمين بأنهم يصلون إلى قبلتهم، فحسم الأمر.

ومما يؤكد ذلك أن الآية التي وردت بعدها خاطبت المسلمين بهذا التكليف:(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [البقرة: ١٤٣].

٩٥. - رواه مسلم ٥٢٧.

فتحويل القبلة لإتمام مهام التكليف بالشهادة على الناس شهادة تقوم على أسس الاعتقاد الذي بينه القرآن في الجزء الأول. إنها شهادة ترتكز على الوسطية.

ولا تخرج معاني الوسطية التي وردت بتصاريفها في خمسة مواضع في القرآن عن: العدل والخيرية والاستقامة. عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بنوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب! فتُسأل أمته، هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون ثم قرأ رسول الله ﷺ (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) [البقرة: ١٤٣] قال: عدلاً (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (البقرة: ١٤٣).[96]

من هنا يفهم أن الوسطية هي منهج في التعامل مع الكتاب العظيم يتسم بالعدل والخيرية والاستقامة. والترابط بين الشهادة التي افتتحت بها الآية والوسطية صريح، فالشهادة لا تقبل إلا من العدل ولا تقوم إلا بالعدل وتهدف لتحقيق العدل، وهذا يتضمن الخيرية والاستقامة.

من هنا جاء في تفسير ابن كثير للآية: (إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم

٩٦. – رواه البخاري: كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى:(وكذلك جعلناكم أمة وسطا).

القيامة شهداء على الأمم لأن الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط ها هنا: الخيار والأجود).[97]

فالوسطية هي الصبغة التي أراد الله لهذه الأمة أن تكون عليها، والوسطية ليست شعارًا وادعاءً أجوف، وإنما هي لب تشريعاتها ودستورها ومنهجها في التعامل مع التعاليم الرّبانية.

والشهادة على الأمم تقتضي من هذه الأمة الجديدة - الأمة المسلمة الفتية التي بنيت دعائمها في المجتمع المدني ومع بدايات نزول سورة البقرة إلى نهاياتها - أن تستشعر عظم المسؤولية الملقاة على عاتقها وهذا ما حدث في بداية هذا الجزء.

وفي تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام أمور عدة تتصل بمهمة الشهادة ومنهج الوسطية للأمة المسلمة:

تحول المسلمين في مكة من البيت الحرام إلى بيت المقدس؛ إنما كان لنزع فتيل القومية والتعصب الذي كان ظاهرًا في قريش حينها؛ فالعرب في الجاهلية كانوا يرون عظمتهم ومجدهم في البيت الحرام، وفي ذلك الوقت كان توجّه المسلمين في الصلاة نحو بيت المقدس لماذا؟ لينتزع فتيل النعرات والتعصبات القومية، ليجعل الولاء

٩٧. - تفسير ابن كثير، ج١، تفسير الآية على الرابط:
http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura2-aya143.html

والانتماء الوحيد للدين، وليس لقوم ولا لجنس ولا لأرض، فانتزع ذلك من هذه الأمة وهي لا تزال مجرد مجموعة من الأفراد المستضعفين في مكة. وكان التحدي الذي واجهه المسلمون المستضعفون في مكة، وهم يديرون وجوههم اتجاه بيت المقدس كبيرًا، ولكن هذه الأمة أريد لها ومنذ أول كلمة أنزلها الله على رسوله - ﷺ - أن تكون متميزة في كل شيء، أن تكون قوية ومختلفة في كل تصوراتها واعتقاداتها، ليس لأجل الاختلاف والتميز في حد ذاته، ولكن لكي تبين وتصلح ما قد فسد في الأمة السابقة.

ثم لما انتقلت تلك الأمة المسلمة الجديدة إلى المجتمع المدني حيث تبرز قوة اليهود وعنجهيتهم بموروثهم الديني الذي نسفوه بجهالتهم، وكيف كانت يتفاخرون على العرب بأنهم أهل الأنبياء، في ذلك الوقت أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - نبيه أن يتحول إلى البيت الحرام في القبلة.

سواء أكانت القبلة نحو البيت الحرام أو نحو بيت المقدس، فالأمر كله محض ابتلاء واختبار وتربية لهذه الأمة المسلمة، ولذا ربي - عَزَّ وَجَلَّ - ذكر ذلك وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. إنه اختبار وابتلاء، لا بد أن تكون هذه الأمة بمكوناتها وبأفرادها متوجهة بإخلاص وصدق إلى الله - سبحانه وتعالى - وحده دون من سواه، ولا تبتغي مرضاة العرب ولا اليهود ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣].

موضوع تحويل القبلة يرتبط بهوية الأمة واعتزازها بالتمسك بتعاليم القرآن ولو كانت تخالف غيرهم: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

والآية توضح أن الإنسان الذي يهتدي بآيات الكتاب، تتبين له معالم المنهج الرّباني، فينقاد بسلاسة إلى الأوامر في جزئيات حياته، فلا يثقل عليه أمر ولا يشتد عليه طلب لأنه يبتغي الهداية، ويراها في ذلك المنهاج الرّباني، فكل ما يأتي من الله - سبحانه وتعالى - هو يرى فيه الهداية، فتستسلم نفسه وروحه وتنقاد إلى ذلك المنهج الرّباني برحابة الصدر الذي انشرح بآيات الكتاب.

ثم تأتي الآيات وتبيّن من جديد طبيعة المعركة التي اصطنعها اليهود مع الأمة المسلمة، لتمرر من خلالها الأهواء والمصالح الشخصية، رغم معرفتها بالحق: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤]

وبدأ هؤلاء بمسلك التشويش وإشاعة البلبلة في صفوف المجتمع المسلم من خلال زعمهم أن الله قد أضاع صلاتهم التي كانوا يصلونها باتجاه بيت المقدس. ولذلك جاءت القاعدة الحاسمة مبينّة للنبي - ﷺ - وللمسلمين ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

والقرآن مرة تلو الأخرى يؤكد أن شريعتهم التي يسيرون عليها، إنما هي شريعة أهواء وأمزجة لا شريعة حق وهدى، والفارق شاسع بين من يحكمه هواه، ومن يحكمه العلم والهدى والحق.

وفي الآيات تعزيز للأمة المسلمة التي أنزل الله - سبحانه وتعالى - عليها القرآن بإذكاء روح القناعة والإيمان بالحق الذي أنزل عليها، وبيان أن كل تلك المعارك المصطنعة ترفع باسم الدين، لكنها في الحقيقة معارك أهواء ومطامع ومصالح شخصية والدين منها براء.

وهذا التأسيس القوي على عدم الخضوع والتبعية لأهواء الناس مبدأ أصيل أسسه القرآن العظيم وأكده في هذا الجزء من السورة؛ حتى يدرك المسلمون أن الشهادة على الناس ليست بالإجبار والإكراه بل من خلال تقديم المنهج الرّباني الذي أنزل عليها حين يعيشوه واقعًا بكل تفاصيله، ومن ثم يشهده الخلق رفعة وعلوًا وعزًا وأمنا واستقرارا، يدفع بهم للسير عليه وتبنيه.

والأمة المسلمة لن تكون في موطن الشهادة على الناس إلا باتباع ذلك المنهاج الرّباني وتشريعاته، فالسير هنا ليس مجرد تقليد أعمى، وإنما هو سير على الحق الذي يظهر نور الهداية فيه في كل تعاليم وتشريعات المنهج الذي جاء لتلك الأمة.

وهنا تواصل الآيات العظيمة، لتبين للنبي - ﷺ - وللأمة بأسرها أن الحق في المنهج الرّباني، وأن المطلوب منهم لا يتمثل في الجري

وراء إقناع هؤلاء بالحق، فالمسألة لا تتعلق بمعرفة وجهل ولا بقناعة أو جهالة قدر ما تتعلق بنفوس صدها ما كان يدور في قلبها من حسد وأطماع وأهواء شخصية دفعت بهم إلى كتمان الحق وطمسه: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [البقرة: ١٤٦]

وهنا يأتي سياق الآيات؛ ليحذر الأمة الإسلامية من خطر كتمان الحق، فالحق لا بد أن يظهر، سواء كان يتماشى مع المصالح الشخصية للأفراد أو كان على عكس توجهات البشر ومصالحهم وأطماعهم، فالحق أحق أن يُتبع، والباطل أحق أن يُزهق ويدمغ، حتى ولو كان ذاك الباطل يساير أهواء شخصية أو يحقق مصالح ذاتية.

فالحق جاء ليُحق بتعاليمه في الواقع، ولم يأتِ لكي يخضع لأهواء الناس ومصالحهم.

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [البقرة: ١٤٨]

وهنا تذكّر الآيات المسلمين بأن التوجّه للقبلة من أعظم الأشياء التي تجمع قلوبهم وتوحد صفوفهم نحو عمل الخير وإشاعته والتسابق في نشره:((فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ))، فوحدة القبلة تحيي في القلوب وحدة

الهدف المتمثل في العمل الصالح، فمهما اختلف المسلمون في أفكارهم وآرائهم، ومهما تباينت أماكن وجودهم واهتماماتهم، فالتوجّه نحو قبلة واحدة يعيدهم إلى وحدة الهدف: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٩]

وتأتي الآيات لتقدم حقيقة جديدة للنبي - ﷺ - ولهذه الأمة في مختلف عصورها وليس فقط في المجتمع المدني الأول الذي كان يواجه مختلف التحديات - من يهود و منافقين ومشركين، تتمثل في العلاج في المنهج الرّباني مع أصحاب الأهواء والدعاوى الباطلة: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

والحديث عن خشية الناس في هذا الموضع من السورة له دلالة وعلاقة بالشهادة على الناس، فلا يليق بمن يشهد أن يخشى غير الله؛ حتى تأتي شهادته ناطقة بالحق واقفة بالعدل والخير: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي».

والخشية كما قال الراغب: خوفٌ يشوبه تعظيم، و أكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه.[98] والخشية عمل قلبي يقود الإنسان إلى ممارسات وسلوكيات بحسب ما يخشاه. من هنا جاءت الآيات بالنهي عن

٩٨. - الراغب الأصفهاني - المفردات، مادة خشي.

الخشية من الناس مهما بلغ شأنهم؛ ذاك أن هذا النوع من الخشية يقود الإنسان إلى تحصيل رضاهم وإيثار ذلك على ما سواه، فتتعدد الوجهات في حياة الإنسان، وهو أمر يتنافى مع خشية الله سبحانه وتوحيده. من هنا جاء السياق بالتذكير بمنّة الله سبحانه عليهم: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]

وهنا توضح الآيات العظيمة دور النبي-ﷺ في التلاوة والتزكية والتعليم؛ فالنبي - ﷺ - ما كان يقرأ على المسلمين القرآن قراءة فحسب، بل كان يعلّم، والفارق كبير بين القراءة المجرّدة وبين التعليم!.

والتلاوة ليست مجرد القراءة، وقد استعمل القرآن العظيم مفردة يقرأ، ومفردة يتلو للفوارق بينهما.

يقول الراغب: التلاوة خاصة بالقرآن الكريم مع الاتباع وليست القراءة كذلك؛ فالتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة تارة بالقراءة وتارة بالارتسام، لما فيها من أمر ونهي وترغيب وترهيب، فهي أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة. ويفهم من ذلك أن التلاوة اتباع وعمل وليست مجرد قراءة. وهذا المعنى يتناسب مع سياق الآيات في مهمة النبي الكريم ﷺ.

أما التعليم فاختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلم. قال بعضهم: التعليم تنبيه النفس لتصور المعاني،

والتعلُّم تنبُّه النفس لتصور المعاني...فمن التعليم قوله: الرحمن علم القرآن...ويعلمهم الكتاب والحكمة.[99]

فالتعليم يعني خطوات فيها معاني المتابعة الفعلية والمشهودة، وهو ما كان يقوم به النبي - ﷺ - في تعليم الرعيل الأول التشريعات الإلهية و الآيات القرآنية التي كانت تتنزل عليه - ﷺ، لذا كان - النبي - ﷺ هو المعلِّم الأول.

وهذه لفتة رائعة لكل من يتصدى لتعليم الناس القرآن العظيم، أن يكون معلمًا، لا مجرد قارئ، فالفارق بين القارئ والمعلّم كبير.

أما التزكية فيقول أبو حيان: (ويزكيهم) باطنا من أرجاس الشرك وأنجاس الشك، وظاهرا بالتكاليف التي تمحص الآثام وتوصل الإنعام. قال ابن عباس: التزكية: الطاعة والإخلاص. وقال ابن جريج: يطهرهم من الشرك. وقيل: يأخذ منهم الزكاة التي تكون سببًا لطهارتهم. وقيل: يدعو إلى ما يصيرون به أزكياء. وقيل: يشهد لهم بالتزكية من تزكية العدول، ومعنى الزكاة لا تخرج عن التطهير أو التنمية.[100] ثم يقول أتى بها فعلا مضارعًا ليدل على التجدد.

٩٩. - الراغب، المرجع السابق، مادة علم.

١٠٠. - أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق: عادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م، ج١، ص ٦١٨.

وواقع الأمر أن هذه الآية العظيمة تضع أساس التعامل مع كتاب الله العظيم وتخط للمسلم مسار التفاعل مع هذا المنهج الرباني بما يؤدي إلى تحقيقه في الواقع الإنساني وتصويبه.

ثم تأتي الوصية التي تليها في أسس التعامل مع المنهج الرباني قبل البدء بالتشريعات وتفاصيلها، متمثلا في ذكر الله بطاعة أوامره وما جاء من تشريعات وأمور في هذا الكتاب: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) [البقرة: ١٥٢].

ومن هنا جاء التلازم بين الذكر والشكر، فالذكر بتلقي المنهج بالطاعة والاتباع والشكر على هذا، وهو مقابل الجحود والكفران ونكران النعمة، وهذا ما حدث مع بني إسرائيل من جحود وكفران نعمة الهداية في اتباع المنهج.

والفارق كبير بين من يتعامل مع المنهج من باب الذكر والشكر، وبين من يرى فيه تقييدًا لحركته وتحديدًا لمسيرته العشوائية في الحياة.

فالتمهيد في هذا الجزء لأجل أن يجعل النفوس مستعدة لتلقي الأوامر والتشريعات وتلقيها بعمق الإحساس بشكر النعمة حتى تتحقق فيها: (سمعنا وأطعنا)، أما حين يكون المنطلق الجحود والنكران فسيكون التلقي بـ: (سمعنا وعصينا).

وهنا يأتي الحديث موصولاً عن الإعداد النفسي لتلقي الأوامر والأحكام بالصبر على الطاعات والاستعانة بالصلاة والدعاء: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [البقرة: ١٥٣].

فالسير على المنهج الرّباني والتعليمات والأوامر الرّبانية يحتاج إلى صبر وثبات وتحمل مشاق لا تخلو منها التكاليف؛ فالآيات تؤهل النفسية المسلمة - فردًا كان أو جماعة -لتضع في حسبانها ما يمكن أن تمر به من مواقف شديدة وخطوب أليمة تستدعي التضحية وتقتضي الصبر وتتطلب الصلاة.

فبدون صبر وصلاة لا تتمكن النفوس من ممارسة تعاليم المنهج الرّباني وتطبيقه في الواقع؛ فالسير عليه يحتاج من الإنسان الخروج من داعية هواه إلى ما يدعو إليه الله ورسوله من أوامر وتكاليف.

وتأتي الصلاة بالقيام بها وفق ما أمر الله سبحانه لتعطي الإنسان القدرة على المواصلة والثبات ومواجهة الصعاب.

من هنا كان الربط بين هذه الآية وقوله تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) [البقرة: ١٥٤]؛ فتطبيق المنهج الرباني في الواقع الإنساني لا يخلو من البذل الذي قد يصل حدّ التضحية بالنفس للحفاظ على القيم العظيمة التي جاء بها المنهج

الرباني، ليصبح في ظلها الموت حياة من نوع آخر يختلف عن الحياة البشرية وسماتها التي يعرفها الناس: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أموات».

وفي الآية إخراج لكل الأطماع الدنيوية والسلطوية التي لأجلها قد يقاتل الناس ويقتتلون؛ فالخروج هنا محصور (في سبيل الله) وإحقاق ما أمر الله به؛ فالبذل للنفس هنا لا يقوم على مبدأ الصراع والنزاع بين البشر للبقاء على الأقوى والأغنى والأشد وتحقيق أهواء النفوس وشهواتها.

والقرآن العظيم يعالج واقعًا إنسانيًا فيه من الصعوبات والاختبارات ما فيه، فجاء الحديث عن عوارض الحياة من خوف وجوع ونقص حقيقي في الأموال والأنفس: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) [البقرة: ١٥٥].

فالإنسان قد يصاب في ماله بنقص، قد يصاب في صحته أو في تجارته، وقد يصاب في أولاده، أو في بيته، كما حدث مع النبي - ﷺ - حين ابتلي وأصحابه، وكانت بهجر الوطن والعشيرة والأقارب في سبيل الله وإعلاء كلمته.[101]

١٠١. قال سبحانه: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) [الحشر: ٨].

والآيات فيها العديد من الوقفات التربوية النفسية التي تجعل النفس البشرية مهيأة لتقبل الظروف الصعبة والدفع بها نحو النظرة الشمولية الإيجابية للأمور والأحداث دون تقليل كنه المشاعر الإنسانية في المواقف الصعبة: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) [البقرة: ١٥٦].

فالمصائب وما يصيب الإنسان مما يكره تواجه بـــ: «قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

فالمال والصحة والأولاد ،كلها من الله ولله، وهذه الكلمة تذكي في الإنسان الإحساس والإيمان بهذه الحقيقة التي قد تغيب عن باله حين وقوع ما يكره.

ثم إن كل شيء يعود إليه سبحانه «وإنا إليه راجعون»، فإن كان كل شيء يعود إليه ويرجع، فليرجع المؤمن إليه في مصابه وليصبر وليحتسب ويستحضر رحمته سبحانه في الأخذ كما في العطاء، وحكمته في الأخذ كما في العطاء، في الزيادة وفي النقصان، في الصحة وفي المرض.

والآيات تشكّل دعامة قوية لكل من يتعرض لابتلاء. والإنسان مؤمنًا كان أو كافرًا يتعرض للابتلاء والمصائب، إلا أن التفاوت يكون بتلك الحصانة التي تؤسسها سورة البقرة. فما بين الصبر والصلاة والدعاء، تهدأ النفس وتسكن الروح وتثوب إلى خالقها مستعينة به على ما تمر به، وتعلل نفسها ببشارة الله سبحانه لها على صبرها.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧][102].

إنها منظومة الهداية التي تحمي المؤمن من التخبط والوقوع في شَرك الأحزان المتواصلة والندم على ما فات، والعجز عن استقبال الأحداث الصعبة وتجاوزها للاستمرار في السير في طريق الحياة بما يرضي الله. وما بين الصلوات والرحمة المتنزلة على قلوب المؤمنين بالله، يصل المؤمن إلى برّ الهداية.

---

١٠٢. جاء في الجامع الصحيح للإمام البخاري في باب الصبر عند الصدمة الأولى: قال عمر رضي الله عنه: نعم العِدلان ونعم العِلاوة: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. اهـ .. وهذا الأثر وصله الحاكم في المستدرك من طريق جرير عن منصور عن مجاهد عن سعيد بن المسيب عن عمر كما ساقه المصنف وزاد «أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ» نعم العدلان «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» نعم العلاوة وهكذا أخرجه البيهقي عن الحاكم، وأخرجه عبد بن حميد في تفسيره من وجه آخر عن منصور من طريق نعيم بن أبي هند عن عمر نحوه، وظهر بهذا مراد عمر بالعدلين وبالعلاوة، وأن العدلين الصلاة والرحمة، والعلاوة الاهتداء، وقد روي نحو قول عمر مرفوعًا أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ- «أعطيت أمتي شيئًا لم يعطه أحد من الأمم عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون» فأخبر أن المؤمن إذا سلم لأمر الله واسترجع كتب له ثلاث خصال من الخير الصلاة من الله والرحمة وتحقيق سبل الهدى. اهـ مختصرًا. قاله الحافظ ابن حجر في فتح الباري ط دار المعرفة - بيروت (١٧٣/٣).

ومن تلك النقطة المحورية، تنطلق التعاليم والتشريعات الرّبانية تباعًا: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]

وكان المسلمون يتحرّجون في السعي بين الصفا والمروة[103]، وقد نُصّب عليهما الأصنام، فجاءت الآية لتبيّن أن القلب الذي مليء بالتوحيد والإيمان والإدراك والشعور بأن الله واحد، لا يضره إن كان ثمة صنم على ذلك الجبل أو ذاك، لا يضره الأمر، ومكة لم تزل تحت سلطة المشركين.

«فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ».

ثم تتوالى الآيات في الحديث عن كارثة كتمان الحق في سياق التحذير والترهيب من ذلك المسلك المعوج في التعامل مع الكتاب؛

١٠٣. روى مسلم في صحيحه (١٢٧٧) عن عروة بن الزبير أنه قال لعائشة رضي الله عنها: إني لأظن رجلاً، لو لم يطف بين الصفا والمروة، ما ضره، قالت: «لم؟» قلت: لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ - [البقرة: ١٥٨] فقالت: ما أتم الله حج امرئ ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة، ولو كان كما تقول لكان: «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما» وهل تدري فيما كان ذاك؟ إنما كان ذاك أن الأنصار كانوا يهلون في الجاهلية لصنمين على شط البحر، يقال لهما إساف ونائلة، ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة، ثم يحلقون، فلما جاء الإسلام كرهوا أن يطوفوا بينهما للذي كانوا يصنعون في الجاهلية، قالت: فأنزل الله عز وجل (إن الصفا والمروة من شعائر الله) [البقرة: ١٥٨] إلى آخرها، قالت: فطافوا.

فليس ثمة ما يبرر كتمان الحق بعد أن أظهر الله سبحانه آياته لتتلى وتطبق لا لتُكتم: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) [البقرة: ١٥٩]. والحديث وإن كان عن فريق من اليهود كتموا ما جاء في التوراة، إلا أنه عام في حق كل من آتاه الله منهجا يُتلى.

ذكر الطبري رحمه الله أنه معنيٌّ بها كل كاتم علمًا فرضَ الله تعالى بيانه للناس: (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [البقرة: ١٦٠].

والكلام عن التوبة والإصلاح وتصحيح ما قاموا به من كتمان للبينات والآيات دليل على أن الذي حال بين هذا الفريق الذي كتم الحق من بني إسرائيل وبين إظهار الحق، إنما هو الأطماع البشرية التي خشي هؤلاء من فواتها إن أظهروا الحق، سواء أكان نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام أو عموم الحق. وفي ذلك تأكيد للأمة المسلمة أن الحق أعظم ما ينبغي أن تدافع عنه وأن تتبناه في حياتها و تشريعاتها، ولكي يصبح الحق هو أعظم حقيقة في نفوس أتباعه، ولكي يصبح ذلك الحقَ الذي لأجله تُضحى الأرواح وتبذل الأموال والنفوس، ولكي يصبح بهذه المنزلة العظيمة.

وهذا يتطلب أن يعرف الإنسان عظمة الرب سبحانه الذي شرّع وأنزل من خلال آياته المبثوثة في الكون كما هي مقروءة في القرآن الكريم: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنهارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي

تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فالإنسان يعيش بين نوعين من الآيات: آيات مرئية محسوسة من خلق السماء والأرض والنجوم، وآيات في كتاب الله تُقرأ ليُفهم منها الحكمة من وراء الخلق وكيفية حفظه له من خلال اتباع أوامر الله وتعاليمه في التعامل معه.

وتتضح الحكمة من الربط في السياق بين الحديث عن آيات الله في الكون وما سيأتي بعدها من تشريعات أسرية ومجتمعية واقتصادية في السورة، لعل من جوانب تلك الحكمة: تقوية التوحيد والإيمان بعظمة الله سبحانه وقدرته في الكون والنفس، فينطلق الإنسان في تطبيق أوامر الله في حياته بصدق وعزيمة. ومنها كذلك لفت الأنظار إلى دقة الصنع في الخلق وجمال السير وفق سنن الله في الكون، فالكون يسير وفق ما أمر الله وما خُلق له ولا يملك أن يحيد عن ذلك قيد أنملة. فإذا ما سار الإنسان على نهج الله في نفسه وأسرته ومجتمعه، تراءت له دقة الصنع وكمال الإتقان وجمال التشريع والسير وفق أمر الله سبحانه.

فهذه الآيات المحسوسة، وهذا الزخم والحشد من الآيات المرئية تحتاج إلى من يتعقلها ليتوصل إلى محبة الله سبحانه وتعالى وتوحيده؛ محبة لا يُقدم عليها محبة غيره.

ولذلك جاءت مباشرة الآية التي تليها، تعيب على أصحاب العقول المختلة الضعيفة ممن ذهبت عقولهم فاتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ **[البقرة: ١٦٥]**.

والآية جاءت لتكشف سخافة تلك العقول وجهالة أصحابها وضلالهم فكيف لعاقل أن يتخذ ندًّا من دون الله، وقد عاين تلك الآيات من حوله.

كما أن المحبة من أعظم دواعي الاتباع، فالإنسان جُبل على اتباع من يحب؛ فإذا أحبّ العبد خالقه سبحانه، كان اتباعه له أقوى وأعمق وتمسكه بشرعه أولى وأجدر.

فالأوامر والنواهي والتشريعات التي ستأتي تباعًا في سورة البقرة ليست مبنية فقط على الأمر والنهي المجرد، أبدًا، إنما هي مبنية على علاقة قوية تصنعها سورة البقرة بين الله - سبحانه وتعالى - وبين العبد الذي يتلقى المنهج الرّباني. إنها علاقة المحبة.

سورة البقرة العظيمة تبني علاقة الإيمان والحب لله سبحانه وتعالى، فإذا جاءت الأوامر، كان تطبيقها منبثقًا عن حب ورغبة في العطاء.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، فلا يُقدّم على محبة الله شيئًا، وكلما قوي تأمل العبد في صنع الله وآياته في الكون والخلق والكتاب، اشتد

حبه وشهد قلبه آثار رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ المبثوثة في كل شيء، ليس فقط في الكون، ولكن: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

«وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» أنفسهم حين قدّموا محبة غيره على ربهم عَزَّ وَجَلَّ، «وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ»، لو عاينوا العذاب؛ مشاهد يوم القيامة لأدركوا حجم خسارتهم الحقيقية بعد فوات الأوان.

وذكرُ القوة في الآية يظهر جانبًا آخر يتعلق بالاتباع، فالإنسان إن لم يتبع المنهج الرّباني، سار وراء مناهج غيره، تضله بعيدا عن طريق الهدى. في حين أن القوة لله جميعا لا لسواه. إلا أن أولئك الذي يتبعون مناهج غيرهم يعيشون في وهم قوة غير قوة الله – سبحانه وتعالى –. ذلك الوهم الذي يستيقظون منه حال معاينة العذاب يوم القيامة.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

فهؤلاء كانوا لقمة سائغة لمن استولوا عليهم وسيطروا على عقولهم، وتحكموا في قراراتهم فاخترعوا لهم أحكاما وقوانين وتشريعات من دون ما شرّع الله عَزَّ وَجَلَّ في الاقتصاد، و الأسرة، و الحياة، و الميراث وفي كل ميادين الحياة.

وواقع الأمر أن تلك الفئة المستضعَفة كانت لديها القابلية لأن تُستعبَد لبشر يتحكم في حياتها وفي تصرفاتها، وهنا يقدّم القرآن العظيم المشهد الغائب الحاضر يوم القيامة حين يتساقط الأتباع: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

وهنا رأى هؤلاء الحقيقة التي غابت عنهم: أن القوة لله جميعًا في الدنيا والآخرة. تلك الحقيقة إن لم تستقر في النفوس، تخبطت في خطوات الشيطان و اتباع القوانين المضللة، لتقع في أسر القيود والأغلال في عقولها وقلوبها. لقد سُلبت تلك النفوس الضعيفة نعمة التعقل والتفكير والتوصل إلى حقيقة التوحيد، وحقيقة أن القوة لله جميعًا، وأن الله شديد العذاب لمن خالف منهجه في واقع الحياة، وبدّل منهجه وتشريعاته في الواقع.

ولذلك جاءت الآية التي تليها مباشرة (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة:١٦٨-١٦٩].

والآية توضح أن السير وراء خطوات الشيطان وطرقه يسوق الإنسان إلى تحكم الشيطان في حياته حتى يصبح الآمر الناهي (يأمركم)؛ فالمنهج الشيطاني يضلل ويذهب بالإنسان بعيدًا عن خالقه عَزَّ وَجَلَّ ليتقول على الله سبحانه بما لا علم له: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقد يقول هؤلاء إن شريعة الله عَزَّ وَجَلَّ لا تصلح للتطبيق في هذا الزمن؛ فالعالم قد تطور، والأحكام التي جاءت في سورة البقرة والقرآن ما عادت تصلح لأن تُطبّق في هذا العصر!.

فالشيطان يزيّن للإنسان خطوة خطوة؛ ليوهمه أن المنهج الذي جاء في القرآن غير صالح للتطبيق في الواقع المتغير.

ثم تستمر الآيات لتقدم بتسلسل رائع نماذج لأنواع التبعية لغير الله، فمن التبعية للأقوياء، وتبعية الشيطان بكل أشكاله وأنواعه، إلى تبعية الآباء والأجداد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] .

والآيات تقرر أن الإنسان حين يسير متخبطًا بعيدًا عن اتباع منهج الله سبحانه وتعالى في واقعه، فلابد أن يقع في تبعية غيره.

والقرآن يفكك إشكالية التبعية للقديم المألوف لا لشيء إلا للاعتياد عليه، فالنفس تألف ما اعتادت عليه، ويصعب عليها أن تنسلخ من عاداتها وتقاليدها وأعرافها وبيئاتها وأحكام آبائها وأجدادها.

إلا أن القرآن لا يكتفي بتفكيكها، بل يواجه أصحابها بالحقيقة التي لا يريدون الاعتراف بها: «أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ». النفس تألف الشيء، ولكن ماذا لو كان في ذلك الشيء الخراب والدمار؟!.

لقد عاب القرآن عليهم أن أغلقوا كل منافذ الإدراك التي وهبها لهم الخالق، فما عادوا يسمعون صوتًا إلا الباطل الذي في رؤوسهم.

وما تلبث الآيات العظيمة بعد أن مهدت الطريق وأزاحت عن القلب والعقل كافة الحواجز والموانع التي تقف بينهما وبين تطبيق شرع الله سبحانه، تنتقل إلى بيان مقاصد الأوامر والنواهي؛ فالشريعة بأحكامها العظيمة جاءت لتحقق المصالح وتدرأ المفاسد وتصلح للإنسان معاشه ومعاده.

من هنا جاءت الأوامر مفتتحة الخطاب بنداء محبب إلى النفوس:« يا أيها الذين آمنوا».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. (١٧٣)

لقد ابتدأت الآيات بالحديث عن الطعام، فالجسد وما يدخل فيه أمانة بكل جزئياته، فلا بد أن يقام على الحلال الذي ارتضاه الله لعباده؛ فالشراب والطعام عناصر الحياة للجسد الإنساني وبهما قوام معيشته، فكان الحديث عما أحل الله وحرم من أوائل ما يبتدأ به.

وقد تتضح الحكمة للإنسان من المنع والتحريم للميتة والدم ولحم الخنزير من خلال مضارها الجسيمة على الصحة وقد لا تتضح، إلا أن

المؤمن يتلقى الأوامر بالسمع والطاعة والامتثال للأمر الإلهي ولو لم تظهر حكمته أو تُفهم مقاصده.

وما تلبث الآيات العظيمة أن تلفت الأنظار إلى الربط بين الأكل الحسي الممنوع وما يمكن أن يُطلق عليه الأكل المعنوي المحرّم: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ).

فقضية التلاعب بأحكام الكتاب والمتاجرة بالدين لتحقيق مصالح دنيوية عاجلة ومكاسب مادية ،لهي نوع من تناول الحرام ليس إلا. من هنا جاء التعبير بقوله سبحانه: (ما يأكلون في بطونهم إلا النار)؛ فكم من الأشخاص يتورعون عن تناول لحم الخنزير إيمانًا بحرمة تناوله- وهذا أمر محمود تماما- إلا أنهم لا يتورعون عن المتاجرة بالدين والتعامل بالربا وتضييع المال العام وأكل أموال الناس بالباطل، وتضييع حقوق الآخرين ولا يرون في ذلك حرامًا كحرمة تناول لحم الخنزير والميتة.

من هنا ربط القرآن العظيم في الآيات بين هذه المحرمات كلها ليبيّن أن الحرام واحد، وإن تعددت صوره وتغيرت أشكاله، لكن الحرام

كل ما حرّمه الله والحلال ما أحلّه. وما كان ذلك إلا بسبب إيثارهم العاجل على الآجل الذي أوضح القرآن الكريم نهايته.

ذلك الإيثار للدنيا الفانية على الآجلة أوقعهم في التنافس والاختلاف: (وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد)؛ فالاختلاف في الكتاب فيما بين الأمم سواء أكانوا أهل التوراة أو الإنجيل أو القرآن حاصل من قبل الأهواء والمصالح الشخصية التي تتضارب، فتوقع البشر في صراع ونزاع وشقاق وضلال بعيد؛ ذاك الصراع الذي قد يُزج بالدين فيه ليصبح أداة من أدوات النزاع، يشهره كل فريق في وجه الآخر وفق مصالحه.

هذا النزاع العميق تجذرت أصوله وقواعده ومبادئه وتتجذر؛ لأنه لم يُصنع على عين تشريعات ربانية، لا تحابي أحدًا، وإنما صُنع على عين تشريعات بشرية صاغتها أهواء محمومة ومصالح مشؤمة، أدت بها إلى كتمان الحق الذي سرعان ما جرّ العالم كله إلى بؤرة من الحمم.

وتواصل التشريعات والأوامر والنواهي ظهورها في سورة البقرة، ولكنها أوامر ونواهٍ مبنية على محبة الله عز وجل والإيمان العميق بأن الصلاح والخير في اتباع المنهج الرباني. وتؤسس الآية منذ البداية في قوله عز وجل:(لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي

الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [البقرة: ١٧٧].

فالتشريع في حقيقته ليس لأجل الشكل والمظهر ولا الهيئة الخارجية وإن كان ذلك جزءا منها، ولكن الأصل في كافة الأوامر والنواهي الصدق مع الله وتحري التقوى والتزامها. والغرض الأساس من تلك التشريعات هو الوصول إلى الهداية التي لا يمكن أن يكون محلها إلا قلب يتقي الله في مشاعره وتصرفاته وسلوكه .

فأوامر الله سبحانه وتشريعاته بنيت على إيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، لينعكس ذلك الإيمان في السلوك والواقع بكل تفاصيله: (... وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [البقرة: ١٧٧]، فالآية تتحدث عن صدق، و تقوى، و تصرفات وسلوكيات وانعكاس لعلاقة الصدق مع الله سبحانه وتعالى وتقواه.

ثم تتنقل الآيات بعد ذلك وتتحول إلى مقصد الحفاظ على النفس الذي هو ضرورة من ضروريات التشريع في الواقع[104]، ولذلك جاء التشريع

١٠٤. الحفاظ على النفس أحد مقاصد التشريع وأحد ضروريات التشريع الخمسة وهي:

بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وهنا يأتي القرآن على ذكر كل التقاليد البالية التي انتشرت بين الناس في بيئة التنزيل الأولى من ثأر وانتقام وحروب وسفك للدماء وما شابه، تلك التقاليد التي تعكس ضآلة قيمة الحياة الإنسانية، بل قيمة الإنسان.

ثم تنتقل الآيات فتبيّن: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فالقصاص شُرّع؛ لأجل حياة المجتمع والحفاظ على الأرواح البريئة التي لا ينبغي أن تُزهق دون وجه حق. فالقاتل في جريمة القتل العمد يُقتل ويُقتص منه لتبقى أرواح الأبرياء في المجتمع آمنة.

فالعقوبة حين لا تكون رادعة صارمة، يحدث تسيب في المجتمع يسوق إلى انهيار في منظومة الأمن الذي جاء الشرع لتحقيقه في حياة الناس، ولذلك ما أعظم التعبير في قوله!: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل والعرض، والمال. قال الشاطبي في الموافقات – ط١ دار ابن عفان (٣/ ٢٣٦): «الأصول الكلية التي جاءت الشريعة بحفظها خمسة، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال».

والآيات رغبّت في العفو وذكرّت الإنسان بأخوّته للإنسان ولو كان قاتل ابنه أو أخيه، وفتحت الباب واسعًا أمام العفو عن القاتل أو قبول الدية عن طيب نفس. أما أن يُترك القاتل دون عقوبة فذلك سيؤدي إلى انتشار فوضى الثأر والانتقام في المجتمع. وفي الآية تعظيم لمنزلة الأخوة التي لا يسقطها القتل وإعلاء لشأن الحفاظ عليها وترك أسباب قطعها.

ثم تنتقل الآيات من تشريع الحفاظ على النفس إلى تشريع الحفاظ على الأموال والوصايا والصدق في تحملها وأدائها في كل أشكالها وصورها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]

والتقوى قضية حاضرة تصون العلاقات الإنسانية والمالية من التلاعب بها أو التهاون في أدائها.

جاء في ختام الآية: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١].

فالمراقبة مراقبة ذاتية، تقوم على استحضار أن الله يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، وأنه سبحانه يعلم السر وأخفى، وأن المؤمن الحق يؤدي أمانة الكلمة ولو قيلت له سرًا ولم يطلع عليها أحد من البشر.

ثم تنتقل الآيات للحديث عن عبادة الصوم العظيمة التي تهذب النفس وتطهر الروح لتقوى الإرادة الإنسانية وتشتد عزيمتها أمام المواقف الحياتية المختلفة. ومقاصد الصوم في السورة واضحة فهي تربي الفرد وتقوي إرادته، فالصوم يصل الإنسان بخالقه، ويصفّي ويخلص النفس من شوائبها، ولذا نصت الآية على ذلك: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: ١٨٣].

فعبادة الصيام حين يقوم بها الإنسان على أتم وجه جديرة بأن تصل بالإنسان إلى مرحلة التقوى التي لا يمكن أن تكون للمجتمع والفرد قيمة دونها؛ فالتقوى ضمانة وحصانة، وسياج للتشريعات الإلهية وكيفية تنفيذها في واقع الحياة.

التقوى ليست مجرد حالة نفسية بعيدة عن الواقع، التقوى تُخلق في القلب، ثم ينفعل هذا القلب مع الجوارح لتحقيق المنهج الرّباني والسير عليه والانقياد لأمره والخضوع لما جاء فيه.

وتتوالى الآيات في الحديث عن الصوم، ويؤكد الله - سبحانه وتعالى - أن الغرض من فرض الصيام ليس تعذيب الجسم ولا الشعور بالجوع بالنسبة للبطن أو الحاجات المادية للإنسان، قدر الشعور بتقوى الله، فالأصل في التشريع التيسير وليس التعسير فيقول سبحانه:(... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ...) [البقرة: ١٨٥] وهذه المعاني التي جاءت في الصوم، إنما جاءت لتحقق معاني التقوى.

وتحتفي الآيات العظيمة بشهر الصوم احتفاءً بالكتاب الذي أنزلت أول آياته فيه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ...﴾ [البقرة: ١٨٥]، وكأن عبادة الصيام إنما جاءت تشريفًا لذلك المنهج الرّباني الذي أنزله سبحانه وتعالى في رمضان.

ولا تنفك الآيات عن التذكير بالشكر على نعمة التشريع التي فتحت الباب للإنسان ليتصل بخالقه ويتقرب إليه بالطاعات، فيرتفع بها وترتقي روحه وتزكو نفسه بأدائها على الوجه الذي أمر به الحق سبحانه: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥] .

فالأوامر والتكاليف ولو تخللتها بعض المشقة، إلا أنها ليست عبئًا ولا قيودًا، والنواهي ليست كبحًا لجماح حرية البشر قدر ما هي تحرير له من الوقوع في أسر شهوة عابرة أو نزوة سافرة.

وتلازم عبادةَ الصوم ألوان زاهية من العبادات؛ فتلاوة القرآن والدعاء والصلاة ،كلها تزكي النفس من وعثاء الطريق وأعباء الحياة.

والملاحظ أن الحديث عن تزكية النفس والروح حاضر بقوة في آيات السورة وتشريعاتها، فما بين التشريعات يأتي الحديث عن العبادات:﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فالتكليف قائم على التقرب إلى الله سبحانه واستجلاب رحمته والسؤال منه، ذاك السؤال الذي هو في حقيقته تلبية لأمر الله سبحانه في التوجّه إليه والطلب منه.

هذه العلاقة العظيمة بين العبد وربه علاقة تستدعي من العبد الاستجابة، وتستدعي منه كلما حزبه أمر أن يفزع إلى الخالق سبحانه بالدعاء.[105]

ثم تنتقل الآيات العظيمة لتُدخِل التقوى في أدق العلاقات الإنسانية وأخصها؛ ما بين الزوج وزوجته. التقوى حاضرة في هذه الجزئيات، والقرآن يهذب تلك العلاقة الجسدية ليجعلها ترقى إلى مستوى يليق بإنسانية الإنسان وكرامته، فيحيطها بالستر والاحتشام من كل جهة. وتختم الآية في الحديث عن العلاقة الزوجية لتبين حدود تلك العلاقة فتقول: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) [البقرة: ١٨٧].

والحدود خطوط توضّح للمؤمنين ما لهم وما عليهم من حقوقٍ وواجباتٍ ومسؤوليّات؛ لتنظّم حياتهم وتدفع عنهم شر الظلم والاعتداء؛ ففي مسائل

١٠٥. فعند أحمد في مسنده ط الرسالة (٢٣٤/٤) برقم (٢٤١١)، مسلم (٢٧٣٠) وغيرهما واللفظ لأحمد، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله – ﷺ – كان إذا حزبه أمر، قال: «لا إله إلا الله الحليم العظيم، لا إله إلا الله رب العرش الكريم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم» ثم يدعو.

الزّواج والطّلاق وضعت الشّريعة الإسلاميّة للمسلمين المنهج الواضح والحدود التي تضمن حقوق كلّ طرفٍ وتمنع الاعتداء عليها.

وهي في ذات الوقت ابتلاء واختبار وامتحان لإرادة الإنسان الذي يتمرن على تقوية إرادته أمام الشهوات والوقوف أمام الخطوط الحمراء دون تجاوزها من خلال العبادة. فمن تعلّم واعتاد الوقوف عند حدود الله مع نفسه وفي علاقته مع زوجته، هو الإنسان المؤهل للحفاظ على تلك الحدود في تعامله مع الآخرين.

الحدود هي الخطوط الحمراء التي وُجِدت؛ لتحقيق الأمن وحرية الإنسان في أبهى صورها. تجعل الإنسان حرًّا قادرًا على تجاوز الشهوات، فالحرية الحقة التي جاء بها هذا المنهج لا تتوج إلا بالوقوف عند حدود الله.

من هنا انتقلت الآيات العظيمة من محيط الأسرة إلى الحديث عن أموال الناس، فالإنسان العاجز عن الوقوف عند حدود الله في محيط أسرته، أنى له أن يقف خارجها!.

أما الإنسان القادر على عدم تجاوز الخطوط الحمراء ومراعاة حدود الله - سبحانه وتعالى - هو الإنسان القادر على ألا يأخذ شيئًا ليس له بحق، ولا يأكل أموال الناس بالباطل.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾.

والقرآن العظيم يعبر بالأكل عن أخذ مال الغير بغير حق، فالإنسان يأخذ المال الذي هو عصب الحياة فيأكل به ويشرب، فلا يبقى فيه عرق إلا ودخله الحرام. من هنا جاء في الحديث الصحيح: ((كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به)) .

وتنتقل الآيات بعد الحديث عن المال إلى الحديث عن حرمة البيوت وأمنها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. (١٨٩). وهنا تظهر عظمة تعاليم القرآن في حماية البيوت وصيانة حرمتها والترقي بعادات الناس في آداب الدخول والخروج. فقد كان القوم في الجاهلية إذا أراد أحدهم سفرا وخرج من بيته، لم يدخل البيت من بابه، ولكن يتسوره من قبل ظهره؛ ظنا منهم أن ذلك أقرب للبر. فنزل القرآن الكريم ليصحح المفاهيم ويعدّل التعاليم ويهذب النفوس بتعليمها بأن البر في التقوى وإتيان البيوت من أبوابها المعروفة. وفي ذلك دلالة على الترغيب في إتيان الأمور من وسائلها المشروعة وطرقها المعروفة الموصلة إليها.

والتقوى الفردية حين تنتعش في النفوس تصبح حصانة للفرد والمجتمع، حصانة للأمة، يأمن فيها الإنسان على نفسه و على بيته. ذاك أن البشر الذي تعلّم الخوف من الله لا يُخاف منه على شيء ولا على أحد.

وتنتقل الآيات بعد ذلك إلى قضية الدفاع المشروع عن النفس والإذن بالقتال:

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

والأمر بالدفاع عن النفس والقتال جاء بعد سلسلة من الأوامر والتوجيهات الشخصية التي دخلت في حياة الفرد، و في أدق العلاقات الخاصة بين الزوجين، وفي المال، وفي العطاء، وفي حرمة البيوت، ثم انتقلت إلى القتال.

ذاك أن المجتمع الذي لا يستطيع أفراده أن يحافظوا على حدود الله وتشريعاته وقوانينه في حياتهم الخاصة وفي أموالهم وفي سلوكهم مع الآخرين فيما بينهم، لن يتمكنوا من الدفاع عن قيمه ومبادئه خارجها.

إنها التقوى والوقوف عند حدود الله، فمن يراعي حدود الله سبحانه وتعالى ويتقيه في أدق العلاقات الإنسانية، هو الإنسان القادر على حماية مجتمعه ومكتسباته.

أما إن كان عاجزًا عن أن يحمي المجتمع من نفسه، وطغيان شهواته، فامتدت يده إلى الحرام فأكل أموال الناس، فهو أعجز عن حماية أسرته ومجتمعه.

وثمة فرق واضح بين مفردة القتال والجهاد. فالجهاد كما جاء في «لسان العرب: «استفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل». والجهاد في المعنى الاصطلاحي: «بذل الوسع في المدافعة والمغالبة في كل ميادين المدافعة والمغالبة وليس فقط في ميادين القتال»؛ فالجهاد أعمّ بكثير من القتال؛ فالقتال هو الاستثناء وليس الأصل والقاعدة في التعامل بين الدول والشعوب.

وتبقى منظومة التقوى واضحة في كل التعاليم الإنسانية حتى وقت القتال: «وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»؛ فالعدوان بكل صوره على الآخرين وأموالهم وأعراضهم محرّم بكل أشكاله وصوره.

وتنتقل الآيات في الحديث عن تفاصيل القتال وآداب وتشريعات القتال، ولم شُرِّع القتال، كحماية النفس والدفاع عنها وحماية لمكتسبات الأمة، لتختتم هذه الآيات أيضًا بقوله عَزَّ وَجَلَّ: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ...) [البقرة: ١٩٤]. وتأتي التفاصيل

لتعكس عدالة التشريع في استرداد الحقوق والدفاع عن النفس، فلا يحق للإنسان أن يدفع عن نفسه الاعتداء بعدوان أكثر.

ومن المتعارف عليه أن الحروب يحدث فيها سفك للدماء وقد تزهق أرواح بريئة من نساء وأطفال أبرياء وحالات اعتداء وانتهاكات لحقوق الإنسان، فما الذي يردع البشر عن كل هذا؟! هنا تأتي الآية العظيمة: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [البقرة: ١٩٤].

إنها التقوى؛ الضمان الوحيد والحصن الحصين لمراعاة حقوق الإنسان وحمايتها من كل اعتداء وتجاوز.

لقد مرّ تشريع القتال في الإسلام بعدة مراحل، ففي المرحلة المكية كان المؤمنون مأمورين بالصبر وكفّ الأذى كما قال الله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) سورة النساء :٧٧، ثم لما انتقلوا للمدينة وصارت لهم دولة أذن لهم بالقتال ولم يفرضه عليهم قال سبحانه: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) سورة الحج:٣٩، ثم جاء الأمر بقتال من قاتلوا، قال عز وجل: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ).سورة البقرة:١٩٠.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «لما بعث نبيه وأمره بدعوة الخلق إلى دينه، لم يأذن له في قتل أحد على ذلك ولا قتاله حتى هاجر إلى المدينة فأذن له وللمسلمين بقوله تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ

ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ). ثم إنه بعد ذلك أوجب عليهم القتال بقوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).البقرة:٢١٦.

ولم يكن تشريع القتال في الإسلام خارجًا عن مقاصد الرسالة الخاتمة وما جاء فيها من قيم إنسانية عليا تتمثل في إقامة العدل، والحرية والمساواة بين البشر. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ). المائدة:٨.

فالعدل والإنصاف منهجٌ دقيق يُمثّل جميع صور القسط والعدل مع القريب والبعيد، المخالف والموافق دون تمييز بين مسلم أو غير مسلم، بل ينهى عن جميع صور الجور والظلم مع كلِّ أحد؛ فمبدأ الظلم محرم بكل حال، فلا يحل لأحد أن يظلم أحدًا مهما اختلف معه. من هنا كانت أعظم مقاصد تشريع القتال تحقيق العدالة.[106]

١٠٦. – للمزيد حول هذه المسألة، انظر بحثنا: قراءة مقاصدية في جهاد النبي الكريم ﷺ مقصد العدالة أنموذجًا. مجلة الشهاب، المجلد الثالث، العدد الثاني، يونيو ٢٠١٧م.

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ قال ابن المنذر: «روينا عن ابن عباس أنه قال في قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ «ولا تقتلوا النساء والصبيان، والشيخ الكبير، ولا من ألقى إليكم السلم وكفّ لله، فإن فعلتم هذا فقد اعتديتم».

وهنا تتنتقل الآيات إلى الحديث عن الإنفاق والبذل والإحسان: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

فلا تلقوا بأيدكم إلى التهلكة، من خلال الشح والبخل وعدم الرغبة في البذل والتضحية والعطاء. ولذلك يكثر في آيات القرآن العظيم الحديث عن شح النفس[107] ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

١٠٧. قال الراغب في المفردات في غريب القرآن - ط١ دار القلم - بيروت (ص: ٤٤٦): «الشُّحّ: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة. قال تعالى: وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء/ ١٢٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ [الحشر ٩]. يقال: رجل شَحِيحٌ، وقوم أَشِحَّةٌ، قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ [الأحزاب ١٩]، ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب/ ١٩]»

وفي كل هذه الآيات والحديث عن العبادات، لا تغيب التقوى عنها؛ فهي السمة الظاهرة على كل الآيات والأعمال والعبادات. حتى كأن هذه الاعمال كلها، لا قصد منها إلا الترقي في هداية التقوى التي هي محور السورة ومقصدها الأعظم.

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن تعاليم جديدة في مدرسة ربانية فيها من العبادات والشعائر والبذل والتضحية ما يربي ويقوي الإرادة في نفس الإنسان؛ عبادة الحج.

تلك العبادة التي جمعت أشكالًا متعددة من الإنفاق، فيها بذل للنفس بالجهد البدني والمادي. تلك النفس التي تعلمت أن تجاهد شهواتها وتسمو فوق متاعبها، نفس قوية الإرادة، تبذل بسخاء لأجل غاية عظيمة ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] الإخلاص في العبادة.

فالحجّ مدرسة يتخرج فيه الإنسان قادرًا على العطاء والبذل، وقادرًا على تجاوز شحّ النفس، إنسان محصّن بالتقوى، إنسان زادت عنده التقوى، ولذلك تستمر الآيات في الحديث عن مدرسة الحج ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الحجّ مدرسة كبرى يتعلم فيها الإنسان الصبر والتضحية، يتعلّم أنه لن يُرفع عمله، ولن يُقبل إلا حين يكون خاليًا من الرفث والفسوق والجدال

والسُباب، يتعلّم كيف ينزّه الإنسان لسانه وعينه. يتعلم كيف يتجاوز ويغضّ الطرف عن عثرات الآخرين، يتعلم كيف يكون إنسانًا حقيقيًّا متسامحًا يبذل الخير للآخرين، يتعلم كيف يعفو وكيف يصفح، إنسان جديد إنسان تصنعه تلك المدرسة الرّبانية الموجودة في الحج.

الحجّ ليس مجرد شعيرة، بل هي حياة جديدة لإنسان فهم مقاصد الحج العظيمة ليرجع صفحة نقية أكثر قدرة على إصلاح نفسه وما حوله: «من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».[108]

والناظر في واقع الحجّ يرى فيه الاحتكاك الواضح بين البشر من مختلف الأجناس والأعراق، فهو رسالة عالمية يجتمع فيه المسلمون؛ ليتعارفوا ويتعلموا من بعضهم البعض، ويغفر بعضهم لبعض، فالحجّ مدرسة للتقوى، من هنا جاء الحديث عن زاد التقوى متصلًا بالحج: (... وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) [البقرة: ١٩٧].

ولن يزداد الإنسان في تقواه إلا حين يتجاوز الشحّ الموجود في نفسه والأنانية التي تحول بينه وبين البذل والعطاء. ولن ترتفع أسهم الإنسان في التقوى إلا حين يتربى على عين تلك التشريعات الإلهية. ويتضح من الآيات العظيمة وحثّها المتواصل على الذكر الذي لا ينقطع لله سبحانه

١٠٨. روى البخاري (١٥٢١) واللفظ له، ومسلم (١٣٥٠) – عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه سلم يقول: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

وتعالى، دليل على أن أعظم زاد للمؤمن في رحلة الحياة والموت والبعث وليس في رحلة الحج فحسب، هو الذكر. إذ أنه يذّكر الإنسان بغاية وجوده على الأرض ويردّه إلى جادة الصواب، فلا ينبغي له أن يستغني عنه طرفة عين، فأي لحظة خلا فيها قلب العبد ولسانه عن ذكر الله كانت عليه لا له.

كما أن الذكر يولّد التقوى في القلب ويذكي نورها، وما من زاد ينفع الإنسان في دينه ودنياه وآخرته كالتقوى.

(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)).

والتقوى خير ما يتزود به، وخير ما يرتديه الإنسان: (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) الأعراف:٢٦.

والربط بين الزاد والتقوى في الآيات عظيم؛ فالإنسان في رحلته كلها حتى يستقر به المقام، فيلقى الله سبحانه وتعالى يحتاج إلى زاد، والزاد في الأصل هو طعام وشراب يؤخذ ويعد للسفر والرحلة. فإذا أدرك الإنسان حاجته إليه، تزود منه قدر حاجته وأكثر إن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وحاجته للتقوى لا تعدلها حاجة؛ ففي الدنيا هي خير زاد. ومن ذلك ما ذكره سبحانه للمتقين، قال تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾. الطلاق:٢-٣. ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤)﴾. ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾. الطلاق:٥. والآيات في عظيم ثواب المتقين وكرامتهم كثيرة: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِين﴾ آل عمران:٧٦. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ التوبة:٤. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ التوبة:٣٦.

الأمر الذي يفهم منه المتدبّر طرفًا من حكمته سبحانه بالقول في ختام الآية: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾. أصحاب العقول الذين أدركوا أن لا شيء يستدعي أن يحرصوا عليه كحرصهم على التقوى. كما أن الله سبحانه تفضل على عباده ففتح لهم سبيل التقوى من خلال عبادة الحج العظيمة والحث على ذكره فيها. فما عاد الحاج من حجّه بأعظم من قلب تقي نقي. فلا يضره بعدها إن تعجل أو تأخر: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ

مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ). (٢٠٣)

وتظهر ثمرة ذلك الحجّ المبرور والتقوى التي تَزود بها الحاج في حياته وسلوكياته، فلا ازدواجية ولا نفاق اجتماعي ولا قبول بأي شكل من أشكال الفساد: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠).

زاد التقوى جعل الإنسان صادًا مكافحًا لكل أشكال الفساد في المجتمع. فالإنسان الذي تخرج في مدرسة الحج لا يقبل بمنهج الفساد والإفساد. صلح سرّه فانعكس ذلك الصلاح على علانيته، فلا يعيش حالة تناقض بين التقوى التي يحملها في قلبه والمنهج الذي يسير عليه في الحياة. ليس هناك تناقض بين قوله وفعله على نقيض الصورة التي تنقلها الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ

عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾. ثمّة تناقض وازدواجية، يقول شيئًا ويبطن غيره. الإنسان الذي تصنعه مدرسة الحج وتعاليم المنهج الرّباني وتصوغه التقوى إنسان سرّه خيرٌ من علانيته.

إنها التقوى التي تبدد ظلمات النفس وأنانيتها وشحها؛ لتجعل الإنسان يشري نفسه ابتغاء مرضات الله.

فلا يمكن أن يحدث الفساد إلا حين يتصور الإنسان أن ذاته وأنانيته قبل الآخرين، وأن مصلحته الضيقة فوق مصلحة الجميع، من هنا يأتي الفساد: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)﴾

من هنا كانت تعاليم سورة البقرة كفيلة بتحقيق السِلم الداخلي، فالأفراد القادرون على تحقيق السلم الداخلي مع أنفسهم والتصالح مع ذواتهم من خلال اتباع منهج الله والقيام بأوامر الإسلام، هم أولئك الذين يستطيعون تحقيق السِلم الاجتماعي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]

من هنا جاء الحديث من جديد عن خطوات الشيطان. إن الفرقة والنزاع والقتال والحروب والصراعات بين البشر، لا تكون من قبيل

تطبيق منهج رباني لا يرضى لعباده إلا الخير والإيمان والصلاح! إنها لا يمكن إلا أن تكون من قبيل الجري وراء الأهواء البشرية والشح النفسي.

وهنا يأتي التخويف والتحذير من الزلل والآيات البينات بين ظهرانيكم وتتلى عليكم: (فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)).

والزَّلَّةُ في الأصل: استرسال الرّجل من غير قصد، يقال: زَلَّتْ رِجْل تَزِلُّ، والْمَزِلَّةُ: المكان الزّلق، وقيل للذّنب من غير قصد[109]؛ فالإنسان إذا ترخّص فيها، واستسهل تلك الذنوب التي صدرت من غير قصد، صارت مسهلة لخطوات وسلطان النفس والشيطان عليه. ومنه قوله تعالى: (إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ) آل عمران: ١٥٥. فالعلاقة بين اتباع خطوات الشيطان والوقوع في الزلل وطيدة كعلاقة المقدمة بالنتيجة.

من هنا قدّم النهي عن اتباع خطوات الشيطان على الزلل؛ إذ إن السير وراء خطوات الشيطان يقود إلى الزلل.

فالشيطان يتدرج مع الإنسان المؤمن فيزيّن له التوسع في المباحات، ثم التساهل في المتشابهات، ثم محقرات الذنوب، وهكذا حتى يصل به إلى الزلل، ومن ثم الوقوع فيما هو أكبر.

١٠٩. - الراغب الأصفهاني، المفردات، مادة زلّ

وقد جاء النهي عن اتباع خطوات الشيطان في سورة البقرة في سياق ذكر الطعام كذلك؛ قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) [البقرة:١٦٨]؛ فتحري الحلال من الطعام قضية مركزية في حياة المسلم، لا تتعلق بتحريم الدم والميتة فحسب، بل تمتد لتشمل كل أشكال الحرام من غش وتدليس واختلاس وربا وتفريط في حقوق الناس.

أما أولئك المكذبون السائرون على خطوات الشيطان فماذا ينتظرون: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)).

ثم جاء الحديث مرة أخرى عن بني إسرائيل وعلاقتهم بالمنهج الرباني وكيفية تعاملهم مع آيات الله ونعمه: (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [البقرة: ٢١١]

الحديث عن الأمم السابقة من بني إسرائيل وتبديل النعمة في خضم الحديث عن نعم السلام، و الأمان، و اتباع المنهج، يؤكد أن الإنسان والأمم حين يستبدلون أهواءهم وأطماعهم بالمنهج الرباني، ويبدلون ما أنعم الله به عليهم من تعاليم وأوامر، فلن يكون هناك سوى العقاب بكل أشكاله المتنوعة وصوره. والقرآن يوضّح بعض أسباب الوقوع في ذلك: (

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ).(٢١٢)

ثم تنتقل الآيات لبيان نعمة الله على الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لتُحْكَم حياة البشر وتُفَض اختلافاتهم بالحق، ليصلوا إلى الهدى والحق. أما أولئك الذين جعلوا الاختلاف مطية لبغيهم في طلب الاستعلاء بغير حق، فما كان لهم أن يستهدوا بتلك الكتب ولا برسالات الأنبياء، لما رسخ في نفوسهم من البغي:(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [البقرة: ٢١٣].

والآية العظيمة في نصها على سبب الاختلاف في رسالات الأنبياء، حددته بكلمة (بغيا بينهم)؛ فهو البغي الذي حدا ببعض البشر؛ ممن يطلبون الاستعلاء بعلى غيرهم بغير حق أن يذهبوا إلى المخالفة والتنازع في رسالات الأنبياء وما جاء فيها من الحق البيّن (البينات)؛ ليحققوا مآربهم وأطماعهم.

وواقع الأمر أن كثيرا ما يستعمل الدينُ الحق مادة للنزاعات والصراعات من قِبل أهل البغي والظلم لتحقيق مآربهم والوصول إلى أغراضهم.

من هنا كان التدافع بين هؤلاء وهؤلاء، فجاء الحديث عن ثمن الثبات على المنهج الرّباني الذي جاء به كل الأنبياء :(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) [البقرة: ٢١٤]؛

فالثبات على الحق يحتاج إلى تضحيات وبذل، وسنة الله في الخلق ماضية. فكان الحديث عن الإنفاق والعطاء والقتال لإعلاء القيم العظيمة التي جاء بها الأنبياء: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) [البقرة: ٢١٥]. من وجوه الإنفاق: التضحية، البذل، العطاء في سبيل الله واتباع المنهج وكل ما يدخل فيها من قيم الخير التي يعلمها الله. وفي الآية بيان لما يمكن أن يتعرض له الإنسان من بأساء وضراء ومشقة في ذلك.

ومن بعد الحديث عن بذل المال، يأتي الحديث عن بذل النفس ولو كان مما جبلت النفوس على كراهته: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة: ٢١٦].

فالقرآن هنا يربي تلك النفوس لتكون على استعداد للبذل والعطاء في سبيل إعلاء كلمة الحق وإرسائها.

إلا أن القرآن العظيم يعالج ذلك كله بواقعية أبعد ما تكون عن المثالية فالقتال كره: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ»، وهنا إشارة واضحة إلى واقعية التشريعات الإلهية؛ فالتشريعات الإلهية ليست مثالية، التشريعات الإلهية صادرة من رب يعلم ما يحبه البشر وما يكرهه وما يدور في خلجات نفوسهم، فهو السميع العليم :«كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ».

والكُره المشقة التي تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بإكراه.[110] ومما لاشك فيه أن القتال فيه مشقة، ولكنها من قبيل مشقة التكليف اللازم القيام به؛ لتحقيق غاية أعظم عبرّت الآية عنها بتأكيد أنه خير لكم: «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» .

فالإنسان حين يخرج مما يهواه ويحبه إلى ما يحبّه الله ورسوله، فيخرج إلى ما يكرهه لأجل تحقيق ما يكلفه الله سبحانه به، يكون قد خرج عن نفسه لأجل مرضاة ربه.

كما أن الآية العظيمة تؤكد محدودية علم الإنسان وتدبيره فقد يكره شيئا يرى فيه المشقة والأذى والضرر وهو في علم الله سبحانه المطلق وإحاطته وتقديره وحكمته ورحمته محض خير. من هنا يأتي التسليم والانقياد لأوامر الله سبحانه والوقوف عند حدوده ولو بدا للإنسان المحدود في علمه القاصر في نظرته، في تلك الأمور كره ، ولو بدا وقوعها.

١١٠. - الراغب الأصفهاني، المفردات، مادة كره.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[البقرة: ٢١٧-٢١٨]

وهنا تأتي الآيات بالتفاصيل التي تكشف عن طرف من تلك الحكمة الإلهية في التكليف بالقتال، فمن أعظم مقاصد الجهاد؛ حماية قيمة العدالة والإنصاف بين الناس، وعدم إهدارها بينهم؛ أي أن الله أمر بالقتال لصدّ العدوان والدّفاع عن الأعراض والحرمات، وحرّم الاعتداء والبدء بالقتال.

والإسلام كلّف الناس بتحقيق العدالة، بما يوجب مكافحة الظلم والبغي حيث كان؛ لا لغرض فرض الهيمنة والسيطرة واستعمار الشعوب، بل لتحقيق قيمة العدالة وحمايتها.

وقد ورد في الحديث: أن أعرابيًا قال للنبي عليه الصلاة والسلام: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال النبي ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».[111]

١١١. – رواه البخاري، حديث رقم ١٢٣.

فمناط القتال هو الحرابة والمقاتلة والاعتداء، وهذا يدل على أن الباعث الحقيقي على الجهاد، إنما هو دفع العدوان الظلم لا الكفر، بدليل أن غير المقاتل من المدنيين لا يُقاتل.[112]

والآيات تعلّم الإنسان المؤمن أن يتهيأ لمواجهة الصعوبات التي تواجهه في الواقع نتيجة تمسكه بمبادئ المنهج الرباني. ولذلك النبي - ﷺ - والمجتمع الأول الذي صنعته آيات سورة البقرة هَجَر مكة، وهو يحبها ويعشق ترابها، لكن حبّ الله وتعاليمه وتنفيذ منهجه أحب إليه مما أحب.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). إنه الإنسان القوي الإرادة والعزيمة، فلا تفلّه الشدائد والصعاب ولا تغيرّه الحوادث الجسام.

من هنا انتقلت الآيات من الهجرة من المكان الذي لا يتمكن فيه من العيش الكريم الذي يمكنّه من القيام بمهمة الخلافة بكل متطلباتها إلى هجرة الحرام الذي قد تألفه النفس وتعتاد عليه فلا ترى فيه ما يقلقها، إما بسبب ما تعارف عليه في بيئته أو لأسباب أخرى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ).

١١٢. - أخرجه أبو داود في سننه، ج ٣ ص٥٢، والبيهقي في السنن الكبرى ج ٩ ص ٩٠.

وقد نزلت هذه الآيات وكان القوم يعتبرون الخمر من الحياة الاجتماعية التي ألفوها، فكيف لهم أن يتخلوا عنها ويفارقوها: يعشقون ويحبون الخمر حبًّا جمًّا كيف يهجرونه، وهم يحبونه؟!

كيف يهجر شيئا اعتاد عليه؟! ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فالخمر والميسر فيهما منافع للناس؛ منافع جزئية نسبية، ولكن إثمهما أكبر من نفعهما، ومن هنا جاء التحريم من عند الله عَزَّ وَجَلَّ.[113]

١١٣. قال البغوي في تفسيره – ط دار طيبة (١/ ٢٤٩): وجملة القول في تحريم الخمر على ما قال المفسرون: أن الله أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة وهي: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال يومئذ، ثم نزلت في مسألة عمر ومعاذ بن جبل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] .. فتركها قوم لقوله ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وشربها قوم لقوله ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إلى أن صنع عبد الرحمن بن عوف طعامًا فدعا ناسًا من أصحاب النبي – ﷺ – وأتاهم بخمرٍ فشربوا وسكروا، وحضرت صلاة المغرب فقدموا بعضهم ليصلي بهم فقرأ «قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون» هكذا إلى آخر السورة بحذف «لا» فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فحرم السكر في أوقات الصلاة، فلما نزلت هذه الآية تركها قوم، وقالوا: لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة، وتركها قوم في أوقات الصلاة وشربوها في غير حين الصلاة، حتى كان الرجل يشرب بعد صلاة العشاء فيصبح وقد زال عنه السكر، ويشرب بعد صلاة الصبح فيصحوا إذا جاء وقت الظهر، واتخذ عتبان بن مالك صنيعًا ودعا رجالا من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقاص وكان قد شوى

فالتشريعات توازن بين المفاسد والمصالح، لينتهي إلى أن الأمر قد يحرّم، وفيه جزء من المنفعة إذا غلبت عليه المضرة والمفسدة.

والآية جاءت بآفة الخمر والميسر معا؛ لما بينهما من تلازم وإهدار للثروة المادية والفكرية للبشر.

يقول أبو حيان في ذلك: «ذَكَر اللهُ تعالى في الخَمْر والمَيْسِر مَفْسَدَتَيْنِ: إحداهما دُنيويَّة، والأُخرى دينيَّة، فأما الدنيوية فإن الخمر تُثير الشرور والأحقاد، وتَؤول بشاربها إلى التقاطع، وأما المَيْسِر فإن الرَّجُلَ لا يَزال يُقامِر حتى يَبْقى سَليبًا لا شَيء له، وينتهي إلى أن يقامِر حتى على

لهم رأس بعير، فأكلوا منه وشربوا الخمر حتى أخذت منهم، ثم إنهم افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الأشعار، فأنشد سعد قصيدة فيها هجاء للأنصار وفخر لقومه، فأخذ رجل من الأنصار لحي البعير فضرب به رأس سعد فشجه، فانطلق سعد إلى رسول الله - ﷺ - وشكا إليه الأنصاري فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فأنزل الله تعالى تحريم الخمر في سورة المائدة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) [المائدة: ٩٠، ٩١] وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب، قال أنس: حرمت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر. وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: لما نزلت الآية في سورة المائدة حرمت الخمر فخرجنا بالحباب إلى الطريق فصببنا ما فيها، فمنا كسر صبه ومنا من غسله بالماء والطين، ولقد غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حينا فلما مطرت استبان فيها لون الخمر وفاحت منها ريحها. اهـ

أهله وولده، وأما الدِّينيَّة فالخَمْر لِغَلَبة السرور والطَّرَب بها تُلهي عَن ذِكْرِ اللهِ وعن الصلاة، والميسر سواء كان غالِبًا أو مَغلوبًا يُلهي عن ذِكْر الله».[114]

إذ يبلغ الإهدار في هذا المجال حدًا يفوق المليارات. ولذلك خُتمت الآيات بقوله تعالى - داعيا الخلق إلى التفكر ومراجعة النفس للخلاص من هذه السلوكيات الخطيرة -: «يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» تفكّر في المال الذي يُهدر، في العلاقات التي تُهدم وفي البيوت والأسر التي تُحطم جراء هذه الأوبئة الفتاكة.

والقرآن العظيم كشف جوانب من مقاصد التحريم لهذه الكوارث الاجتماعية والإنسانية والمادية بقوله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) (٩١) سورة المائدة.

ومن مقاصد تحريم هاتين الآفتين ما يترتب عليهما من سوء التصرف في أمانة العقل وأمانة المال. تلك الأمانات التي جعل القرآن العظيم لهما مصارف خاصة؛ فالعقل من أعظم النعم على الإنسان، به كرّمه الخالق عزّ وجّل، وفضّله على سائر ما خلق وأوجب به التكاليف. الأمر الذي يقتضي الحفاظ عليه والقيام بذلك على أحسن صورة. وكذلك المال

١١٤. - أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م، ج٤، ص١٧

من أجّل الوسائل التي يقوم بها الإنسان بمهمة الاستخلاف وواجباتها، فأنى لعاقل أن يهدره ويضيعّه بالقمار!.

وثمة تلازم بين الخمر والقمار؛ من حيث إن الإنسان العاقل المكتمل النضج سيمنعه عقله ويحول بينه وبين إهدار ماله؛ فقد جرت عادة العقلاء على السعي في كسب المال وتحصيله والحفاظ عليه. فلا يقدم الإنسان على إهدار ما بذل الجهد في تحصيله وكسبه من المال إلا حين يضعف عقله وتتضاءل قدرته على التفكر في مآلات الأمور ونتائجها، فيتخبط بعيدا عن صوت العقل الذي أسكته وغطاه بتناول الخمر.

وعلى النقيض من إهدار الأموال في القنوات الموبوءة، تقدم الآيات أشكالًا من أوجه الإنفاق المشروعة من كفالة الأيتام والقيام بحقوقهم: (فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)... [البقرة: ٢٢٠].

وورد في سبب نزول هذه الآية ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ- عَزَّ وَجَلَّ: (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن)، (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا)، انْطَلَقَ مِمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مَالُ يَتِيمٍ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ، وَجَعَلَ يُفَضِّلُ الشَّيْءَ مِنْ طَعَامِهِ فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسَدَ، وَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ- ﷺ- فَأَنْزَلَ اللَّهُ- عَزَّ وَجَلّ: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ)،

فتخلطون طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم. والآية توضح أن القصد الحفاظ على أموال اليتيم، وما فيه تحقيق لمصلحته، وليس الوقوع في الحرج والعنت والمشقة.

ثم تنتقل بعد ذلك التعليمات والتشريعات إلى مؤسسة الزواج الذي يعكس بدوره صورة أخرى من صور الإيمان والتقوى؛ فالزواج ليس قضية جامدة أو مادية بحتة، بل هي علاقة وتعلق مادي وروحي ومعنوي وفكري، لا بد أن يقام على تناغم وانسجام في المشاعر والاعتقاد. وهنا تظهر عظمة هذا الدين في الارتقاء بالنفس البشرية حتى في أدقّ الحالات الحسية وأخصها.

من هنا جاء التحريم والنهي عن الزواج بين المشرك والمؤمن؛ للتناقض والتنافر الواضح بين الإيمان والكفر؛ فالزواج ليس علاقة مادية بدنية فحسب، بل علاقة أرواح وعقول وتآلف قلوب وتزاوج أفكار. فلا بد أن يكون ثمة مستوى معين للاتفاق والانسجام والتناغم بين الزوج والزوجة، وأنّى أن يتحقق هذا التناغم والتوافق، وهناك اختلاف جذري في الاعتقاد وفي الشعور في أهم قضية للإنسان!.

من هنا جاء الربط في الآيات بين العلاقة الفكرية الإيمانية والعلاقة الخاصة بين الزوجين، ليجعل منها علاقة مكملّة لذلك:

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ

وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)).

ثم تنتقل الآيات من الحديث عن الزواج في إطاره العام إلى الحديث عن تفاصيل دقيقة في العلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة في ذات السياق الارتقائي بذلك العمل الحسي البحث؛ لتحويله إلى عمل عبادي يسمو بسرّ الإنسان وخاطره ويسهم في تزكية جسده من كل حرام إلى الحلال المباح الذي يحقق العفة والطهارة.

وتُدخل الآيات العظيمة رقابة التقوى وظلالها على كافة الجزئيات والمشاهد، فتطهر تلك العلاقة وتنقّيها وترتقي بها لتجعل منها علاقة سامية تليق بالكرامة الإنسانية، مصانة بسياج من التقوى والطهر والعفاف.

والناظر في واقع الإنسانية اليوم، يلحظ ذلك البون الشاسع بين رقي القرآن العظيم بألفاظه ومعانيه حول تلك العلاقة الخاصة بين الزوجين، وبين الفوضى العارمة الحاصلة في مختلف وسائل الإعلام الحديث التي

جعلت تلك العلاقة تبدو وكأنها أقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسانية؛ فالدوران في فلك الشهوات وتلبية نداءاتها المحمومة ظهر في مختلف إيحاءات ورمزيات، بل وإفصاحات الكثير من وسائل الإعلام حول العلاقات الخاصة بين الرجل وزوجته التي أراد القرآن الكريم لها أن تبقى مقصورة في بيوت الزوجية مصانة بين جدرانها.

وتواصل الآيات العظيمة تهذيب النفوس وتربية العقول والوقوف بها عند الحدود التي تحول دون هبوطها إلى مستويات متدنية تدور مع شهواتها دون ضابط أو رابط: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وما بين التطهّر الحسي من الحيض والتطهّر المعنوي الذي جاء في سياق محبة الله سبحانه وتعالى لعباده المتطهّرين، تأتي التوبة التي هي غسل لأدران النفس والروح من الآثام والمعاصي؛ فكما حثّ الله سبحانه عباده على تطهير الجسد، حثّ على تطهير الروح والنفس من الآثام.

فالتقوى حالة تصقل الإنسان ومشاعره وسلوكه، تنبثق من قلب يستشعر مراقبة الله ولو كان في عمق داره: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

كما تعالج الآيات قضية تشيع في البيوت وبين أفراد الأسرة والزوجين بشكل خاص، تتمثل في كثرة الحلف والقسم بالله سبحانه. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦)﴾. فالقسم تعظيم المقسم به وتأكيد المقسم عليه، من هنا كان لابد من الحفظ عليه والحرص على الوفاء به، واستثنى من ذلك ما يقسم الإنسان عليه تلفظا دون قصد له بقلبه، فهذا مما يعفو الله سبحانه عنه. وفي هذا توجيه للارتقاء بألفاظ الإنسان وأقواله ومراقبته لما يصدر عنه بقصد أو بدون قصد. وقد يصل الحلف إلى درجة أن يقسم الرجل على أن يعتزل امرأته، فلا يقربها، ولا يعاملها معاملة الأزواج أكثر من أربعة أشهر. وكان إيلاء الناس في الجاهلية السنة والسنتين، وقد تَقضي المرأة عمرها كالمعلَّقة، فلا هي زوجة تتمتَّع بحقوق الزوجة، ولا هي مُطلَّقة تستطيعُ أنْ تتزوَّج برجلٍ غيره؛ فجاء القرآن ليعيد الأمور إلى نصابها ويوصد أي باب يجر على المرأة الظلم وهضم حقوقها، فحدد الأمر بأربعة أشهر لمراجعة الزوج نفسه.

وكما كانت التقوى حاضرة في الزواج، ظهرت تجلياتها في الطلاق والفرقة بين الزوجين، ثم تنتقل الآيات بعد ذلك إلى تفاصيل وإجراءات في العلاقة الزوجية، علاقة الطلاق، وعلاقة النفور التي قد تحدث: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧] وهنا يظهر نُبل الأخلاق

التي صُنعت على عين التقوى حتى في حال وقوع النفور بين الزوجين، فلا تتحكم المشاعر النفسية السلبية البشرية في الحكم على تلك العلاقة؛ فالذي يحكم العلاقة هو ذاك المنهج الرّباني الذي يقف حائلا بين الإنسان واتباع هوى نفسه في المحبة أو في غيرها.

فالتقوى تحول بين الإنسان وبين الاعتداء على المرأة – الطرف الذي قد يبدو الأضعف- لتجعل تلك العلاقات محكومة بمنطقها لا بمنطق الأهواء والأمزجة المتقلبة.

ثم تنتقل الآيات للحديث عن التفاصيل المتعلقة بحدوث الطلاق، وتأملوا كيف تكون التقوى حاضرة في كل هذه الجزئيات، يقول ربي عَزَّ وَجَلَّ: (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ...) [البقرة: ٢٢٨].

ما علاقة الإيمان بالله في مراعاة المعتدّة لعدّتها والفترة التي تعتد فيها ؟ الإيمان قضية فاعلة، الإيمان ما وقر في قلب الإنسان وصدقته أعمال الإنسان وسلوكياته وأفعاله وتصرفاته، الإيمان قضية حاضرة تصدّقه الأعمال والتصرفات والممارسات :(... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [البقرة: ٢٢٨]

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ

أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)).

ولو أن البيوت و العلاقات بين الزوجين والعلاقات الأسرية أقيمت على دعائم المنهج المصان بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، لما كان ثمة حاجة إلى الوقوف في طوابير وصفوف على أبواب المحاكم الشرعية!.

ولانتفت الحاجة لحلّ كل تلك النزاعات والفوضى العارمة التي تسود الكثير من الأسر والبيوت اليوم، فما سادت تلك الفوضى والعداوة والكراهية وضياع الحقوق وعدم الإمساك بمعروف ولا التسريح بإحسان إلا حين غابت معالم المنهج الرّباني في القلوب والسلوك.

والمشاهد من ارتفاع وتزايد نسب الطلاق في المجتمعات المسلمة، يشير إلى أهمية ربط التقوى بالعمل والسلوك وأسلوب الحياة الذي يعيشه الإنسان مع أهله وأسرته ومن حوله. فالتقوى في السورة حاضرة

بتفاصيلها في مختلف التشريعات ، الأمر الذي يؤكد قوتها في الدفع بالإنسان نحو الأفضل في التعامل والأخلاق.

من هنا ختمت الآية بقوله تعالى: (... تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [البقرة: ٢٢٩]؛ فالحدود في العلاقات الأسرية بين الزوجين وضعها الرّب سبحانه وتعالى، وعلى قدر تقوى العبد ومحبته، تكون مراعاة الحدود التي وضعها. هذه حدود الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذه ثمرة مراعاة حدود الله عَزَّ وَجَلَّ التي يبينها لقوم يعلمون.

وما بين الإمساك بمعروف والتسريح بإحسان، تتحقق مقاصد الرابطة الزوجية وحلّ تلك الرابطة إذا اقتضى الأمر، دون إلحاق الضرر بأي من الطرفين.

وفي وصف الإمساك بمعروف والتسريح بإحسان من بديع التعبير القرآني، فإن الإمساك بالزوجة والإبقاء عليها على قيد الزواج؛ ربما كان لإيقاع الضرر بها، وهذا مخالف لما هو معروف شرعًا وعقلاً وعرفًا. وهذا الإضرار مما تعارف عليه الناس في الجاهلية قبل الإسلام، فنزل القرآن ليصحح تلك الأوضاع المخالفة للعدل والرحمة والحكمة.

ومما يؤسف له اليوم في بعض المجتمعات المسلمة، وجود من يُمسك بالزوجة لأجل الإضرار بها وكأن الحياة الزوجية يراد لها أن تكون سجنًا لا سكنًا وأمانًا لكل أفراد الأسرة.

ولذا جاء تحريم الله عَزَّ وَجَلَّ مخالفة التعليمات الرّبانية: (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢).

فإبقاء المرأة على قيد الزوجية بقصد الإضرار بها -كما يحدث في مجتمعات كثيرة جدًّا - لا محبة في عشرتها ولا بقاءً عليها - يُعد من المحرّمات: (... وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ...) [البقرة: ٢٣١] وتختم بقوله (... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [البقرة: ٢٣١] تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

فليست الأسرة ولا بيت الزوجية بالسجن الذي يُكره الإنسان على العيش بين جدرانه بل إن المقصد الأساس لقيامه هو تحقق السكن والطمأنينة والراحة.

والقرآن العظيم ذهب إلى أبعد من ذلك في تعميق هذا المعنى؛ حين جعل عدم تمسك الرجل بثنائية الإمساك بمعروف والتسريح بإحسان، من قبيل اتخاذ آيات الله هزوًا. فآيات القرآن العظيم نزلت لأجل أن يسير

عليها الناس في حياتهم وواقعهم وليس لأجل تلاوتها ومخالفة أوامرها وأحكامها في الواقع الإنساني.

وعند تتبع مفردة الطلاق في القرآن، يلحظ المتدبّر أن اللفظة تأتي عند الحديث عن الإجراءات المتعلقة بالانفصال والأحكام العملية من العدة والرجعة وغيرها. إلا أنه حين يكون الحديث عن أساليب التعامل في حال الطلاق يأتي الكلام بمفردات المعروف والإحسان والتقوى.

الأمر الذي يجعل منظومة المفردة وتوابعها في القرآن العظيم، تؤسس لنهج قويم في التعاملات الأسرية، وخاصة في حال وقوع الطلاق: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

وقد تحدث بعض المفسرين والفقهاء عن تأويل المعروف بردّ حقوق المرأة المالية، وألا يذكرها بسوء أو ينفر غيره منها. إلا أن التدبّر فيها وفي السياق الذي وردت فيها آيات وأحكام الطلاق، يدرك أن المسألة أبعد من ذلك، وأن ذكر الإحسان الذي - هو أعلى من المعروف درجة وأقرب إلى التقوى - في مجال التسريح له دلالة خاصة؛ ذاك أن التسريح فراق، والإنسان حين يفارق أحدًا، وخاصة في وقوع الطلاق الذي هو في حقيقته وضع حد فاصل للخلافات الزوجية، غالبا ما يجانب تحري الإحسان بحكم ما يخالج النفس من مشاعر وذكريات سلبية، فكان ذكر الإحسان من أعظم آيات البيان القرآني.

من هنا امتن القرآن العظيم على الناس إنزال الكتاب والحكمة التي هي علم آياته وحِكمِه وفهم حقائق القرآن[115]، مع التذكير بعلم الله سبحانه المحيط بما يفعله الإنسان وما يقوم به؛ فالإيمان بالله سبحانه وتعالى يصدّقه تعامل الإنسان ومحافظته على القيام بما أمر الله سبحانه في أدق تفاصيل حياته العائلية التي لا يطلع عليها إلا الله سبحانه ولا يعلم خفاياها ودقائقها إلا هو.

ويأتي الحديث هنا عن التقوى التي تمنع الرجل من إلحاق أي ضرر بالمرأة، فالله هو الذي أحلّ عشرة المرأة بالزواج، كما أنه هو سبحانه أباح الطلاق إن اقتضى الأمر، فهو الذي يمنع، ولذلك الآيات كلها تنتهي بالحديث عن تقوى الله: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

وفي ثنايا ذلك جاء النهي عن العَضل. والعَضل في الأصل يأتي بمعنى المنع والشدة والحبس في شدة ومضرة.[116] وقد اختُلِف في توجيه الخطاب هل هو للأولياء أم للأزواج، إلا أن من أحسن ما جاء في ذلك أن الخطاب للأمة؛ لأنها متكافلة في المصالح العامة على حسب الشريعة؛ كأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا إذا وقع منكم تطليق للنساء وانقضت عدتهن وأراد أزواجهن أو غيرهم أن ينكحوهن وأردن هن ذلك فلا تعضلوهن.

---

١١٥. - الراغب الأصفهاني، المفردات، ص ١٣٥، مادة حكم.

١١٦. - ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تفسير سورة النساء، الآية ١٩، ص ٢٧.

وعلى هذا الوجه يأخذ كل واحد حظه من الخطاب للمجموع، والحكمة في هذا الخطاب العام هنا أن يعلم المسلمون أنه يجب على من علم منهم بوقوع المنكر من أولياء النساء أو غيرهم أن ينهوهم عن ذلك حتى يفيئوا إلى أمر الله، وأنهم إذا سكتوا على المنكر ورضوا به يأثمون، والسر في تكافل الأمة أن الأفراد إذا وكلوا إلى أنفسهم فكثيرا ما يرجحون أهواءهم وشهواتهم على الحق والمصلحة، ثم يقتدي بعضهم ببعض مع عدم النكير، فيكثر الشر والمنكر في الأمة فتهلك، ففي التكافل والتعاون على إزالة المنكر دفاع عن الأمة، ولكل مكلف حق في ذلك؛ لأن البلاء إذا وقع فإنه يصيبه سهم منه.[117]

من هنا جاء الحديث عن الوعظ الذي في أصل معناه: زجر مقترن بتخويف.[118] كما ربط القرآن العظيم بين اتعاظ الناس في ذلك وإيمانهم بالله سبحانه، وفي ذلك تأكيد التلازم بين الإيمان والتطبيق الواقعي لتعاليم القرآن العظيم.

(ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة: ٢٣٢].

من هنا جاء ختام الحديث عن هذه القضية الأسرية ببيان ثمرة اتباع منهج الله سبحانه وتعالى في النفس الإنسانية متمثلة في حدوث التزكية وحصول التطهير؛ فالتزكية من المادة الثلاثية (زكا)، نقول: «زَكا زَكاء وزُكُوّاً وزَكِيَ وتَزَكَّى، وزَكَّاه الله، وزَكَّى نفسَه تَزْكِيةً»، «وأَصل الزكاة في اللغة الطهارة

١١٧. - بتصرف بسيط عن: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، آية البقرة ٢٣٢.

١١٨. - الأصفهاني، المفردات، وعظ، ص ٥٤٢.

والنَّماء والبَركةُ والمَدْح»، كما جاء في لسان العرب، وزاد الراغب قيدا لهذا النماء خاصا بالمعنى القرآني للمادة فقال: «أصل الزَّكَاةِ: النّموّ الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدّنيويّة والأخرويّة».

من هنا يظهر أن ورود لفظة (أزكى) يؤكد أهمية التحلي بالصفات والأخلاق المحمودة، و (أطهر) التي تؤكد أهمية التخلية عن السيئات والصفات المذمومة. ولعلّ الحكمة في تقديم لفظة (أزكى) على (أطهر) في الآية، هو أن اتباع هذه الصفات المحمودة حتى في حالة وقوع الطلاق وما قد يصاحبها من توترات نفسية، سيثمر في تطهير نفس الإنسان من القبائح والصفات المذمومة.

فالتحلية والتخلية يسيران جنبًا إلى جنب ويبقى السياق محددًا أيهما يكون مؤديًا لغيره. وقد تقدم الأمر بالصفات المحمودة في سياق هذه الآيات، فكان التحلي بها مسوقًا إلى التخلي عن الصفات المذمومة سواء ما تعارف عليه الناس قبل نزول القرآن أو اعتادوا عليه من سلوكيات مخالفة لما أمر به كتاب الله.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن

تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ٢٣٣.

ثم تنتقل الآيات للحديث عن الرضاع في حال الطلاق وفي غير حال الطلاق ليؤكد القرآن العظيم من خلال منظومة المعروف أن العلاقات الأسرية لا تُبنى إلا على الخير والمعروف، ولا تُبنى على الصراع بين الرجل والمرأة. من هنا كان النهي عن المضارة وإلحاق الأذى بأي طرف من الأطراف بسبب وجود الوليد.

والآية العظيمة واحدة من آيات تكلمت عن الرضاع والفصال في القرآن الكريم، حيث ذُكرت الكلمتان أربع عشرة مرة في سبع سور. والآيات العظيمة توضّح أهمية الرضاعة الطبيعية وفائدتها للطفل والأم في ذات الوقت. وقد كشفت العديد من الدراسات العلمية فوائد الرضاعة الطبيعية للطفل.

وفي موضع الآية في السورة بعد آيات الطلاق، تأكيد لضرورة الاهتمام بالأبناء والقيام بشئونهم؛ فانفصام العلاقة بين الزوجين، لا ينبغي أن يعاني منه الأبناء ولو كانوا صغارًا. إذ أن الكثير من الآباء والأمهات يهملون الاهتمام بالأبناء في تلك المرحلة.

ويبقى المعروف حاضرًا بقوة في جميع المواقف من الخلاف إلى الطلاق إلى الرضاع .

وتنتقل الآيات العظيمة للحديث عن سبب آخر غير الطلاق في إنهاء الرابطة الزوجية، ألا وهو الوفاة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا

يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ).٢٣٤-٢٣٥.

والحديث عن انتهاء الرابطة الزوجية بالوفاة في سورة البقرة، ورد في سياق الأحكام المتعلقة بها من عدة وما يلحق بها. من هنا جاءت الآيات الكريمة بالأمر بالعدة باستعمال مفردة (يتربصن)، والتربص طول الانتظار بالشيء. وقد يكون من مقاصد استعمال القرآن العظيم للفظة التربص في عدة المرأة في الطلاق والوفاة، بيان الجوانب النفسية المتعلقة بذلك الانتظار؛ فالمرأة المعتدة سواء أكانت مطلقة أو توفي عنها زوجها، تمرّ عليها تلك الأيام والشهور طويلة، فكان الإتيان بلفظة التربص دقيقًا معبرًا عن جوانب من حالتها.

والناظر في تاريخ العرب وغيرهم في حال الإحداد على الزوج[119]، يرى عجبًا يدرك من خلاله طرفًا من رحمة التعاليم القرآنية وعظمة الأحكام

١١٩. - حول ما يتعلق بأحكام الحداد الفقهية، انظر: عبد الله بن محمود الموصلي. الأخبار لتعليل المختار - دار المعرفة - بيروت ٧٧١/٣، ابن عبد البر- أبو عمر يوسف بن عبد الله - مؤسسة النداء ٣٥٥/٦، ٤٥٥، الرملي - شمس الأئمة - نهاية المحتاج. ط- الحلبي - ٠٤١/٧ ،وابن قدامة - المغني ٨/ ٧٧ - المراجع السابقة، والكاساني - بدائع الصنائع ٨٠٢/٣.

الشرعية التي انتشلت النساء من بؤرة الظلم والوقوع في براثن الجهل والخرافة الذي طغى على الكثير من الأعراف والعادات الجائرة المتعلقة بهذا الأمر التي عبرت سطوتها الزمن لتصل إلى العصر الراهن؛ فكثير من المجتمعات لا ترحب بالمرأة بعد وفاة زوجها، وتمسي عالة على أسرتها وأسرة زوجها، بل ونذير شؤم عليهم.[120]

حتى إن الأمم المتحدة نشرت في تقرير لها عام ٢٠١٠م أن ملايين من أرامل العالم يعشن تحت ذل الفقر المدقع والنبذ والعنف والتشرد وسوء الصحة والتمييز في كل من القانون والعرف.[121]

إن ما جاءت به التعاليم القرآنية في تحديد فترة الإحداد على الزوج، ومن ثم النص على حق المرأة بعد انقضاء العدة في الزواج والبدء بحياة جديدة، يعد من أوضح الدلائل على رحمة الشريعة الإسلامية بالمرأة وحفظها لحقوقها، وربط مراعاة تلك الأوامر بعلاقة الإنسان بخالقه سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

والقرآن يؤكد مرة بعد مرة وآية بعد آية وحكمًا بعد حكم أن الالتزام بهذه الأوامر والتعاليم الشرعية، إنما هو من صميم إيمان العبد وتقواه والتعبير عن مراقبته لمولاه. تلك المراقبة التي تصل إلى حدّ الوقوف عن التعريض بالرغبة في زواج المعتدة. والتعريض قول مفهوم لمقصود

١٢٠. – انظر حول ذلك: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، تفسير آية ٢٣٤.

١٢١. – https://www.un.org/ar/events/widowsday/background.shtml

الشيء وليس بنص فيه. أو أن يتضمن الكلام ما يصلح للدلالة على المقصود وغيره، وإن كان الإشعار بالمقصود أوضح وأتم.[122]

من هنا جاء في ختام الأحكام المتعلقة بالنهي عن العقد على المعتدة بقوله عزّ وجّل: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾؛ فهذه الأحكام العظيمة أحاطها القرآن العظيم بسياج داخلي يبدأ في ضمير الإنسان ونفسه وشعوره بمراقبة الله سبحانه واطلاعه على سرّه وجهره. الأمر الذي يسوق إلى تحقيق النزاهة الحقيقية والعفة الطبيعية في الأفراد، وهو أمر لم يكن ليتحقق لو بقيت الأحكام الشرعية والتعاليم الإلهية قواعد عملية غير مرتبطة بالإيمان والتقوى.

من هنا جاء الحديث في جميع أحكام الزواج والطلاق والعدة والمهور محاطًا بسياج التقوى، مصنوعًا كما هي النفس البشرية التي قد تعتريها حالات الضعف:

﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ. وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ

١٢٢. – راجع في ذلك: ابن العربي، أحكام القرآن، ج١، ص ٢٨٥. وانظر كذلك: محمد عقلة، نظام الأسرة في الإسلام، مطبعة الشرق، عمان، ١٩٨٣م.

وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).٢٣٦-٢٣٧.

وهنا تستغرق الآيات مختلف الظروف الإنسانية والحالات التي تتعلق بوقوع الطلاق معبرة بأجزل وأنزه المفردات عن أدق وأعمق تفاصيل العلاقة الزوجية، في إطار يعلّم البشرية رفعة الإنسان وكرامته من خلال التعابير التي تجري على لسانه. فإذا بالقرآن العظيم يعبر عنها بلفظة المسّ في سياق يقتضي تأطير الطلاق وأحكامه.

والمتعة التي ساق القرآن الحديث عنها للمطلقة في هذه الحالة تحقق مقاصد المعروف والخير بين الناس وجبر الخواطر؛ فغالب حالات الطلاق قبل الدخول تحدث من قبيل تنافر الطباع وما شابه، فكانت المتعة المرتهنة بحالة الزوج المادية ودرجة إحسانه، محققة لقصد الحفاظ على المعروف بين الناس.

من هنا جاء الحديث عن العفو: (يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ). والعفو بما أنفق من مال عام للرجال والنساء، فقد يحصل في بعض الحالات أن يكون العفو من قبل الرجال أولى وبعضها من النساء أولى، فجاء الخطاب عامًا بالعفو بحسب الوضع: (وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى). والعلاقة بين العفو والتقوى علاقة تلازم وترابط، فكلما زاد رصيد التقوى في القلب، ظهر ذلك في تعاملات الإنسان، ولو كان في حال ظرف كالطلاق

الذي قد يحدث فيه من الكدر في العلاقات الإنسانية ما يحدث. وتدخل الآيات القرآنية في أعماق ضمير المؤمن لتذكّره بالفضل بين الأطراف التي آلت العلاقة بينهم إلى الطلاق في هذا السياق.

والقاعدة عامة جامعة لكل معاني الفضيلة التي تندرج وتنضم تحت لواء لفظة الفضل؛ فالتمسك بحقوق الإنسان وما أعطى وما أخذ غير منهي عنه، ولكن القرآن جاء بالعفو هنا وجعل تحري العفو والتجاوز والتنازل عما يحق للإنسان، درجة أقرب للتقوى وأحرى لمن يتوخاها ويطلبها. ثم جاء بالحديث عن الفضل الذي هو زيادة على العفو لا تنحصر بعطاء مادي أو معنوي، بل تشمل ذلك كله في إطار علم الإنسان واستحضاره بأن سائر عمله محط نظر الله سبحانه وتعالى وبصره.

ثم يأتي الحديث عن الحفاظ على الصلوات في خضم الكلام عن الطلاق والزواج والخطبة والعدة والمهر وغير ذلك من تشريعات وأحكام اجتماعية وقضائية وأسرية.

(حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ. فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ. وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ. كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ). ٢٣٨-٢٤٢

فالصلاة وسائر العبادة شرعت؛ لتهذيب الأخلاق وتصحيح السلوك الإنساني وتقويم الانحرافات في التعامل بين البشر على مختلف الأصعدة. فكان من أجمل أوجه التناسب أن يأتي الحديث عن المحافظة عليها أثناء الحديث عن الأحكام في النكاح والطلاق والعدة .كما أن الصلاة تعلّم الإنسان الانقياد والخضوع لأمر الله سبحانه وتعالى؛ فالرب جّل شأنه الذي أمر بالصلاة والمحافظة عليها، هو الذي أنزل الأحكام والشرائع، وأمر بالقيام بها.

والحفظ يأتي في القرآن بمعانٍ مختلفة، منها القيام على الشيء حفظًا وقيامًا بأمره ورعاية. وفي هذا المعنى تأتي المحافظة على الصلوات.

والمحافظة من المفاعلة بين اثنين؛ فالمحافظة من المصلي التي جاء الأمر بها هنا تكون بمراقبة أوقاتها وأركانها وشروطها وتحقيق مقاصدها القلبية، حتى تُحفظ له الصلاة. فالإنسان حين يحفظ صلاته بإقامتها في أوقاتها بحدودها وشروطها وآدابها، فإنها تحفظه في حياته وبعد مماته. تحفظه في حياته من الوقوع في المعاصي والزلات؛ لأنها (تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَر)، وتعينه في الشدائد فتحفظ توازنه النفسي (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ)، وتكون سببا في حفظه بمعية الله له كما قال تعالى: (وَقالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكاةَ).[123]

١٢٣. – بتصرف عن: محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، ج٢، ص ٤٣٦.

ومن لطائف التناسب الذي ذكره بعض العلماء ما أشار إليه البقاعي رحمه الله بقوله: (ولما ذكرت أحكام النساء وشعبت حتى ضاق فسيح العقل بانتشارها وكاد أن يضيع في متسع مضمارها مع ما هناك من مظنة الميل بالعشق والنفرة بالبغض الحامل على الإحن والشغل بالأولاد وغير ذلك من فتن وبلايا ومحن يضيق عنها نطاق الحصر ويكون بعضها مظنة للتهاون بالصلاة بل وبكل عبادة اقتضى الحال أن يقال: يا رب! إن الإنسان ضعيف وفي بعض ذلك له شاغل عن كل مهم فهل بقي له سعة لعبادتك؟ فقيل: (حافظوا).[124]

والمحافظة تقتضي الدوام والثبات على الصلاة في الخوف والأمن في الضعف والقوة؛ فالمقصود الأعظم من الصلاة ذكر الله سبحانه وهو أمر يلازم قلب المؤمن، فكانت الآية: (فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ). فإن لم يتمكن المؤمن من القيام بالصلاة موفيًّا حقها بالقيام والركوع والسجود لخوف، فليصل ماشيًا أو راكبًا؛ فالصلاة حاضرة في مختلف الأحوال التي يمرّ بها المؤمن. وهو أمر له دلالة عظيمة حول مكانة الصلاة ودورها في تبديد قلق الإنسان ومخاوفه. فكل ما يحيط بالإنسان من مشاغل الحياة ومخاوفها لا ينبغي أن يصرف القلب عن الصلاة، بل يجب أن يفزع إليها ويستمد العون من خالقه عزّ وجّل.

١٢٤. - البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، سورة البقرة، ص ٢٣٨.

ثم تعود الآيات من جديد للحديث عن الأحوال الأسرية، فجاء ذكر المرأة التي يتوفى عنها زوجها وحقها في النفقة والسكنى: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ. كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).

والآية توضّح جانبًا لم تذكره آيات العدة: (يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا)؛ فمن باب الوصية بالزوجات أن يمكَّن من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً، ولا يمنعن من ذلك، لقوله: (غَيْرَ إِخْرَاجٍ).[125] فإذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر - أو بوضع الحمل - واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل، فإنهن لا يمنعن من ذلك لقوله: (فَإِنْ خَرَجْنَ) إلخ.[126] والتناسب بين ذكر المحافظة على الصلاة والحديث عن عدم إخراج المرأة المتوفى عنها زوجها، بيان لدور المحافظة على الصلاة في واقع الناس وحياتهم. والناظر في واقع العديد من المجتمعات وكيفية تعامل الكثيرين مع الأرامل وسلب حقوقهن،

١٢٥. - ذهب الجمهور إلى أنها منسوخة بالأربعة الأشهر والعشر كما تقدم، وأن الوصية المذكورة فيها منسوخة بما فرض الله لهنّ من الميراث، والراجح لدي ما ذهب إليه مجاهد أنها محكمة لا نسخ فيها. انظر: الشوكاني، فتح القدير، ص ٢٤٠

١٢٦. - هذا قول مجاهد وهو قول وجيه اختاره ابن تيمية وهو أولى من القول بأن الآية منسوخة بآية تحديد العدة، فالآية لا تتحدث عن العدة بل عن السكنى.

يدرك عظمة القرآن الكريم في الحث على الحفاظ على حق المرأة بعد الأمر بالحفاظ على الصلوات، فالتلازم عظيم بين العبادات والشرائع والمعاملات الإنسانية، فالرّب الذي شرّعها واحد سبحانه.

ثم إن الآية العظيمة خُتمت بصفتي عزيز؛ إظهارًا للغلبة والقهر لمن منع من تنفيذ الوصية بالتمتيع المذكور، أو أخرجهن وهنّ لا يخترن الخروج، ومشعرًا بالوعيد على ذلك. وقوله: حكيم؛ إظهار أن ما شُرع من ذلك فهو جارٍ على الحكمة والإتقان، ووضع الأشياء مواضعها.[127]

فالذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا وقد وصوا وصية لأزواجهم بالنفقة والسكنى حولاً، فهذا المجموع شرط وجوابه فإن خرجن - أي قبل ذلك - وخالفن وصية الزوج بعد أن يقمن المدة التي ضربها الله تعالى: (فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف)؛ أي نكاح صحيح، لأن إقامتهن بهذه الوصية غير لازمة؛ والسبب فيه أنهم كانوا في زمان الجاهلية يوصون بالنفقة والسكنى حولاً، وكانوا يوجبون على المرأة الاعتداد بالحول، فبيّن الله تعالى في هذه الآية أن ذلك غير واجب.

(وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(٢٤٢).

ويعود الحديث عن التقوى التي تظهر في كل جوانب الحياة حتى في العلاقات الزوجية، فهي ليست تقوى نظرية بل عملية سلوكية، تقوى

١٢٧. - أبو حيان، البحر المحيط،

تجعل الإنسان المسلم يراقب تصرفاته وأفعاله لأنه يرى ويؤمن ويستحضر أن الله عليه رقيب.

فيا ترى أي شكل من أشكال التغيير سيحصل في المجتمعات والأسر المسلمة حين تصبح التقوى هي الحصانة التي تحرس التعليمات والتعاملات المالية والاقتصادية والأسرية والاجتماعية ؟.

من هنا يشي ارتفاع نسب الطلاق في المجتمعات المسلمة بالخطورة الحاصلة في مستويات التقوى السلوكية في الحياة الأسرية، تلك التقوى التي فُرغت في كثير من الأحيان من محتواها العملي والسلوكي لتنحصر في مظاهر وصور وأشكال. من هنا ختمت الآيات بقوله تعالى: (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(٢٤٢). فالآيات بينّة، ولكنها تحتاج إلى تعقل وتبصّر يقود الإنسان إلى تطبيقها في الواقع.

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك انتقالة رائعة من جديد إلى ما حدث في الأمم السابقة: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ. وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ). ٢٤٣- ٢٤٤.

والترابط في الآيات بين ما ذُكر من تعاليم وأحكام تتعلق بالأسرة، وبين ذكر الفرار من الموت، والأمر بالقتال وبذل النفس والتضحية بها،

يتبين من خلال هذا الترابط للمتدبّر أن من يراقب اللهَ سبحانه وتعالى في جزئيات حياته وتفاصيلها الأسرية وغيرها، أقدر على مواجهة أقدار الله سبحانه، ولو كانت تتطلب بذل النفس والتضحية بها.

كما أن القيام بأعباء الأسرة والوقوف عند أوامر الله سبحانه وطاعته وحسن العشرة بين الزوجين، أمور تتطلب قدرًا كبيرًا من التضحية وإنكار الذات في بعض الأوقات لغاية تحصيل رضى الله سبحانه وتعالى، وهو أمر يسهل على المرء حين يستذكر سرعة انقضاء أيام حياته ومرورها بحلوها ومرّها، وهي جزء من طبيعة الامتحان في الدنيا.

وفي الآية وقوف بالإنسان عند الحقيقة التي قد يغفل عنها في خضم انشغاله بتفاصيل حياته، المتمثلة في أن الفرار من قدر الموت لا يجدي، وأن الإنسان قد يفرّ من مكان لآخر ظنًّا منه أن ما ينتقل إليه أفضل مما انتقل عنه وفارقه، ليدرك أن الأمر لا يُحلّ بالفرار والانتقال.

فهذه صورة لأمة سابقة خرجت من ديارها في جموع، تباينت التفاسير في ذكر أسباب خروجها ما بين الهروب من الطاعون إلى الفرار من القتال إلى أمور أخرى[128]، إلا أن الظاهر من الآية أن هذه الأمة لم تخرج في سبيل الله، وإنما أخرجها حذر الموت الذي لا يمكن للإنسان أن يفر منه، وأن الخوف من أسبابه الظاهرة، لا يباعد بين الإنسان وبين قَدَر الموت.

---

١٢٨. - انظر على سبيل المثال: الرازي، مفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة، آية ٢٤٣.

من هنا جاء الأمر بالقتال بعدها مباشرة؛ لتكون هذه الآية تمهيدًا له وتخفيفًا على النفوس من التكليف به إذا توافرت دواعيه: (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ). إلا القتال لا يكون إلا في سبيل الله، وليس في سبيل أمور أخرى كأهواء النفوس والسيطرة على الغير وتحقيق مصالح مادية، فالقتال في الإسلام؛ لإحقاق منهج الحق في الأرض من العدالة والحرية والمساواة للبشر وحمايتها من عبث العابثين وأطماع الطامعين. ثم خُتمت الآية بقوله سبحانه: (سَمِيعٌ عَلِيمٌ)؛ لتحثّ المؤمن على تفقد نيتّه وقلبه وتخليصهما من كل شائبة؛ فالله سبحانه مطلع على عمله وخواطره وقصده. فالقتال في سبيل الله لا يتطلب رفع شعارات أو لافتات تخبر أن أصحابها خرجوا في سبيل الله، ولكنه يتطلب الصدق في النية والعمل، فكانت (سَمِيعٌ عَلِيمٌ) أبلغ تناسب لتحقيق هذا المعنى.

وتواصل الآيات العظيمة في حديثها عن البذل والتضحية، فمن بذل الروح والأنفس إلى بذل الأموال لتحقيق مقاصد التشريع: (مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ). (٢٤٥). ومن أوجه التناسب بين ذكر القتال وذكر الإنفاق، أن من هان عليه بذل روحه، كان بذله لماله أهون عليه.

والقرض ضرب من القطع، وسمي ما يدفعه الإنسان إلى غيره من المال بشرط رد بدله قرضًا.[129] وهي مفردة تحوي معنى أن ما ينفقه المرء

١٢٩. - المفردات، مرجع سابق، ص ٤٠٢.

في سبيل الله، يرده سبحانه وتعالى إليه، وهو الغني عن عباده، خلقهم ورزقهم ولم يكن لهم من شيء. فالباذل في سبيل الله من مال أو نفس، يُردّ عليه بخير منه أضعافًا كثيرة. ومن جماليات الآية العظيمة أنها حثت على القرض الحسن، فليس كل قرض يقدّمه المرء لغيره يكون حسنًا. والحسن يقتضي تصفيه النّية وتنقيتها قبل الإقدام عليه، ومن ثمّ يُحسن في تقديمه للمقترِض فلا يصاحبه بمنّ ولا رياء، مستحضرًا أن الله يقبض ويبسط، فسنّته ماضية في توزيع الأرزاق ومنها الأموال، فبذل المال في مواضع البسط التي حضّ القرآن عليها لن يُنقص في رزقه، كما أن الإمساك فيها لن يزيد في رزقه من شيء.

من هنا خُتمت الآية الكريمة بقوله: (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)؛ فالرجوع إلى الله سبحانه وتذكّر الإنسان هذه الحقيقة، يحرّك نفسه للبذل والعطاء وينزع عنه التعلق بالأشياء، فهو يدرك أنه سيتركها ويرحل عنها.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) ٢٤٦.

تأتي الآيات على مواقف وقعت في بني إسرائيل في سياق تحذير الأمة من التخاذل والتراجع والتكاسل والتباطؤ في تنفيذ الأمر الرّباني؛

فأصحاب الجاه والقوة والمنعة ممن يطلق عليهم القرآن (الملأ) فهم يملأون العيون بقوتهم ومنظرهم ومكانتهم، طلبوا القتال في سبيل الله ظنًا منهم أن الأمر لا يخرج عن الادعاء والشعارات الفارغة. طلبوا من نبي لهم أن يبعث لهم ملكا يقاتلوا تحت رايته في سبيل الله، ولكن النبي الذي يعرف حالهم من التخاذل سألهم بأسلوب التقرير: ربما إذا أتاكم الأمر والمنهج الرباني تقاعستم وتراجعتم وتخاذلتم.

فالتضحية والبذل والسير على المنهج الرباني ليست بشعار وادعاء، ولكنه الفعل والعمل الذي لا يحتاج إلى ادعاء. وعلى الرغم من تأكيدهم ضرورة القيام به لوجود مسوغاته ومبرراته إلا أنهم سرعان ما تخاذلوا حين أزفت الحقيقة.

والحديث عن القتال نموذج ليس إلا؛ فالعبرة بالموقف أمام الأمر الإلهي من الاستجابة والطاعة إلى الرفض والتقاعس والتخاذل للتنصل من الأمر.

ثم تتوالى الآيات في هذه القصة تحديدا لتبيّن تخاذل وتراجع هذه الفئة ومماطلتها في تنفيذ المنهج الرباني وتراجعها أمام التحديات الشخصية والأهواء والمطامع الذاتية. لقد هُزمت هذه الفئة في داخلها وذاتها قبل أن تلاقي عدوًا خارجيًا، والهزيمة الداخلية أشدّ من الخارجية.

(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ

اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ). ٢٤٧-٢٤٨.

وهنا لا يقف القرآن بالقارئ على شخصية النبي المرسل إليهم؛ إذ إن العبرة بالحدث والموقف، لا بذكر تفاصيل الأشخاص والأزمنة والأماكن، من هنا كان لابد من تنزيه التفاسير من مختلف الإسرائيليات التي تذهب بالمتلقي بعيدًا عن المعاني والمقاصد العظيمة وراء ذكر هذه الأحداث والقصص.

فالآيات توضّح اللجاج الذي انتشر بين بني إسرائيل وتأصل فيهم، إضافة إلى معاييرهم الزائفة في الأحقية بالقيادة والملك. ويبدو أن المادية تجذرت في قلوبهم وعقولهم فلم يروا في الملك المعيّن لهم أي أحقية أو أفضلية عليهم؛ من حيث المال والقوة البدنية، وأسقطوا من حساباتهم كل المقاييس المتعلقة بالقوة العقلية والإيمانية والأمانة.

كما أغفلوا معنى اصطفاء الله سبحانه لعبد من عبيده بالملك، وحقيقة أن الملك بيده سبحانه وهو القادر على أن يؤتيه من يشاء، وقد أيدّه بآية واضحة من عنده. إلا أن القوم أبوا إلا النزاع على السلطة والصراع حولها. والقرآن في سياق ذكره لهذا الشكل من الاعتراض على

اختيار الملك، ينبّه كذلك إلى ما فعله كفار قريش مع رسول الله ﷺ حين لم يروا فيه أهلية أو أحقية للنبوة بمعاييرهم المادية الضيقة.

والقرآن بعرضه لهذه القضية كنموذج للصراع بين البشر، يحذّر من هذا النزاع. والسلطة من أكبر الإشكاليات التي يحدث فيها النزاع الإنساني؛ فالإنسان إن لم يتنّبه إلى تهذيب نفسه وإصلاح قلبه، نزعت نفسه إلى التسلط على غيره والعُجب بذاته وإمكانياته، والوقوع في التباغض والتحاسد حدّ الصراع والنزاع.

لقد هُزمت تلك النفوس الضعيفة التي كانت تدّعي استعدادها للتضحية بالنفس والمال لتنفيذ الأمر الإلهي. تراجعت وتقاعست لأنها نفوس مستعبدة، لم تتمكن من التحرر من هواها وأغراضها الشخصية أو تتخلى عنها أمام أمر الله وتشريعه لها.

وهذا النوع من النفوس لا تستقيم به المجتمعات، ولا تُقام به الدول، ولا تُصان به الأعراض، ولا تُحفظ به الذمم، ولا تُنفذ به القوانين والأوامر والنواهي والمناهج التي جاء بها القرآن العظيم. ومما لا شك فيه أن الآيات، وهي تتحدث عن بني إسرائيل تأتي في سياق التحذير لهذه الأمة التي خاطب بها القرآن أول ما خاطب. وما سوق القصة والحدث إلا لأجل أن يعتبر المتلقي ويتعلّم منها، ما ينعكس على حياته ويصلح واقعه.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيَ إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ

إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُواْ اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ). ٢٤٩.

وهنا تعرض الآية الكريمة موقف هذه الفئة، وهي تتعرض لامتحان آخر، تُختبر فيها قوة إرادتها وصبرها ومدى تمسكها بالأمر الصادر عن قيادتها. إلا أن الغالبية منها فشلت من جديد فشربت من ذلك الماء الذي نُهيت عن الشرب منه، لتثبت من جديد تخاذلها وقلة صبرها وضعف إرادتها.

والآية تبيّن أن الاختبارات والمواقف الصعبة تسهم في الكشف عن معادن الناس؛ فهي ضرورية في بيان قوتهم أو ضعفهم، وخاصة في مواقف الشدة والقتال ومواجهة الأعداء، فلابد من التمحيص والغربلة. ولا يخلو الموقف - والآيات نزلت في المدينة - من إشارة إلى مواقف المنافقين وتقاعسهم وتراجعهم أمام الصعوبات والمحن التي مرّ بها المسلمون في فترات مختلفة من مواجهة العدو.

ونتج عن تلك الاختبارات تراجع الفئة التي خرجت مع طالوت وتناقص عددها. ذاك أن الثبات على المنهج والانصياع له من أهم شروط القتال والمواجهة؛ فليست المسألة مجرد عدد، ولكن نوعية العدد وثباته وقوة إرادته. والمتدبّر في الآيات يلحظ تلك اللفتات الرائعة في الإعداد العسكري الذي تؤسسه. لقد تراجعت تلك الفئة أمام المغريات وتساقطت أمام المحن والشدائد والابتلاءات، وثبت أولئك الذين يظنون أنهم ملاقو

الله؛ فاليقين بلقاء الله سبحانه من أعظم دوافع الثبات والصمود، ولو كان في قلة: (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ). وهنا تأهلت تلك الفئة القليلة في العدد الصابرة في موقفها، لمعية الله سبحانه وتعالى.

إنه الصبر والثبات الذي تقدّمه سورة البقرة من خلال قصة طالوت، وضرورة البعد عن الشعارات والادعاءات؛ فالإيمان يحتاج لثبات وصبر وتحمل. ولن يقوم بذلك إلا من يضع نصب عينيه لقاء الله عزّ وجّل. ولن يُكتب لأمة من الأمم ولا لفرد النصر على عدو خارجي ما لم يتحقق النصر داخليًا على النفس التي بين جنبيه، ويوقف السير وراء ما تمليه عليه من الأهواء والنزعات الشخصية وامتثال أمر الله. من هنا برز التضرع إلى الله سبحانه في ذلك الموقف الشديد، وقد تراءت لهم قوة جالوت وجنوده. التضرع الذي ينبع من عمق الإيمان بقوة الله سبحانه وتعالى وحوله، والتبرؤ من قوة الإنسان الذاتية وحوله، فكانت الهزيمة بإذن الله لا بإذن البشر، ليُظهر سنّة التدافع بين الخلق الماضية إلى يوم الدين.

(وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ). ٢٥٠-٢٥٢.

والتدافع بوجود الكفار ووجود المؤمنين الصدام بين القوي والضعيف، وبوجود الظالم والمظلوم. والآيات العظيمة تزود المؤمنين بآليات الثبات والصبر لأجل المواجهة وتحقيق أوامر الله واقعًا معاشًا.

فالإنسان لا يمكن أن يحقق نصرًا خارجيًا، إن هُزم في بيته وأسرته أمام ضعفه فلم يقف عند حدود الله وأمره. النصر يتحقق بنفوس اتقت ربها سبحانه وتعالى، نفوس هابت آيات الله سبحانه وتعالى وسارت على المنهج في واقعها. من هنا تُفهم الهزائم المتتالية التي مُني بها المسلمون عبر التاريخ من جراء مخالفة المنهج في حياتهم الأسرية والعائلية والاجتماعية .

إن الهزائم المتكررة جاءت كنتيجة طبيعية لمخالفة أمر الله سبحانه وتعالى في واقع الحياة، وما كان من الممكن أن يتحقق النصر، والنفوس قد هُزمت في داخلها، هُزمت في معركة التقوى والإيمان.

وعلى قدر ما يزيد رصيد الإنسان من تقوى الله عزّ وجّل في حياته وفي خلجات نفسه وعلاقاته الأسرية والزوجية والأبوية، بقدر ما يزيد نجاح الإنسان وقوته وقدرته على حماية وطنه وأرضه وعِرضه.

من هنا جاء الحديث عن التدافع بين الخير والشر والصلاح والفساد والحق والباطل؛ فالفساد يعلو حين يقل منسوب التقوى والإيمان في الواقع والتطبيق والسلوك، ولذلك ختم الله عز وجل الجزء الثاني من

هذه السورة العظيمة بقوله تعالى: (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

خُتم الجزء الثاني من السورة الذي جاء بمختلف التشريعات الأسرية والاجتماعية والقضائية والاقتصادية بتوجيه الخطاب إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه بأنه من المرسلين، وأنك جئت بآيات أُنزلت بالحق، وبشرائع، وأوامر، وتعاليم، ونواه، ولم تكن أنت في ذلك بدعًا من الرسل، وإنما جئت لتتمم الرسالات، فكان التناسق بين ختام الجزء الثاني وبداية الجزء الثالث:

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ). [البقرة: ٢٥٣].

الرسائل والتعاليم والشرائع جاء بها الرسل حَمَلة الآيات والأوامر التي تشكلّ المنهج الرّباني للخلق، هم أولئك الذين ائتمنهم الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ليبلّغوا الرسالة ويؤدوا الأمانة وقد فعلوا عليهم الصلاة والسلام جميعا. والتفاضل فيما بينهم مبني على حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ وكيفية تصريفه للأمور، وفق مشيئته سبحانه وتعالى وعلمه المطلق بالأمور.

من هنا لا يمكن أن تكون تلك الرسالات العظيمة بؤرة للصراع والاختلاف ولا للاقتتال ولا النزاع بين الناس. وتقرر الآية أن ما حدث من اقتتال ونزاع بعد الأنبياء، حصل من قِبل بعض أتباع أولئك الأنبياء الذين لم يحملوا تلك الأمانة على وجهها الحقيقي، ولم يدركوا مقاصد الرسالات السماوية. وقد أعطى الله سبحانه وتعالى حرية الاختيار لعباده القائمة على المسئولية والاختبار والابتلاء فيما وهبهم من عقول.

فالآيات الواضحات البينّات في الكتب السماوية، دعت الناس إلى توحيد الله -عَزَّ وَجَلَّ- والتعاون على الخير والبر والتقوى، ولكن اختلفوا وتفرّقوا: (... وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ...) [البقرة: ٢٥٣]. فمن سار على الإيمان سار على نهج الأنبياء والرسالات السابقة، ومن تخلّف عن ذلك كفر برسالات الأنبياء التي دعت إلى الوحدة والتعاون لا إلى التفرّق والتقاتل.

والإنسان فردًا كان أو جماعة أو شعبًا ما كان له أن يحتج على فعله الاختياري ومعاصيه بمشيئة الله سبحانه؛ فهو مخيّر في المنهج الذي يتعامل فيه مع الناس حين يختلف معهم. فالصراع حدث من قبيل مخالفة المنهج الرّباني في الواقع الإنساني.

ثم تنتقل الآيات مباشرة بعد ذلك لمخاطبة المؤمنين عن المعاملات المالية في إطار منهج الإيمان، فالإيمان بالله سبحانه وتعالى صدقًا وحقًّا، هو الذي يعكس صدق وأمانة الإنسان في تعاملاته المالية.

والجزء الثالث يتحدث كثيرًا عن تلك الأمانات وتلك التعاملات، ويبدأ بذلك الخطاب المُحبّب :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [البقرة: ٢٥٤].

فالإنفاق وبذل المال الذي رزقه الله للإنسان من قبيل تصديق الإيمان بالفعل. فالإيمان اعتقاد أول ما يبدأ ويستقر في القلب، ويتحول إلى سلوك وأعمال؛ ولذا جاءت الآية عامة «أَنفِقُوا مِمّا رَزَقْنَاكُم». فقد يرزق الله العبد علمًا، أو قوة في الجسد أو في المقال أو موهبة معينة لا يمتلكها أحدٌ سواه. فعليه أن يستحضر أن كل ما لديه ليس من قبيل نفسه، بل من قبيل رزق الله سبحانه وتعالى له، والإنسان حين يستشعر أنه لا يمتلك شيئًا وأن الملك كله لله، وأن الرزق كله لله، وأن كل ما في يديه إنما استخلاف الله عَزَّ وَجَلَّ لذلك الإنسان، حينها تستقر مشاعر التواضع في سويداء قلبه، ويتعزز مفهوم البذل والعطاء.

وقد وضعت الآيات منظومة الإنفاق بشكلها العام بكل أنواع الإنفاق، وحددت معالم تلك المنظومة وبدأت بالآية الأولى؛ لتبين أن الإنفاق لا يمكن أن يؤتي ثماره دون أن يستشعر الإنسان أن كل ما لديه من الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن الزمن المحدد على هذه الأرض فترة محدودة؛ فكلما جاءته الفرصة للبذل والعطاء، عليه ألا يؤخرها: (... مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ) [البقرة: ٢٥٤]. الأمر الذي يؤسس مفهوم الاستباق بالخيرات.

ثم تنتقل الآيات إلى أعظم آية في كتاب الله؛ آية الكرسي، هذه الآية العظيمة التي جاءت لتكمل ما جاءت به الآية السابقة من إيقاظ نفس الإنسان أنه لا يملك شيئًا، وأن الملك الحقيقي لله الواحد القهار، من هنا تبدأ بلفظ الجلالة: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ...) [البقرة: ٢٥٥].

آية الكرسي تعرّف الإنسان على خالقه عَزَّ وَجَلَّ بسرد صفاته سبحانه وتعالى، فتبدأ بلفظ الجلالة «الله» ليتعلّم الإنسان لمن يبذل ويعطي ويقدّم، فيكون عمله خالصًا لوجّهه سبحانه لا لغيره. ثم تأتي على قوله عَزَّ وَجَلَّ «لاَ إِلَهَ إِلاَّ هو» تلك الشهادة التي لا يمكن أن تصح الأعمال ولا تُرفع ولا تُقبل بدونها: «اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ».

شهادة التوحيد التي قامت بها السموات والأر ض، شهادة التوحيد التي يصلح بها أمر الأرض والسماء، شهادة التوحيد التي جاء بها الأنبياء، شهادة التوحيد التي هي دعوة النبي - ﷺ - ومن قبله من الأنبياء[130]،

١٣٠. قال ابن القيم رحمه الله في مقدمة زاد المعاد - ط٢٧ مؤسسة الرسالة (١/ ٣٦): أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة قامت بها الأرض والسماوات، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرع

شهادة التوحيد التي قامت على أساسها كل الشرائع السماوية، شهادة التوحيد التي قامت على أساسها كل الأوامر والنواهي، دعامة المنهج الرّباني الذي أمر به عَزَّ وَجَلَّ أن ينفّذ في واقع الحياة، شهادة لا يستقيم أمر ولا نهي بدون تحقق تلك الشهادة، شهادة التوحيد «اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ» لا يمكن أن يستقيم إنفاق ولا بذل ولا عطاء ولا منع بدون أن يتحقق في قلب الإنسان وواقعه أنه لا إله إلا الله، لا مصرِّف للأمور إلا الله، لا مدبّر في الكون إلا الله، لا رازق إلا الله، لا واهب إلا هو، لا أحد يعطي ويصرّف ويتصرف في الكون إلا هو سبحانه وتعالى.

«الْحَيُّ الْقَيُّومُ» وجاءت الآية بتلك الصفتين،، الصفة الأولى: صفة الحياة المطلقة الدائمة، كما في قوله تعالى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) [الفرقان: ٥٨] الحياة صفة من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ، حياة مطلقة، فالكل يموتون، وهو سبحانه الباقي الذي لا يموت: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [القصص: ٨٨].

شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار والأبرار والفجار، فهي منشأ الخلق والأمر والثواب والعقاب، وهي الحق الذي خلقت له الخليقة، وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، وعليها نصبت القبلة، وعليها أسست الملة، ولأجلها جردت سيوف الجهاد، وهي حق الله على جميع العباد، فهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وعنها يسأل الأولون والآخرون، فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ اهـ.

والصفة الثانية: (الْقَيُّومُ)؛ أي القائم على تصريف كل شيء من أصغر شيء في الكون إلى أكبر أمر فيه، ما تسقط من ورقة على شجرة إلا يعلمها، ولا تتحرك نسمة هواء في هذا الكون إلا وهو المحرّك الأول لها، سبحانه لا يتحرك شيء في الكون إلا بعلمه وبمشيئته سبحانه وتعالى.

قائم على كل نفس بما كسبت، ملك متصرف في مملكته كأعظم ما يكون التصرف، ملكًا ومنعًا وعطاءً وتصريفًا وتقديرًا وأخذًا، هذا التصريف العظيم لا يكون إلا من الله سبحانه وتعالى.

وهنا تبدأ تتضح معالم ومقاصد أن تكون هذه الآية هي أعظم آية في كتاب الله، لتعزيز إيمان المرء باستحضار أن الله هو القائم بتصريف الأمور المدبّر لكل شيء في مملكته. فإذا استقرت هذه الحقيقة في القلب، يدرك حينها الإنسان ضعفه كإنسان أمام قوة الله المطلقة سبحانه وتعالى، الأمر الذي يجعله يخلص التوجّه لله سبحانه وحده بالإيمان والاستسلام والخضوع والانقياد له دون سواه؛ فالبشر كلهم عاجزون يمرضون ويموتون، يضعفون ويعجزون، فلم ينقاد العاقل لهم ويخضع لأمرهم؟!.

وهنا يبدأ القلب يخضع وينقاد ويستسلم لأوامر الله سبحانه وتعالى، ويسلّم زمام أمره وقياد حياته في الصغيرة والكبيرة في السِلم والحرب، في الأسرة والاقتصاد للخالق الحيّ القيوم الذي لا تستقيم الأمور إلا بإذنه.

«لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ»، وهنا تتساقط كل التوجهات الشركية والأنداد ليتحرر الإنسان من سلطة الخضوع لأحد من دون الله سبحانه وتعالى.

(... مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ...) [البقرة: ٢٥٥] والشفاعة – التي كان يزعم المشركون أنهم لا يعبدون من دون الله شيئًا إلا ليقرّبهم إلى الله زلفى[131] – نفاها ربي سبحانه وتعالى عن كل أحد إلا بإذنه.

ثم تأتي الآية على علمه سبحانه وتعالى؛ العلم المطلق، لتُدخل ذلك الإنسان في عملية مراقبة مستمرة دائمة لخلجات مشاعره، لخواطره، ولما يدور في نفسه؛ فكل صغيرة وكبيرة، الله مطّلع عليها (... يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ...) علم مطلق على كل شيء في هذا الكون. يعلم ما كان وما يكون، يعلم كل صغيرة وكبيرة، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، لا في سرّ ولا في علانية.

من هنا كانت آية الكرسي العظيمة في كل مقطع من مقاطعها تبني في النفس علاقة ودعامة لعلاقة الإنسان مع الله عَزَّ وَجَلَّ، علاقة مبنية على قمة الإيمان بقدرته سبحانه وتعالى و بسلطته المطلقة: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ».

١٣١. ١٣٦– قوله سبحانه: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣]

من هنا جاءت الآية التي تليها لتقرر أن الإيمان والاعتقاد لا يمكن أن يُبنى إلا على الحرية، فلا يُبنى على الإكراه، ولا يُساق الناس بالسلاسل للإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ، فالإيمان مبناه الحرية في الاعتقاد، ولكنها حرية تترتب عليها مسئولية كاملة عن الاختيار.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

الآية تقرر حرية الاعتقاد وهي عامة، يتضح فيها الترابط مع ما قبلها فالإنسان العاقل يستطيع أن يدرك من هو المستحق للعبادة والخضوع دون سواه بعد كل هذه الآيات البينّات. وتأملوا معي كيف جاءت الآية ﴿... فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ ...﴾؛ طاغوت هو كل ما طغى وتجاوز وزاد عن الحد فهو طاغوت من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه؛ غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله.[132] وتتنوع وتختلف وتتعدد أشكال الطواغيت في العالم.

والتدبّر في الآية وما قبلها يسهم في فهم كيفية نشأة ظاهرة الطواغيت وصناعتهم، حين يتصور الإنسان أن أيّ أحد أو أيّ شيء في هذا الكون له

١٣٢. - ابن القيم في إعلام الموقعين عن رب العالمين - ط١ دار الكتب العلمية (١/ ٤٠).

مساحة أكثر من المساحة التي ينبغي أن تكون له، و حين يعتقد متوهمًا أن أحدًا يمتلك شيئًا من دون الله سبحانه وتعالى، من هنا يتشكل الطاغوت.

والطاغوت قد يكون شخصًا وقد يكون شيئًا، فكل ما يتجاوز الحدّ، كل ما يتجاوز معالم المنهج الرّباني الذي وضعه الله عَزَّ وَجَلَّ له يتحول إلى طاغوت، الإنسان المتجبر المتسلّط يتحول إلى طاغوت حين يظن أن ما ملكّه الله سبحانه وأعطاه من مفاتيح الملك والقوة، تعني أنه يمتلك السيطرة على مقدرات الناس والتحكم في حياتهم، كما ستأتي الآية التالية في قصة الذي حاجّ إبراهيم في ربه. فقد اعتقد أنه يمتلك قدرة مضاهية لقدرة الله عَزَّ وَجَلَّ في الإحياء والإماتة فطغى وتكبر، ولذلك القرآن يقول عن فرعون: إنه طغى، (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) [طه: ٢٤]، طغى حين تصور أشياء ليست من اختصاصه، وظنّ واهمًا أنها له.

فمن يكفر بالطاغوت لا بد أن يؤمن بشيء آخر مقابل هذا الكفر، لا يمكن أن يكفر الإنسان ولا يؤمن بشيء مقابل ذلك الكفر، من يكفر بالطاغوت سيؤمن بالله، ومن يؤمن بالله فقد استمسك؛ أي طلب التمسك بقوة وشدة بالعروة الوثقى.

والعروة الوثقى على قول أغلب العلماء والمفسرين؛ قول «لا إله إلا الله»[133]؛ كلمة التوحيد الخالدة، كلمة التوحيد التي قامت بها السموات

١٣٣. - اختلفت عبارة المفسرين في الشيء المشبه به، فقال مجاهد: العروة الإيمان. وقال السدى: الإسلام. وقال ابن عباس وسعيد ابن جبير والضحاك: لا إله إلا الله،

والأرض، كلمة التوحيد التي جاء بها الرسل[134]، كلمة التوحيد التي عليها صلاح العالم في الدنيا والآخرة، كلمة التوحيد التي لا يصلح العمل إلا بها.

«فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» سميعٌ: يسمع كل صغيرة وكبيرة، يسمع خواطر النفس وهي تحدّث صاحبها دون أن ينطق بها، عليم بكل شيء، عليم بما يختلج في القلب من إيمان واعتقاد أو نفاق وكفر. وفي ذكر السميع العليم؛ تذكير للمؤمن بتصحيح نيتّه وتفقّد خواطره وقلبه حتى يبقى صافيًا نقيًا.

من هنا كانت آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله؛ إذ إنها تبني الإيمان والاعتقاد على نور وبصيرة، و على الإيمان بأن الله سميع عليم، فهو الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ولا في باطن الإنسان ولا ظاهره.

أما وقد استقرت هذه الحقائق في قلب المؤمن وآمن بالله واستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام ولا انقطاع لها، إذًا فقد استحق ولاية الله: (اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ

وهذه عبارات ترجع إلى معنى واحد. اهـ. الراغب الأصفهاني في تفسيره - ط١ كلية الآداب جامعة طنطا (١/ ٥٣٢)

١٣٤. - قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّه وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل: ٣٦] وقال سبحانه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) [الأنبياء: ٢٥].

الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون) [البقرة: ٢٥٧] .

وهنا يظهر الرّبط البديع بين الآيات وبين الاستمساك بالعروة الوثقى، وبين ولاية الله للمؤمنين المستمسكين بها. ماذا يحدث حين يصبح الله سبحانه وتعالى وليًّا لعبد؟.

تشكّل الآية التي سبقتها الشرط لولاية الله لأمور العبد، فلا يتولى الله عَزَّ وَجَلَّ أمور عبد لم يؤمن بالله ويستمسك بالعروة الوثقى - شهادة التوحيد - اعتقادًا وقولاً وفعلاً وسلوكًا.

فكلمة التوحيد ليست مجرد كلمة باللسان؛ «لا إله إلا الله» فحسب، فمقتضاها تحقيق تلك الشهادة حضورًا في الواقع والسلوك في كل صغيرة وكبيرة، حين يعطي، و يسامح، حين يعفو، و يتعامل مع الصغير والكبير.

هذا الإنسان يشهد أن لا ربّ سوى الله عَزَّ وَجَلَّ، أن الله سميع عليم بكل شيء، من هنا كان من قال لا إله إلا الله موقنًا بها دخل الجنة[135]؛

١٣٥. - روى البخاري في صحيحه (١٢٨) من حديث معاذ أن النبي ﷺ قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، صدقًا من قلبه، إلا حرمه الله على النار». وروى مسلم في صحيحه (٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة» وروى قبله حديث عثمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله، دخل الجنة».

لأن تلك الكلمة ما عادت مجرد كلمة، وإنما صارت عملاً يحرك كل ذلك الإنسان، يحرك كل كيانه وخواطره ومشاعره وسلوكياته وتعامله وتصرفاته، وبذلك استحق أن يكون الله سبحانه وتعالى وليًا لهذا الإنسان: «اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ»، فالله حين يتولى أمر العبد فلا عليه ما فاته من الدنيا، فالله وليه حاميه وكافيه ورازقه.

وهنا تظهر العلاقة بين أعظم آية في كتاب الله - آية الكرسي - والرقية الشرعية التي تجعل الإنسان يشعر أنه في حصن، و حماية وكفاية من رب العباد.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ...﴾ [الزمر: ٣٦]، فهل يخاف من يكون الله وليه وكافيه؟! .

﴿... يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ ظلمات الطاغوت الذي بطبيعته يُدخل الإنسان في ظلمات الشبهات والشهوات والأهواء والمصالح الشخصية المتعددة الغريبة التي تتنوع في كل زمان وفي كل مكان.

«يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ» فالله هو الذي يخرج العبد من الظلمات المتعددة إلى نور الإيمان واليقين.

وروى الطبراني في الأوسط المعجم الأوسط (٢٣٨/١) حديث رقم (٧٧٨) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله موقنا دخل الجنة».

وفي المقابل ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ فالكافر يصبح عبدًا لذاك الطاغوت، يتحكم في حياته. وهنا تظهر معنى آثار أن يسير الإنسان على المنهج الشيطاني دون منهج الله عَزَّ وَجَلَّ، ليصبح مشتتًا ممزّقًا تتقاذفه الأهواء والطواغيت، تُخرجه من نور التوحيد والإيمان إلى ظلمات الجهل والكفر والطغيان.

حياة هذا النوع من البشر نار في الدنيا قبل نار الآخرة: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة: ٢٥٧]، هذا النوع من البشر الذي يتولاه الطاغوت يعيش في شقاء و نكد، لا يدري أين يتوجه، ولا بأي قانون أو تشريع يدين.

هذه الآيات الثلاث العظيمة تشكّل عظمة الاعتقاد الذي بنته سورة البقرة، ولذا كان من المناسب أن تنتقل الآيات إلى موقف إبراهيم وذاك الرجل الذي يشكّل نموذجًا للطاغوت علا في الأرض وأفسد فيها بظلمه وكفره، و بإنكاره لوجود الله عَزَّ وَجَلَّ وقدرته وصفاته العظيمة التي جاءت في آية الكرسي.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [البقرة: ٢٥٨].

رجل امتنّ الله عليه بأُلملك وهو ليس بملِك مطلق قطعًا، فأُلملك المطلق لله الواحد القهار، ولكن الله خوّله نعمة التصرّف في مكان معين لوقت معين محدود، ولكنه لم يفهم تلك المعادلة الصعبة، وتصور أنه يمتلك مُلكًا حقيقيًا من دون الله، فإذا بهذا الطاغوت المتجبر المتكبر يقول واهمًا جاهلً ا: «أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ».

والرّبط بين هذا الموقف العملي لذلك الطاغوت وبين الآية التي سبقتها بقوله عَزَّ وَجَلَّ: «أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ»؛ نور الحقيقة والواقع، فلا أحد يملك القدرة على الإحياء والإماتة إلا الله، ولكن هذا الرجل المتجبر ما رأى تلك الحقيقة وذلك النور؛ لأنه قد أُخرج من نور الحقيقة والواقع إلى ظلمات الكفر والجهل، فما رأى تلك الحقيقة وظنّ أنه يحيي ويميت.

(... قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ...) [البقرة: ٢٥٨]، نجد هنا نوعا من أنواع التعامل الرائع، فيه لفتة عظيمة؛ في حين ترى أن الطرف الذي أمامك لا يرتقي إلى المستوى الذي أنت فيه، حاول أن تخاطبه على قدر عقله: «قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ»، وهنا لم يتمكن من المحاجّة أكثر من ذلك.

(... فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [البقرة: ٢٥٨]، «فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ» وبقي على كفره، «وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ». ولنا

أن نتساءل عن دقة التعبير القرآني: «وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»، لماذا لم يكتب الله الهداية لهؤلاء الظالمين؟

لأنهم لم يكونوا أهلاً ولا محلاً لتلك الهداية بظلمهم، فالظالم ما عاد أهلاً ولا محلاً للهداية؛ لأنه ظلم نفسه بالكفر، أما لو أنه آمن لكان محلاً لهداية الله، أما وأنه قد كفر فإن كفره وقع باختياره؛ لأنه لا إكراه في الدين؛ فالكفر قرار اختياري يترتب عليه الضلال والبعد عن الله عَزَّ وَجَلَّ بحكم اختياره وقراره، أما وأن الإيمان قرار اختياري؛ فالهداية نتيجة مترتبة وثمرة طبيعية لاختيارك الذي قمت به بأمر الله وهو الإيمان.

ثم تقدّم الآيات العظيمة صورة أخرى لذلك الإنسان الذي يمرّ على الآيات في الكون دون أن يتفطن إليها، في حين أن المؤمن الفطن العاقل مطالب بقراءة الآيات المبثوثة في الكون، لتتحرك فيه بذور الإيمان والعودة والرجوع لخالقه سبحانه وتعالى: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [البقرة: ٢٥٩]. فالآية هنا تتكلم عن الحياة والموت، وهما من أعظم الآيات الجارية في الخلق. والتناسب واضح بين آية الكرسي التي جاء فيها قوله عَزَّ وَجَلَّ «الحيّ القيّوم»، وبين

هذه الآيات التي تتحدث عن مظاهر إحيائه سبحانه وتعالى لكل شيء في هذا الكون، التي هي مظاهر حقيقية تدل على أن الله حيّ قيوم. هذه المظاهر يراها كل الناس يمرّ عليها المؤمن والكافر، ولكن المؤمن حين يمرّ عليها يتحرك الإيمان في قلبه ويتجدد، فيخرجه من الظلمات إلى النور، أما الكافر فيمرّ على الآيات بغفلة ورعونة، فتزيده تلك الآيات كفرًا وظلمًا وظلمة رغم عظمتها.

(... فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ...) [البقرة: ٢٥٩]، إنه قادر على كل شيء (... قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ...) [البقرة: ٢٥٩]، وهنا الآيات تعرض جانبًا من قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ وتقريب مرور الزمن وعدم شعور الإنسان به بعد الانتقال إلى العالم الآخر: (... فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ...) [البقرة: ٢٥٩] .

فالشيء الطبيعي أن هذا الطعام سينتهي ويتحلل بمرور تلك الفترة الزمنية الطويلة، إلا أن الله سبحانه هو الذي بيده كل الأسباب يوقفها بإرادته وقدرته متى ما يشاء ويُجريها حين يشاء، فهو مسبب الأسباب، وبهذا ينقطع التفات المؤمن إلى التمسك بالأسباب والتعلق بها من حيث الركون إليها دون مسبب الأسباب. أما من حيث الأخذ بها، فهو مطالب بذلك، ولكن مع اليقين بأنها لا تعمل أو تتوقف بذاتها دون إرادة الله سبحانه.

من هنا توجّه الآية إلى التعلق بمسبب الأسباب دون النظر إلى الأسباب؛ لأن هذه القضية مهمة جدًا في كل التصرفات والسلوكيات

بما فيها قضايا المعاملات المالية التي ستأتي في الجزء الثالث من سورة البقرة.

﴿... فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. «كيف» الكيفية مثال حسي، مثال مادي أمام الأعين والأبصار وأمام القلوب التي تستطيع أن تنتفع بالآيات وبالهدى، فتأتي الآيات فتزيد منسوب الإيمان واليقين فيها.

ثم تنتقل في نفس السياق لبناء اليقين بالله عَزَّ وَجَلَّ، هذه الآيات بأسرها تبني الإيمان واليقين، تؤكده وترسخه في نفس الإنسان حتى لا يحيد ولا يزيغ عنه أبدًا.

وتواصل الآيات في قصة إبراهيم - عليه السلام - وفي سؤاله عن كيفية إحياء الموتى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.
[البقرة: ٢٦٠-٢٦٢]

وهنا تأتي هذه المعاني في بدايات الجزء الثالث؛ ليجعل من الإيمان بالبعث حقيقة ثابتة راسخة في قلب المؤمن لا يتغير عنها ولا يحيد، لا في تصرفاته ولا في سلوكه، فتأتي السلوكيات والأفعال مصداقًا لتلك الحقيقة الراسخة من اليقين والإيمان.

من هنا كان الترابط والتناسب العجيب الذي جاء يتحدث عن المعاملات المالية بعد الحديث عن الإيمان واليقين وصفات الله عَزَّ وَجَلَّ وقدرته على الإحياء والإماتة وأنه حيّ قيوم.

حتى تنعكس حقيقة الإيمان بالبعث على سلوك الإنسان حين ينفق ويعطي ويقدم ما لديه في سبيل الله. فالمؤمن لا ينفق بشكل آلي دون تفكر واستذكار لليقين بأن المال ليس ملكًا صرفًا للإنسان، بل هو أمانة من المالك الحقيقي سبحانه وتعالى.

فالمال سبب ووسيلة، وليس غاية ولم يُخلق العبد لجمع المال وكنزه، بل لجعل العالم الذي يعيشه أفضل وأحسن؛ فالذي وهبه المال هو الذي أمره بالبذل والعطاء.

فإذا ما بذل الإنسان؛ استجابة لأمر مسبب الأسباب ورازق الخلق، فإنه سيجعل له من الأسباب ما يغنيه ويخلف به عليه.

من هنا كانت منظومة الإنفاق مبنية على اليقين بأن ما يبذله في سبيل الله، سيعود عليّه بأضعاف مضاعفة؛ لأن الذي يبذل في سبيله هو القادر على مضاعفتها أضعافًا مضاعفة فهو مالكها الحقيقي دون سواه.

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: ٢٦١].

فالإيمان بصفات الله عَزَّ وَجَلَّ تنعكس على بذل الإنسان وعطائه. إيمانه بأن الله واسع في عطائه، عليم بصدق العبد، وهو يعطي، يخلّص العبد من الشح والوقاية منه. فالمال لا ينقص بالصدقة، بل يضاعف أضعافًا مضاعفة على قدر ما في القلب من اليقين بأن الله سيضاعف.

وتواصل الآيات العظيمة بناء منظومة الإنفاق في سورة البقرة، لتقدّم آدابًا روحية ومشاعر تصقل وتسمو وترتقي بالإنسان، فالإنفاق ليس لأجل الفقير ومساعدته فحسب، بل الإنفاق أولًا وابتداءً لنجاة المتصدِق ذاته من الشح والضعف أمام المال والانهزام تحت وطأته.

الإنفاق يأخذ من نفس المنفِق شوائبها وكدرها، فلا يُبقي فيها طمعًا في ثناء بشر أو سعيًا وراء كلمة مديح أو شهرة بين الناس بالكرم والجود، من هنا جاء النهي عن إتباع الإنفاق بالمنّ والأذى لنفس الفقير: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [البقرة: ٢٦٢]. فالذي يؤمن أن المال مال الله - عَزَّ وَجَلَّ - وأن العطاء من عنده، لن يُتبع ما ينفق بالمنّ على أحد. فالذي ينفق في سبيله سبحانه هو صاحب المنّة والفضل أولًا وابتداءً.

فالمال ليس مالاً لأحد من البشر، وليس ملكًا خالصًا له، وإنما الملك الحقيقي لله الواحد القهار،

فلا يليق بالمؤمن الذي قد استقر اليقين في قلبه أن يمنّ على أحد من الناس أن أجرى الله سبحانه على يديه طاعة له.

وهنا يأتي التقابل بين المنّان الذي هو من أسماء الله سبحانه وتعالى وبين المنّ المنهي عنه بعد الإنفاق. من هنا اختصَّ الله تعالى المنَّ لنفسه؛ لأنه من العباد تكدير وتعيير، ومن الله تعالى إفضالٌ وتذكير كما ورد عن ابن القيم.

ولو تأمل الإنسان في منّة الله سبحانه وتعالى عليه حين يفتح له باب العطاء للخلق، لسجد شكرًا لخالقه الذي جعل يده تمتد بالعطاء لا تمتد لأخذه.

ثم تستمر الآيات في نفس المنظومة؛ لتهذّب نفس المؤمن وتجعل الفعل والسلوك مرآة صادقة تعكس صفاء الإيمان ونقاوة اليقين الذي قد استقرّ في قلب المؤمن حين يعطي ويبذل من نفسه وماله: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، حتى لا يخالج فكره حين ينفق أنه صاحب الفضل والعطاء ابتداءً.

فالعطاء ليس في حجمه المادي، بل في الأثر الحسن والفعل الذي يتركه ذلك العطاء، فالذي يقوم بمعروف ويتبعه بمنٍّ أو أذى، لا يستوي

مع من لا يملك العطاء المادي، ولكنه يملك الكلمة الطيبة والمشاعر الصادقة التي تدخل السرور على صاحب الحاجة ولا تجرحه.

فالأمور بغاياتها ومقاصدها في شرع الله، وليس بجزئياتها. وعلى المنفق استحضار هذه المعاني العظيمة حين ينفق، فالله غني عن تلك الصدقة، والمحتاج الأول إليها هو صاحب الصدقة.

وتستمر الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٤-٢٦٥]، وتأتي بالأمثلة من الواقع الإنساني لتقرّب الصورة إلى الأذهان وتعزز القيم الأخلاقية المصاحبة للعطاء والبذل؛ فالمنّ والأذى يُبطل الصدقة حتى وإن كانت القيمة المادية لتلك الصدقة كبيرة، فالأشياء ليس بقيمتها المادية، بل بقيمتها المعنوية التي أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون وتتحقق فيها. فالإنسان الذي يرائي الناس بصدقته وبذله دون التوجّه لله سبحانه بالطاعة، والذي يُتبع ما ينفق بالمنّ والأذى من القول وربما بالفعل لمن بذل له وأنفق، لا ثمرة حقيقية لعمله. وجاء القرآن الكريم بمثلين متقابلين لبيان الفارق الشاسع بين المرائي

وبين المخلص في إنفاقه لوجه الله؛ فالأول كالحجر الصلد المغطى بتراب لكن ذاك الغطاء ظاهري، وليس ترابًا صالحًا للزرع والإنبات، فإذا ما نزل عليه الماء الذي يُفترض فيه أن يساعده على الإنبات، إذا به يكشف عن حقيقته وطبيعته غير القادرة على الإنبات. أما المؤمن المتوجّه بعمله وصدقته لخالقه سبحانه وطمعًا في مرضاته، فهو كالجنة الصالحة للمزيد من العطاء ومضاعفته سواء في ذلك إذا ما نزل عليها الوابل؛ أي الغيث الشديد أو القليل الضعيف، أثمرت وأعطت لطيبها وقدرتها الذاتية على العطاء والإنبات. فالمؤمن إن أنفق قليلاً أو كثيرًا بحسب قدرته، تتقدم على نفقته نفقته النّية الصادقة والإخلاص في العمل، فتثريه وتغنيه وتضاعف بذله ولو كان قليلاً، بخلاف المنافق أو المانّ والمرائي حتى البذل الكثير لا ينفع فيه ولا يؤثر في صلابة وقساوة قلبه الذي علاه النفاق والجري وراء الناس. وتختم الآيات بأن الله سبحانه وتعالى بصير بعمل الإنسان ليستحضر المؤمن نظر الله سبحانه وتعالى إلى عمله الظاهر والباطن، فيعمل على تنقيته من كل شائبة من رياء أو منّ أو أذى.

وتستمر الآيات الكريمة في تقوية دافع الإخلاص ودواعيه في البذل والإنفاق من ناحية خاصة، لتؤكد أن الأصل في العمل؛ الصدق في النّية وإخلاص التوجّه لله سبحانه وحده دون سواه: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ

يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. [البقرة:٢٦٦-٢٦٧].

فلا شيء ينفع الإنسان كالصدق مع الله سبحانه وإخلاص العمل له. قد يكون العمل كبيرًا في حجمه ونوعه ومظاهره؛ فكفالة أيتام هنا، وحفر آبار هناك، وبناء مدارس، وربما مساجد، وغيرها من أعمال الخير والبرّ التي هي أنفع الأعمال للإنسان يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا أن عدم الإخلاص فيها، أحرقها وأزال نفعها مع شدة حاجة الإنسان إليها يوم القيامة.

وللإخلاص في الإنفاق علامات ودلالات لعلّ من أهمها: اختيار الأجود والأطيب والأفضل لتقديمه بين يدي الله سبحانه الغني الحميد، من هنا جاءت الآية الكريمة لتؤسس مبدأ الإحسان في الإنفاق من خلال بذل أفضل ما يمتلكه الإنسان، وتوخي الأفضل للإنفاق، والحذر من تقديم الرديء صدقة لله سبحانه.

وبقدر تيقن الإنسان أن الله سبحانه هو الرزاق مالك الملك الغني عن العباد وأموالهم، الواهب لهم قبل أن يسألوه، يكون تحري المؤمن لنوعية الصدقات وجودتها؛ فاليقين كلما زاد في القلب، زاد العطاء والسخاء والبذل للأفضل والأحسن؛ فلا يستقيم الإيمان والبخل الذي هو عدم

يقين في موعود الله وسوء أدب معه سبحانه وتعالى، من هنا جاءت الآية التي بعدها بقوله سبحانه:

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ. وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) [البقرة: ٢٦٨-٢٧٠] وهنا تقدّم الآيات تحليلاً لما يحدث في عقل الإنسان حين يمسك عن العطاء من الوهم بأن المال ينقص بالصدقة والإنفاق. جاء في الحديث: عن أبي هُريرة أَنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قَالَ: مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّه». رواه مسلم

فالقرآن يعالج ذلك الوهم بتأكيد أن إخراج الصدقات يزيد المال وينّميه ويربيه. هذه هي الحقيقة، وأن عطاء الله عَزَّ وَجَلَّ لا نهاية له، ولا ينحصر في الأشياء المادية، إنما هو عطاء بكل أشكاله وصوره. ومن صور ذلك العطاء الرباني؛ الحكمة.

والحكمة: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي.[136] من هنا أمر الله سبحانه وتعالى بها: ((ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ))[سورة النحل، الآية:١٢٥].

---

١٣٦. - ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج٢، ص ٤٤٩.

والحكمة من عطاء الله عَزَّ وَجَلَّ الذي لا يُشترى بمال الدنيا، فكم من صاحب مال وفير، لا يمتلك من الحكمة ما يجعله يحافظ على اليسير من ماله.

من هنا جاءت الحكمة بعد الحديث عن الإنفاق والإخلاص فيه، فهي هبة إلهية يتعرض المؤمن لنفحاتها بزيادة اليقين بالله عَزَّ وَجَلَّ وإخراج الشح من قلبه؛ فكلما زاد اعطاء الإنسان وبذله لمساعدة الآخرين، موقنًا بما عند الله سبحانه، زاده الله حكمة تمكنّه من معرفة ما ينبغي عمله. ومن أعظم الحكمة أن ينفق الإنسان من ماله في حياته قبل فوات أوان الإنفاق والبذل.

وتستمر الآيات في بناء الإخلاص في الإنفاق وتصفيته من حظوظ النفس وكل شوائب الرياء: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١]؛ فالصدقة سواء كانت سرّا حين يقتضي الأمر السرّ، أو علانية حين يقتضي الأمر الإعلان، وتشجيع الآخرين على البذل والعطاء، كلها ينبغي أن تكون لله وحده الخبير بعمل الإنسان وما يخالطه من النية والقصد.

فكل ما يعطيه الإنسان في أي سبيل غير سبيل الله، لا قيمة له، ولذا جاءت الآية التي بعدها: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٢٧٢]؛ فما يعطيه ويبذله الإنسان من خير فهو راجع إليه ولأجل تنقية نفسه وتخليصها من الشح وشوائب النفس، وأن الإنفاق الذي ينفع صاحبه هو ذاك البذل الخالص لوجه الله سبحانه.

ولذلك تستمر الآيات في هذا الجزء من سورة البقرة بإعطاء نماذج لأولئك الذين يستحقون العطاء من الذين لا يُظهرون للناس الفقر والحاجة والعوز؛ ممن علا إيمانهم بكرامتهم فوق الحاجة المادية حتى وصل بهم حدّ التعفف:

(لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ. الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ).[البقرة:٢٧٣-٢٧٤]

وعزة المؤمن وكرامته لا تخدشها الحاجة المادية ولا الفقر، فيقينه بالله يجعله يدرك أن الأرزاق بيد الله عَزَّ وَجَلَّ وليست من عطاء أحد من البشر.

من هنا كان المؤمن - ولو كان صاحب حاجة - غير وقّاف على أبواب الخلق يستجدي منهم العطاء، فالعطاء يأتي من الرّب سبحانه الذي أمر المؤمنين بالبحث عن المتعففين الأعزة الذين لا تدفعهم الحاجة إلى ذلّ السؤال والطلب.

من هنا كان عطاء المؤمن وإنفاقه في وجوه الخير لا ينحصر في ليل أو نهار، في سرّ أو في علانية. وهنا تعالج الآيات إشكالية الموسمية عند البعض في الخير والإنفاق؛ فالإنفاق الذي تصنعه سورة البقرة في نفوس المؤمنين إنفاق وعطاء لا يعرف التوقف والموسمية في رمضان أو غير ذلك من أيام الخير والطاعات، فكل الأيام فرص للعطاء والبذل.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وهنا أصبح الأجر مفتوحًا لا سقف له ولا حدود، فالأجر عند الله سبحانه عظيم ومنّته كبيرة لأولئك الذين استقرت في قلوبهم هذه المعاني العظيمة من الإيمان الذي صنعته سورة البقرة العظيمة. والتناسب بين الأمان من الخوف والحزن وثواب الإنفاق والعطاء عظيم؛ فالمؤمن الذي لم يخش الفقر والنقص في ماله عند البذل والعطاء، أمنّه الله سبحانه من كل خوف وحزن.

وهذا الجزاء العظيم لا ينحصر في الآخرة فحسب، بل يمتد ليشمل الدنيا كذلك؛ فالإنفاق والبذل حصن أمان للمؤمن من الخوف من الفقر والحاجة وألم الحزن على قلة المال أو فقدانه، بوعد من الله سبحانه وتعالى.

ومن الأزمات التي تعاني منها الإنسانية اليوم، ذلك الخوف المشوب بالحزن على أموالهم ومستقبلهم أو مستقبل أولادهم المادي الذي قد

يدفع الناس إلى حدّ الحرص الشديد والتكالب على المال والصراع في تحصيله. وهي أمور حاصلة في كثير من المجتمعات المعاصرة، حتى بات البعض من الخوف على الرزق في قلق دائم وهمّ قائم.

ذلك القلق الذي قد يدفع الإنسان إلى الحرص على تحصيل المال بمختلف الوسائل ولو كانت غير مشروعة. من هنا جاء الحديث عن الربا بعد هذه الآيات؛ فالربا طريق غير مشروع، فيه استغلال وجشع لا يليق بإنسانية الإنسان وتعامله مع غيره من بني البشر. غالب الدوافع لتحصيله تنبع من خوف الإنسان من نقصان رأس ماله.

من هنا تنتقل الآيات إلى صورة أناس يرون أن أرصدتهم في البنوك تزداد بالربا[137]، وتنقص بالزكاة والصدقات.

---

١٣٧. - الربا: فضل خال عن عوض بمعيار شرعي مشروط لأحد المتعاقدين في معاوضة، وأنه اسم لمقابلة عوض بعوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد، أو تأخر في البدلين، أو أحدهما، وأنها الزيادة في أشياء مخصوصة. وهي عند المالكية، والحنفية: هو كل بيع فاسد أيضا. وهو بشكل عام عدة أنواع: منها ربا الجاهلية: هو أنه قد يكون على الرجل دين لرجل، فيحل الدين، فيقول له صاحب الدين: تقضي، أو تربي. وربا الفضل، وهو البيع معه زيادة أحد العوضين على الآخر، كبيع دينار بدينارين، نقدا ونسيئة، وصاع بصاعين، ورطل برطلين، يدا بيد، ونسيئة. عبداللطيف الحاتمي، الفوائد التأخيرية وشرعيتها، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٨م، نقلا عن: ولد أمين، (February 01, 2015). الربا في التشريعات الموريتانية: دراسة فقهية قانونية. مجلة الفقه و القانون، Issue 28, pp.85-155, 2015 Issue 28, pp.85-155, 1.2015

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ) [البقرة: ٢٧٥-٢٧٩] .

والآيات تصف سلوك الإنسان المتذبذب يسير في حياته بلا منهج متخبطًا يرى الحرام كالحلال في مقاييسه، فالربا كالبيع في شرعهم المعوج، فكلاهما زيادة في رأس المال. من هنا جاء عن السعدي في تفسيره: (لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربوية خفت أحلامهم وضعفت آراؤهم، وصاروا في هيئتهم وحركاتهم يشبهون المجانين في عدم انتظامها وانسلاخ العقل الأدبي عنهم).[138]

ولا ينحصر التخبط في حال القيام من القبور كما ذهب إليه جمع من المفسرين، بل يعيش حالة التخبط في حياته من يلهث وراء

١٣٨. - تفسير السعدي، الآية ٢٧٥.

المكاسب المادية وزيادة رأسه ماله دون النظر في الوسائل المشروعة منها أو المحرّمة. كما أن الآيات تقدّم منهج التبرير الذي يسلكه أولئك المخالفون لأمر الله سبحانه؛ فتراهم يطلقون على الربا أنه بيع، وعلى الرشوة أنها هدية، وهكذا عشرات المخالفات والسلوكيات المحرّمة يسموّنها بغير حقيقتها.

وليس البيع كالربا؛ فالبيع عملية مشروعة مباحة فيها مكابدة وتداول للمال والعمل، أما الربا فهي استغلال لحاجة الغير. والمال لا يتكاثر بنفسه دون عمل.[139] من هنا ختمت الآية بالوعيد بالعقوبة الأخروية المتمثلة في الخلود في النار لفاعلها والمصر على التعامل بها بعد نزول الحكم الشرعي فيها وبيانه. والتحريم الوارد هنا جاء في صورته القطعية.

وانتقلت بعدها إلى العقوبة الدنيوية المتمثلة في المحق. الذي هو محو وإبطال ونقص وإذهاب للبركة. وكلمة المحق جامعة لكل هذه المعاني، ليفهم المرابي أن الزيادة الظاهرية في المال ليست زيادة

١٣٩. -يعود ظهور الربا إلى تفتق عبقرية الإنسان عن إمكانية المتاجرة بالنقود في النقود، وترجع المصادر التاريخية هذه الظاهرة إلى ٣٧ قرنا قبل الميلاد، فقد كشفت الحفريات في بلاد ما بين النهرين أن المعابد هي التي كانت تباشر عمليات القرض، وأن سعر الفائدة على النقود كان في حدود ٢٠ في المائة، وعلى الشعير في حدود ٣٣ في المائة، وأن الاسترقاق كان يتهدد المقترض وعائلته في حالة عدم السداد. ولد أمين، محمد فال الحسن .»الربا في التشريعات الموريتانية: دراسة فقهية قانونية» مجلة الفقه و القانون.

Issue 28, pp.85-155.2015 Issue 28, pp.85-155 (2015): 1.2015

حقيقية؛ فالمال يتقوم بما يمكن للإنسان الحصول عليه بقيمته، وهذا لا ينطبق على الزيادة الربوية.

وهي حقيقة مشاهدة في عالم اليوم الذي أنهكتْ اقتصاداته ودمرتها الربا بكل أشكالها وصورها.

والمال الحلال يربو ويزداد وتظهر بركته، والمال الحرام وإن كثر، فهو ممحوق فيه سحت لا بركة فيه ولا نماء ولا خير ولا عطاء، يأتي على كل شيء فيأكله كما تأكل النار الهشيم، ولذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) [البقرة: ٢٧٦]

وتنتقل الآيات في تحذير شديد من الدخول في الحرب في حال الإصرار على التعامل بالربا وعدم الإقلاع عنه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ) [البقرة: ٢٧٨- ٢٧٩]، هي الحرب بكل صورها، هي الحرب التي دُقت طبولها منذ زمن بعيد حين نكص الناس عن المنهج الرّباني في الحياة الاقتصادية.

ونظرة سريعة على بنوك العالم اليوم، ومصارف العالم في الشرق وفي الغرب؛ تلك المصارف والبنوك والمؤسسات المالية التي اتبعت منهج الرّبا، وارتضت مخالفة المنهج الرّباني ماذا حدث لها؟ ألم يحدث ذلك

المحق؟ ألم يمحق الله تلك الأموال؟ ألم تصبح تلك الأصفار المليونية أصفارًا لا قيمة لها في البنوك؟ ألم يصبح ذلك واقعًا وحقيقة؟! .

وحين يرى المتدبّر هذه الآيات في الواقع، تتحرك فيه دوافع الإيمان والتوبة وتعود به إلى خالقه عَزَّ وَجَلَّ فيتوقف عن ذلك العمل، من هنا جاءت الآية العظيمة بالتوبة: «وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ». وجاء الربط بينها وبين التذكير بالرجوع إلى الله سبحانه وتوفية الأنفس أعمالها في سياق دفع الإنسان لمراجعة نفسه وتدارك ما فاته من أموره الاقتصادية ومخالفاته؛ لتصفيتها قبل يوم اللقاء والرجوع إلى الخلاق سبحانه الذي أمر ونهى وشرّع ليطاع أمره ولا يُخالف شرعه: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) [البقرة: ٢٨١].

والقرآن العظيم لا يقف عند التحريم والتشريع فحسب، بل يقدم البديل، مذكرّا الإنسان أنه ما خُلق لجباية المال ولا ليكون خزانة بَنْك، بل خزانة عطف ورحمة وبذل.

فالله سبحانه شرّفه: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة: ٣٠]، وما كان لذلك الخليفة أن يتحول إلى قطعة من الحديد تكون خزانة لجمع الأموال، فهو إنسان أراد له خالقه أن يكون نهرًا وغيثًا من الحب والعطاء، ولذلك جاءت الآيات بعدها: (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ

تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) [البقرة: ٢٨٠-٢٨١]. فلا مزايدة على آلام الفقير والمحتاج وأحزانه ولا متاجرة بحاجته، فالمؤمن لا يتاجر بفقر الآخرين وحاجاتهم المادية، بل يمسح دموعهم ويخفف من آلامهم وأحزانهم بما أنعم الله به عليه من مال وعطاء.

وفي المقابل تنتقل الآيات إلى أطول آية في سورة البقرة آية الدَيْن؛ آية أداء الأمانات إلى أهلها، والترابط بينها وبين ما سبقها واضح، فالإمهال في ردّ الدين من أصحاب العسرة، لا يعني أن الإنسان لا يقوم بضبط الحقوق وتقييدها بالكتابة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [البقرة: ٢٨٢]

فالقرآن يعلّم المؤمن الأمانة وممارسة التقوى في أبهى صورها وحللها؛ التقوى الحاضرة، التقوى التي تفرض على المؤمن أن يكتب الدَّين مهما كان كبيرًا أو صغيرًا. التقوى التي تفرض عليه أن يؤدي الدَّين إلى صاحبه: «وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا».

«وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، التقوى التي تتحول إلى منهج يدخل في خلجات نفسه فيحرّك فيها دواعي الأمانة والإيمان، التقوى التي تجعله يؤدي قبل أن يُطالب بالأداء: «فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ». إنها التقوى التي صنعتها سورة البقرة، التقوى التي تُثمر الهداية بأحلى صورها، بالنور الذي فيها.

وقد تعرض الكثيرون في القديم والحديث لقضية تنصيف شهادة المرأة المذكورة في الآية، بعيدًا في كثير من الأحيان عن مقاصد الشهادة. فالشهادة وسيلة لتحقيق مقصد العدالة وإيصال الحقوق إلى أصحابها التي تضافرت النصوص على أهميتها ومحوريتها في تعاليم الشريعة الإسلامية. وعلى هذا فالقول بجواز شهادة المرأة في الحدود والقصاص لا ينبغي النظر إليه من خلال زاوية فقهية أحادية، تقوم على استدعاء الآراء الفقهية المتوافرة في المسألة، ومن ثمّ إجراء عمليات الترجيح والموازنة لهذا الرأي أو ذاك، مع إغفال أهمية استحضار المقاصد الباعثة على الحكم بهذا الرأي أو ذاك كوسيلة لتحقيق مطلب العدالة كما جاءت في الآية المذكورة.

من هنا ذهب العلماء إلى جواز شهادة النساء في الأموال واستشهدوا بهذه الآية، ولكنهم اختلفوا في قبول شهادتهن منفردات، فمنع ذلك الجمهور. وتعرض العلماء إلى تفسير آية الدين، وتأويل سبب تنصيف شهادة المرأة في الأموال أو ما يقصد به المال[140]، وذهب غالبيتهم إلى **أن ذلك دليل واضح على نقصان عقل المرأة عن الرجل بإطلاق.**

وفسرّ العلماء الضلال الوارد في الآية بأنه النسيان، والنسيان حالة تصيب العقل تمنعه من تذكر الشيء وقت الحاجة إليه. والنسيان ترك الإنسان ضبط ما استودع؛ إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، أو عن قصد حتى ينحذف عن القلب، ذكره بعض علماء الأصول. والنسيان عند الأطباء نقصان أو بطلان لقوة الذكاء.[141]

فالضلال عن الشهادة، إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء **والعلة في الحقيقة هي التذكير**، ولكن الضلال لما كان سببا له نزل منزلته. فالمعنى إن ضلت هذه ذكرتها هذه، وإن ضلت هذه ذكرتها هذه لا على التعيين.[142]

١٤٠. - المال كالقرض والغصب والديون وما قصد به المال كالبيع والوقف والإجارة والهبة والصلح والمساقاة والمضاربة والشركة والوصية. انظر في ذلك: ابن قدامة، المغني، مرجع سابق، ج٩، ١٥١. وراجع في ذلك كله كتابنا: أثر العرف في فهم النصوص...قضايا المرأة أنموذجا، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٣م. على الموقع الإلكتروني: Ruqaia.com

١٤١. - المناوي، مرجع سابق،، ج٢، ٦٩.

١٤٢. - ابن الجوزي، زاد المسير، مرجع سابق، ج٦، ١١٩.محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق، ج١، ٣٠٢.

والمتدبّر في الآية التي جاءت في سياق الحثّ والحضّ على أداء الشهادة والحفاظ على الحقوق لا ينبغي أن تُنزع من السياق الذي وردت فيه، سياق تحمل الأمانة وأداء الأمانات ومنها الشهادات والحرص عليها، وتحميل أفراد المجتمع رجالًا ونساءً تلك الأمانة والحفاظ عليها لحفظ حقوق الناس وعدم التخلي عنها تحت ضغط مخاوف معينة من أدائها. والقرآن العظيم يقدّم ويحمي حقوق الشهود ممن قد تتعرض حياتهم لتهديد أو خطر لإدلائهم بالشهادة. وهذا مطلب ومقصد عظيم من مقاصد سورة البقرة يرتبط بالتقوى العظيمة التي تدخل في كل جزئيات الحياة الإنسانية للفرد والمجتمع.

(وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) [البقرة: ٢٨٣]. والنهي عن كتمان الشهادة هنا له خصوصية لا تقف عند الحفاظ على الأموال وفي المعاملات المالية، بل يمتد ليشمل كافة التعاملات في المجتمع. والتناسب عظيم بين إثم القلب وكتمان الشهادة؛ ليوضّح القرآن الكريم مكانة الشهادة في إقامة الحق وإرساء دعائم المجتمع على العدل والإنصاف. وتتعدد الشهادات التي يشهدها الإنسان في حياته وعليه أن يؤديها ولا يكتمها، وأداؤها مرتبط بتقواه التي في قلبه. من هنا ختمت الآية بتأكيد علم الله سبحانه وإحاطته لما يعمله المرء ويقوم به.

ولذلك تختم آيات سورة البقرة بقوله عَزَّ وَجَلَّ في تلك الآيات العظيمة مجددًا: (للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ.لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) [البقرة: -٢٨٤-٢٨٦].[143]

١٤٣. روى مسلم في صحيحه (١٢٥) عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ (لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله - ﷺ - فأتوا رسول الله - ﷺ - ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. قال رسول الله - ﷺ -: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصي)ر، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن

والتناسب بين ختام السورة العظيمة وما قبلها بيّن، فالرّب عَزَّ وَجَلَّ أراد من البشر تنقية السرائر والخواطر التي لا يطلع عليها إلا هو سبحانه. إذ إن كتمان الشهادة على اختلاف أنواعها ودرجاتها، غالبا ما يكون بسبب مخاوف الإنسان من غيره، و خاصة إن كان صاحب قوة من مال أو ما شابه. فتأتي الآية لتؤكد أن المستحق للخشية والخوف منه هو الله سبحانه الذي له ملك السماوات والأرض. وهنا تتبدد مخاوف الإنسان من أي أحد إلا الله سبحانه. وتزداد تلك الخشية منه سبحانه حين يستحضر الإنسان اطلاع الله سبحانه على ما في نفسه سرًا أو علانية.

ثم تأتي تلك الآية التي تطمئن النفوس وتأتي على القلوب لتهدأ النفوس من روعة الخشية والخوف بمراقبة الله سبحانه، بالتذكير بالإيمان، وأن إيمان الإنسان بخالقه سبحانه، يؤّمنه من كل خوف: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) [البقرة: ٢٨٥].

الإيمان الذي لا يفرّق بين الأنبياء؛ فهو يؤمن بموسى وعيسى وجميع الأنبياء عليهم السلام. ذلك الإيمان الذي يدفع الإنسان نحو سماع الأوامر سماعَ طاعة: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا».

نسينا أو أخطأنا) قال: نعم (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) قال: نعم (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) قال: نعم، (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) قال: نعم.

فالسماع والطاعة هنا ليسا مجرد ادّعاء أو قول باللسان، ولكن سماع وطاعة وتنفيذ في واقع الحياة كما جاءت في سورة البقرة. طاعة الأوامر والتشريعات التي تجعل للإنسان في كل وقفة وتصرف قدرًا من الإيمان والتقوى لا يطّلع عليه إلا الله سبحانه.

إنها الطاعة التي تصنعها سورة البقرة في الأسرة، في الزواج والطلاق، في الصلاة والصيام، في القصاص والقتال، في السلم والحرب. الطاعة التي تجعل صاحبها وجّلاً على حذر، يطلب العفو والمصفح والمغفرة بتضرع لخالقه سبحانه الذي إليه المصير.

الطاعة التي تُبنى على التقوى تروم تطبيق المنهج، ولكن طبيعة البشر قد تغلب صاحبها، فيصدر عنها الغفلة أو الجهل أو النسيان و الخطأ، وكلها تقتضي التضرع للخالق سبحانه بطلب المغفرة: «غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».

ولذا جاءت الآية في الخاتمة: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) [البقرة: ٢٨٦].

«لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا»، جميع تعاليم وأوامر المنهج الرّباني ليست خارجة عن وسع الإنسان؛ فالله لم يكلفه بما لا يطيق. والخطأ

والنسيان معفوٌ عنهما في هذا الشرع العظيم، و في شريعة تنظر إلى الإنسان على أنه إنسان نسبي محدود تطرأ عليه العوارض.

الأمر الذي يؤكد أنها شريعة ربانية، من ربّ رحيم كريم، يحب عباده ويتودد إليهم وهو غني عنهم، يتودد إليهم بما فرضه عليهم لأجل أن يحيوا حياة تليق بإنسانيتهم.

وهي ديانة القرآن والإسلام التي بُنيت على اليسر والتخفيف وليست شريعة إصر ولا أغلال، بل شريعة الرحمة، شريعة الوسطية واليسر؛ ولذا استحقت أن تكون الشريعة الخاتمة لشريعة الأنبياء باختيار نبيها ﷺ الذي تمم الرسالات وبه تمّت.

من هنا جاء الدعاء المحبب الذي يجسّد رغبة المؤمن في تطبيق المنهج الرّباني على واقع الحياة رغم وجود نوازع الضعف البشري التي قد توقعه أحيانا في الخطأ والنسيان: ﴿وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ .

وهنا تبدو معاني العفو والمغفرة والرحمة من الخالق، تحيط بعباده وترعاهم، تربيهم وتهديهم وترشدهم للصراط المستقيم في ثنايا الشعور بتولي الله سبحانه وتعالى لهم: «أَنتَ مَوْلاَنَا»، تلك الولاية التي تحمل معاني الحماية والكفاية والرعاية، ومن كان الله مولى له ماذا ضاع منه وماذا فقد؟!.

سورة البقرة العظيمة أسست هذه المعاني الرائعة في نفس المؤمن، ولذا كانت تستحق أن تكون بهذه المنزلة التي أراد الله سبحانه وتعالى لها أن تكون. سورة جعلت من الإيمان حقيقة ويقينًا، جعلت من معاني الإيمان تعاليم ومنهجًا يسير عليه المؤمن في حياته في كل صغيرة وكبيرة، رافعًا أكف الضراعة بالدعاء إلى الله عَزَّ وَجَلَّ أن يعفو عن زلاته ويغفر هفواته ويصلح عثراته.

بصائر

تهدف مؤسسة بصائر إلى الإسهام في تنمية الإنسان والأسرة والمجتمع فكريًا وسلوكيًا وحضاريًا. وتقدم بصائر عددًا من الإصدارات المعنية بتدبّر القرآن وربطه بواقع الأفراد والمجتمع، وممارسة القيم الإيجابية التي جاءت بها كل سور القرآن وآياته. وتحاول من خلال هذه الإصدارات التوعية برسالة القرآن العالمية وقيمها الحضارية. كما تهتم بصائر بتوجيه الخطاب للمتحدثين بغير العربية إسهامًا في إيصال هذه المعاني والقيم القرآنية إليهم بأسلوب يتجاوز الكثير من الإشكاليات الناجمة عن الترجمة للتفاسير ولمعاني القرآن العظيم.

بصائر: مملكة البحرين

رقم الحساب المصرفي الدولي : BH37BIBB 00 1000 0017 5725

رمز السويفت لبنك البحرين الإسلامي : BIC: B1BBHBM

البريد الالكتروني : basair@basair.me